محمود حسن الجاسم

نزوح مريم

رواية



محمود حسن الجاسم

نزوح مريم

رواية

الكتاب: نزوح مريم / رواية

المؤلف: محمود حسن الجاسم

عدد الصفحات: 240 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-6483-34-7

رقم الايداع: 2015/9811

الطبعة الأولى: 2015

الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم

سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

محمود حسن الجاسم

نزوح مريم

رواية



«هذه الرواية من خيال الكاتب، وأيّ تشابه بين عالمها وعالم الواقع، من أشخاص أو أحداث أو أماكن، فإنما هو من قبيل المصادفة، وبعيد عن القصد».

الإهداء

إليكِ -مريم- أُدوِّن الحكاية. إليكِ، يامن سكنتِ في أحشائي، وخفق قلبك بروحي قبل أن يلمسك النور. ستقرئين الحكاية من أوّلها إلى آخرها، حتى تعرفي وتنقلي ما جرى لنا بصدق!

تركت لك مفتاح البيت، بعدما عجزتُ وضعتُ، وبعدما أُمِرتُ بذلك، حين باح لي وجه المسيحِ في المنام، ووشوشَتْني عمتي خديجة، وهي تسبّح، ونادى والدك مباركا.

ستعودين -يا مريم- بمفتاح البيت، مطمئنّة قويّة مباركة، وتغتسلين بياسمين الوطن، لتدفني ذلّ النزوح والضياع، وليضيءَ جمالُك من جديد في الدنيا كلّها!

أمّك سارة طوني جبّور

الفصل الأول:

عُود الخيزران

1

تراقب الرّقّة تلك الأيام بعينٍ خائفة. تنهمر الأمطار على سوريا، وتُبشِّر السنة بخصب غير مسبوقٍ، ومع ذلك فإنّ هاجسًا مقيتًا مخيفًا أخذ ينمو بدهاء وخفاء. يحسّه الناس جميعًا، يزحف ويدبّ في القلوب. هاجسٌ تبدو انعكاساته المخيفة في العيون وفي الوجوه وفي حركة الأنفاس. يتستّرون عليه متجاهلين. يقاومون سطوته! لكنه يتسرّب إلى النفوس ثقيلاً، فيأخذ شكلاً حادًّا عصبيًّا تارة، وشكلاً حزينًا مكبوتًا متحسّبًا تارة أخرى!

الشوارع تغلي بالتظاهرات. تتفجّر ملتهبة في سماء سوريا. تسيل مثل حممٍ بركانيّة في معظم المدن والبلدات، وتتزايد يومًا بعد يوم. تتعدّد الشِّعارات. تتلوّن. وجائحة الاحتجاجات والتظاهرات انتشرت في الهواء كالطاعون. تفور وتتغذى بالدماء والبارود. تفتكُ بكلّ النفوس وتترك أثرها في الوجوه. يتساقط القتلى والجرحى. يتعاظم الاحتقان. ينتشر الوجع، ويمتدّ في سوريا شرقًا وغربًا، جنوبًا وشمالاً تهتزّ صورة الدولة، ويملأ الخوف قلوب الناس!

المتظاهرون يظهرون على شاشات التلفاز، يهدرون في الشوارع، أو يختبئون خلف الجدران. بالعشرات، بالمئات، بالآلاف. جماعاتٍ جماعاتٍ. وقناةُ الجزيرة تبث على مدار الساعة. تنقل الصور

والتعليقات كأننا في موسم كأس العالم! يتابعها الشعب بخوف وبأمل. أمل الشفاء من أمراض الشرق المُزمنة!

نتّصل. نطمئنّ. نناقش. نحاكِم. نختلف في تقييم الأحداث، لكن نستخلص نتيجة واحدة: الأمور تسير إلى تحوّل مخيف مجهول المصير، والبلد دخل مرحلة جديدة!

يتوافد النازحون إلى الرّقّة وتزداد المدينة ازدحامًا، وما نسمعه من قصص ونشاهده من بؤس يجعلنا نحسّ بما يعانيه هؤلاء. تتحدّث وجوههم عن نكبة ووجع. عن خوف وحِقد. عن رفض واحتجاج. عن أشياء لا يمكنهم البوح بها! نتأمّل بعيوننا، وتتألّم قلوبنا بصمت! يتعاملون بحذر، يخشون الاحتكاك والحديث! يهربون من الازدحام والمشادّات. وراء كلّ منهم قصصٌ، يغلّفها قلقه وخوفه في غربته القسريّة.

في محافظة الرقة تدور الأفكار في الرؤوس. تتفاعل وتُطبخ قرارات لا مكان فيها للاهتمام بأوضاع الناس وشؤون حياتهم. فروع الأمن وكوادر الحزب مستنفرة على مدار اليوم.

سألتُ زميلتي الحمصيّة، مُدرِّسة العلوم، بعد الحصّة الأولى عن حال بيت أخيها الذي نزح ملتجئًا إليها:

-على الله. الحمد لله. البيت احترق. لكن الحمد لله على سلامة أخي وأسرته!

-من أحرقه؟

لا أعرف، حتى أبي وأخي وزوجته لا يعرفون!

إذا سألهم أحد عمّن هجّرهم وأحرق منازلهم يردّدون عبارات مبهمة، متردّدة، غامضة. تبدو أجوبتهم متهرّبة قلقة خائفة. يبتعدون عن كلّ ما يثير أسئلة حولهم وحول أسباب نزوحهم.

* * *

مع انقشاع غيوم الشتاء ازدادت حِدّة التظاهرات. أخبار الغَلَيان تتوالى، وعدوى التظاهر تتسلّل من مدينة إلى مدينة. من حيّ إلى حيّ. في الجمعة الأولى من آذار من العام 2012 دخل والدكِ العصر بعدما تأخّر قليلاً في عمله بمديرية الزراعة. دخل متقبّض الوجه على غير عادته. رمى الجاكيت بعصبية. لحقتُه في غرفة النوم. كان يفكّ ربطة العنق، ليغيّر لباسه. وعندما رآني أقف بالباب أنظر إليه بتساؤل قال:

-البلاء وصل إلى الرقة.

حاولت أن أهدّئ حالة القلق. أخذت لباسه ورحت أرتّبه في الخزانة، و من دون أن أنظر إليه سألته:

- ماذا تقصد؟

-التظاهرات وصلت إلى الرقة. هناك تظاهرات متفرّقة في شارع تل أبيض، وعند جامع الفردوس، وبعض الأماكن في أطراف المدينة!

سرى شعور خوف مفاجئ بداخلي:

-في الرقّة؟

-نعم في الرقّة.

-هل للغرباء نصيب في ذلك؟

- إنها جائحة عامة -يا سارة- ما هي مسألة غرباء.

في تلك الأيام راحت الحركة تقلّ بعد الغروب. واختفت تقريبًا النزهات المسائية لأهل الرقة بتنوّعهم الجميل. يتمدّد السكون في شارع المنصور منذ العاشرة! جدّتك خديجة أصبحت تقلق على عمّك بشير كلّما تأخّر في عمله. وهو منذ أن سفّر زوجته إيناس إلى أهلها في اللاذقية صار يتأخّر في عمله، وما عاد يُعرف له وقت مجيء أو خروج. وحين جلب معه تلك العصا الطويلة التي بدت غريبة على عمتي سألته:

-ما هذي البليّة يا بني؟

...! هذه عصا للحماية.

تمعّنَت بها، تمعّنَت ولم تلمسها:

-عصا؟

-نعم نعم. عصا!

أمّا أبوكِ فقد امتعض كثيرًا، حين شاهدكِ تحاولين لمسها بيدكِ، وصرخ:

-ابعدي مريم عنها. هذه فيها شحنة كهربائية، يستعملونها لشلّ المتظاهرين.

أبعدتُها إلى غرفة عمّك بشير، ودخلت غرفة النوم. كنت قد ظهّرت صورًا لكِ -يا مريم- حين ذهبتِ في رحلة لأطفال الروضة إلى حديقة الحيوانات!

في غرفة النوم استخرجتُ محفظة الصُّوَر من الخزانة، لأضع صوركِ فيها. رحت أقلّب وأتأمّل. ذكّرتني الصور بأيامي الأولى مع والدك. في تلك الأيام كان هاشم أبوكِ مديرًا لمزرعة النَّجاة جنوب بلدة مَسْكَنَة بين الرّقّة وحلب، وكنت قد عُيّنت معلّمة مبتدئة في المزرعة، لأمضي خدمة الريف.

يومها استقبلنا أنا وزميلتي الحلبية هدى، في مكتبه. قدّم القهوة والماء البارد. ثم راح يتحدّث بطلاقة. يستعمل مفردات تدلّ على ثقافة، يتقصّد التلفّظ بها أمامنا. بدا رجلاً مثقّفًا قويًّا مليئًا بالثقة، يحدّثنا حديثًا مشوّقًا، وبين الفكرة والأخرى يرمي مزحة فراتيّة خفيفة، تترك ظلاً لطيفًا، كأنّنا في جلسة سَمَر! كان يتحدّث بصوت رخيم مألوف، كأنّني سمعته في زمنٍ ما! وكان كلامه عذبًا جميلاً مثل جدول في

صحراء حارّة! لفت نظري وشدّني! تصرّف معنا بلباقة، وأرسل بطلب مسؤول السكن، حتى يُسلّمنا «شقّة الآنسات» المعدّة لنا في المزرعة.

راح يحدّثنا عن حماه وحلب ومحَرْدة. يهز رأسه بشعره المجَعّد المرتّب، ويوزع ابتسامات جذّابة بأسنان بيضاء وشارب أسود خفيف. ينقّل نظراته بيننا، بعينين واسعتين سوداوين حادّتَي النظر. يتحرّك بحيوية مرنة! ركّز في حديثه على بلدتي محَرْدة، وهو يتفحّصني بعينَي رجل مهتمّ، وكأنّه يحلم بعشق امرأة، وحَدْسي ينبئني أنّي المقصودة في حديثه!

وحين قام لوداعنا نظرت إليه بطرف عيني، والتقت العيون عن قرب. تأكدت أنني المقصودة، وارتبكت. كان أسمر طويلاً وضامرًا نحيلاً مثل نخلة فراتيّة!

«هكذا أمور لا تخفى. أُعجِب بي هذا الأسمر النحيل! نحن النساء نقرأ ذلك وندركه بحاسّة خاصّة. ولا أنكر أنه شدّني ولفت انتباهي أيضًا. ولكنّي في عالم جديد، ولست مستعدّة للّعب».

هكذا قلت لنفسي. ولم أنتبه إلى انشغالي به وصمتي، إلّا حين قالت زميلتي الحلبية الآنسة هدى تلمّح:

-مؤثّر هذا الفراتي!

أخذنا مسؤول السَّكَن إلى الشّقّة المخصّصة لآنسات المدرسة. كنا نسير على الإسفلت. مررنا من أمام شقق صغيرة رصاصيّة اللون. وعلى اليمين ساحة ترابية مقابل المدرسة، يلعب فيها الأولاد كالعفاريت، وعلى الطريق تمرّ شاحنات وجرّارات من الحقول تحمل عاملات المزرعة. ينظرْنَ إلينا من وراء لِثام يخفي وجوههن عن الشمس، ينظرن نظرات استكشاف، إعجاب، غيرة، حلم. سمعت الكثير عن الحياة القاسية هنا!

يومها استلمنا الشقّة، وساعدتنا امرأة، تدعى المعلّمة مريم أمّ حميدي، معلّمة العاملات. غسلَت الشقة هي وبناتها معنا، وبعد أن غادرت أرسلَت لنا وجبة طعام مكوّنة من «فاصولياء على بندورة»، معها لبن غنم وفليفلة خضراء وخبز!

ما زلت أذكر عذاب ذلكِ اليوم، إذ ما إن حان المغيب حتى هاجمنا طنين من جهنم. فاجأتْني تلك المخلوقات الناعمة اللئيمة! تهجم كعاصفة من دخان. لا نسمع إلا طنينًا خافتًا متوعّدًا. لا ندري من أين تخرج كل هذه المخلوقات مثل الغبار السام! تملأ السماء والهواء والبيوت والثياب! أغتسل بالماء، كي يخفّ اللهب في جلدي. أهرب إلى الحمّام، أستحمّ وأبرّد بعض اللسعات. تورّم وجهي من لسع البعوض. واشتد عليّ الحرّ صرت أبكي في البداية! ولم أنم ليلتها إلّا عند انبلاج الفجر. ولولا المعونة التي قدمتها لنا يسرى آنسة الرياضيات وزوجة المهندس صبحي، مدير الحركة في المزرعة، إذ أسعفتنا بنامُوْسِيّة في اليوم الثاني، لكنت فررت من ذلك المكان الذي بدا لي كالجحيم. وأصبحت الناموسية جزءًا من مساءاتي. أتكوّر فيها عند الغروب مع زميلتي الحلبيّة هدى. والمروحة تدور في السقف طيلة الليل. ثم طوّرنا الحماية، فوضعنا على النوافذ شبكًا ناعمًا يحمينا ويحدّ من دخول البعوض، شأن بقية السكان.

لقد كان البعوض العدوّ الأوّل لسكّان المزرعة، فما إن يحلّ الغروب حتى يحلّ معه التوجّس والاستنفار. ففي مواجهة دوامة الطنين الجهنّمي، يشعلون النيران ويضعون فيها ما يزيد من الدخان لكي يهرب البعوض، عندها يرتفع البعوض كثيفًا مثل الغبار، ويختلط بالدخان فوق المزرعة، فتبدو من بعيد، وكأنّها بلدة تُستباح، وتتعرّض لمَحْرَقَة! وإذا كانوا محظوظين هبّ الهواء الغربي، ليخفّف من جحيم الطنين واللهب!

سكان مزرعة النجاة خليط. أكثر العمال من أبناء الفرات. وبعضهم من البدو، الذين هاجروا من عمق البادية جنوب المزرعة، واستقرّوا فيها. أما المسؤولون من مهندسين وفنيين فمن المناطق الغربيّة والوسطى، وكان المهندس الفراتي الوحيد بينهم هو مدير المزرعة، الأستاذ هاشم سعيد الحسين، والدكِ، يا مريم!

كان نمط الحياة في تلك المزرعة غريبًا عليّ في كلّ شيء، فالأولاد يركضون كالجِدْيان الشقيّة، يلتحمون بالطبيعة، من دون حماية أو حرص.

تبدو وجوه العمال حين يعودون من العمل بلون الغبار، أما في العصر بعد الراحة فإن تلك الوجوه المكدودة، تلك الوجوه البائسة المتعبة، تصبح كأرض محَرْدة، وقد بلّلها المطر. تنتعش وتنتشي، وتتجلّى شهوة الحياة في بريق العيون من جديد!

الفتيات في العمل يتلثّمن. يحتمين من ضوء الشمس، كما يحتمين من عدوى وباء خطير. ينهضن منذ الصباح، يتجمّعن في الساحة قرب المدرسة، معهن «المعلّمة» مريم أمّ حميدي، التي تمرّ من أمام سكننا، تصبِّح علينا، وهي تمضي باتجاه تجمّع العاملات، وهناك يركبن الجرّارات والشاحنات، ويتوجهنَ للعمل في الزراعة. لقطاف القطن. للتعشيب. لترثية البذور.

بعد الظهر يعدنَ مكدودات. لكنهنّ عند العصر، بعد القَيلولة والحمّام، ينهضن من جديد قويّات حيويّات مغسولات، تهزّهن الحياة. يذهبنَ إلى بساتين الخُضْرة. يتعطّرن ويخرجن، فيتهامسن ويضحكن ويصهلن كالمُهَر النشيطة.

وفي المساءات تتحوّل الحكايات إلى عُذوبة لذيذة فيّاضة في نفوس الفُراتيّات، إلى درجة تجعلني أشكّ وأتساءل هل هذه المرأة

هي ذاتها التي تذهب في الصباح وتعود بعد الظهر منهكة من عمل شاقّ؟

يبدو الناس في هذا المكان النائي الموحش مُحاصَرين بشقاء متنوّع الوجوه: حرارة الشمس. شقاء العمل. الطنين الجهنّمي. التهميش من الجهات الرسميّة. ثمّ هذه العلب التي تسمّى بيوتًا، هذه الصفائح الإسمنتية، هذه اللعنة بلونها الرصاصي المقيت كانت تصبّ لهيبًا مُحرقًا، يستمر في توهّجه منذ منتصف النهار إلى الليل.

يبدون في النهار قساة، أما في الليل، عندما تهبّ نسمات الغربي المنعشة، فإن السكينة تخيّم على حياتهم. يسهرون ويتسامرون. يضحكون ويغنّون، ليبدّدوا منغّصات الحياة وتعب النهار وصراعهم مع الطبيعة!

يعيش في محيط مزرعة النجاة، جهة الجنوب، قبائل من البدو، أكثرهم من المقيمين على أطراف البادية الواسعة، ومنهم بعض الرحّل. هؤلاء لا يعتمدون كثيرًا على الزراعة، فحياتهم تقوم على تربية المواشي في تلك المراعي الواسعة.

تعلّق جدّتكِ خديجة بعد زواجنا أنا ووالدكِ:

-كان هاشم ينوي تخريبها فوق رؤوسنا، لو ما وافقنا على زواجه منك، يا بنتي!

أقلّب محفظة الصور بجلدها الطري. أقف عند مناظر بديعة في الصور التي حملتها معي من محَرْدة. تلك كنيسة السَّيِّدة. قلعة شِيْزَر. نهر العاصي. أتوقّف عند صورتي مع صديقتي رنا شَلْهُوب على كتف العاصي بمحَرْدة. أتوقّف عند صورة لوالدي مع عمّي جورج. صورة في بيت عمّي بدمشق وأنا طفلة أجلس في حضن والدي. صورة أخرى لعمتي ليلى مع ولديها زياد وروعة يبتسمان، وهي بينهما في كنيسة مَار

جُرْجُس بمحَرْدة. أتأمّل كيف تمرّ أيام العمر؟ أحسست بالغصّة وأنا أنظر إلى صورة للمرحومة أمّي، وهي تحملني تحت دالية العنب في الحوش، وعمري لا يتجاوز الأربع سنوات.

صرختُكِ -يا مريم- جعلتني أترك المحفظة، وأطوي الذكريات وأنزل مسرعة. وجدتكِ تبكين بحضن عمتي خديجة، بعدما وقعتِ!

أحيانًا يغيب الحديث عن التظاهرات في البلد. تتراجع أو تغيب أيامًا. الجميع يحاول أن يتجاهلها ويستبعدها. لكنها عنيدة مخاتلة، تتوارى خلف الواقع، وتقهر التجاهل. فتصرخ من جديد مشتعلة لعينة لها أزيز. تعود صور الدم والرصاص على الشاشات كل يوم جمعة. تعود لتتمدّد في عالمنا كالسموم، تجعل كل ما جرى أقرب إلى كابوس ثقيل.

في ذلك اليوم، يوم الخميس 15 آذار من العام 2012 حدثت مصيبة جرّت الرّقّة إلى تطوّرات متلاحقة غير محسوبة! ردّت عمتي خديجة على الهاتف، وبيدها كأس الشاي وأنت تلعبين بجانبها، يا مريم. تنصت وتقطّب، ويتجهّم وجهها! وفجأةً ارتميتِ على يديها، فتطايرَت رشقات الشاي على ثوبها «الكُودَرِي»! لم تكترث عمتي خديجة! وبِلَوْعَة قالت لمحدّثها على الهاتف:

-فال الله، ولا فالك! يا ويل ويلي!

قالتها، وضربت على صدرها بحرقة خائفة، من دون أن تنظر إلى ثوبها المبلّل بالشاي!

توالى الحوار والجدل بين الأقارب والأصدقاء، على الهواتف الأرضية والجوّالات. سمعنا أن الشاب البابِنْسِي قُتل في المظاهرة، وسقط العديد من رفاقه!

كأنّ مقتله كان الشعرة التي قصَمَت ظهر البعير. اهتزّ الوجدان واختلط الحزن بالخوف! وجعٌ كبير يتمدّد بعد احتقان واحتجاج، يتفاعل وينتشر كالسموم في سماء الرقة.

نجلس في المضافة، ونترقّب عمّكِ بشير حتى نعرف التفاصيل. تأخّر، وجوّاله مغلق! نجلس قلقين، وبردّة فعل غريزية كنا ننتظر شيئًا ما بخوف، في حين كنتِ تجولين بيننا منزعجة من صمتنا. تنظرين إليّ، أمازحكِ لأبدد الصمت الثقيل وبرودة الانتظار.

مفاجأة ذلك اليوم حلّت بعدها أسئلة كثيفة مخيفة ومتسارعة، أسئلة تدور في النفوس كاوية تتقلّب كالجمر. هل مصيبتنا كبيرة! أكبر من تظاهرات وثورة؟ هل البلد مقبل على مستقبل مجهول؟ لماذا كل هذا العنف؟ إلى متى؟ كيف؟ تتوالى الأسئلة ومعها ذلك الإحساس المقيت!

يمرّ الوقت باردًا برودة قاسية تتسرّب إلى العظام. أنظر في والدكِ، وكان يعاني من زُكام أقعده في البيت يوم الخميس، فلم يذهب إلى وظيفته في مديرية الزراعة! يجلس صامتًا يراقب نار المدفأة تتراقص أمامه. في الليل صمتٌ يلف الرقّة، وظلمة كثيفة غير معهودة، وبرودة موحشة. كلّ شيء له طعم جديد غريب في حياتنا. توجّس وترقّب وخوف! هناك مجهول كريه يتحرّك كالشوك في العقول، له طعم لاذع!

نتابع الأخبار على قناة الجزيرة، فنشاهد الصور والتظاهرات والشعارات الكبيرة، نظنّ أن الدولة انهارت وأن التظاهرات تزحف في طريقها إلى القصر الجمهوري! وحين نقلب إلى القناة السورية نرى أن الأمور على ما يرام، وكأنّ شيئًا لم يحدث!

-تأخّر بشير على غير العادة هذا اليوم، يا هاشم!

كسرت الصمت عمتي خديجة. تريد أن تبدّد القلق. تخاطب والدكِ، وتتنقل بنظراتها مني إليه، وهي تمسح على شعركِ. كنتُ أبتسم كعادة الفُراتيّين، فقد جعلتني مياه الفرات حيويّة ومتفائلة إلى درجة كبيرة.

- لا تقلقي، المهمّات الحزبية جعلت كل شيء يتغيّر في بشير، فهو يُخلِص لها ويعطيها نفسه كلها.

-بعد مقتل البابِنْسِي صار الوضع يخوّف، وأخوك يظنّ نفسه أنه مسؤول أمني، وكأنه يقلّد ضباط المخابرات!

-نعم، للأسف، هو يقلّدهم. كلّ بعثيّ يحمل العصا الكهربائية يظن نفسه ضابطًا أمنيًّا!

لم أفهم على والدكِ! حالته النفسية المضطربة تجعل كلامه غامضًا، مثل موقفه من الحراك الشعبي والتظاهرات. هل ينتقد حماسة أخيه في مواجهة المتظاهرين؟ هل هو مع الدولة؟ أم مع المتظاهرين؟ تارة يتحدّث عن الحكم بأسلوب تحريضي، وتارة يتحدّث عنه أنه الشرعي والوحيد، ولا بديل عنه! كأنه يريد أن تتغير الأمور مثل تغيّر الفصول، من دون خسائر!

والدكِ يترقّب أخبار عمك بشير صامتًا بوجه غاضب، ويقاوم حرارة الزكام. راح يقلّب قنوات التلفاز، يقلب من قناة إلى أخرى بلا تركيز. يقلّب ويقلّب. لم يستطع أن يثبّت الجهاز على محطة، وكأنه يصارع في ذهنه أفكارًا متشابكة متداخلة متناقضة مزعجة، مثل كتلة غبار لزجة مقيتة!

-تأخّر أخوك بشير!

كرّرت عمتي خديجة، في حين هزّ هاشم رأسه متأففًا، وقبل أن يعلّق طرق الباب، ودخل عمّكِ بشير!

مشيتِ -يا مريم- نحو عمّك، ودلقتِ كأس الماء، أمام والدك على السجّادة، من دون أن نحسّ. عمتي خديجة توجّهت بعينيها إلى بشير، وبعصبية رفعت يدها تهزّها:

- أين كنت؟ خبّرنا إذا كان في نيتك التأخّر. جعلتنا نستنفر معك!

-كنت في عملي! أين أكون؟

-في عملي.

قالها هاشم بأسلوب ساخر، ولوى فمه امتعاضًا. اقتربتِ من عمّك بشير، ووضعتِ يدك على كتفه تضحكين، فامتصّ ذلك شيئًا من انفعاله، ولكنه ردّ على لطمة الاستقبال:

-هاشم حلّ عنّي! يكفيك سخرية أرجوك. ردودك تسمّم البدن. اتركني بحالي، همّي يكفيني!

أبعدَكِ قليلاً، وأطفأ السيجارة في المنفضة، وتابع:

-من بداية الاضطرابات تعيش بتردد وقلق، لا تعرف ماذا تفعل. مرة تشجّع ومرة تسخر! يا أخي حلّ عني!

ثم أضاف وقد رفع من نبرة صوته:

-هذا موقف! الآن وقت المواقف. الوضع يحتاج إلى حسم، إلى شجاعة. كل واحد حرّ بقراره. يكفي كلام بلا طعمة. المؤامرة كبيرة على البلد، وأنت تنظّر عليّ!

صعَد الدرَج باتّجاه غرفته، ومن الأعلى ظلّت تتساقط منه كلمات غاضبة محتجّة بعصبية، واستمرّ يتكلم منفعلاً، يدفعه إلى الكلام حماسة فظيعة. كأنّه يغلي. يوجّه إلى أخيه عبارات غريبة. ولولا أن رنّ جوّاله لربما تطوّر الموقف إلى مشاحنة ما كنّا نرغب بها.

لا أدري لماذا ثار هذه الثورة؟ كيف تلفَّظ بهذه الكلمات، أمام عمتي خديجة، بحقّ أخيه الأكبر؟ هل تحمل الرياح عدوى الاحتجاجات، فتصيب كلّ شيء؟ هل تخيل نفسه كيف يقتل؟ كيف يسحل؟ كيف يأكل العصي الكهربائية مثل المتظاهرين؟

- يا حيف يا بني!

قالت عمتي خديجة، في حين كان بشير يتحدّث بالجوال من غرفته، في الدور الأول. يتكلّم بانفعال، وكأنه يعطي تعليمات. نسمع منه كلمات مبعثرة «الجمعة»، «الصلاة»، «جنازته». يتكلم في غرفته على الجوّال. عبارات سريعة بكلمات متداخلة مختلطة متنوّعة، لا نفهمها، لكنها تُقرأ بالحدس، ومن طبيعة الموقف توحي بأن أمرًا كبيرًا ينتظر يوم الغد، يوم الجمعة.

- ما هو صغير

علّقت عمتي خديجة، وهي ترفع ذراعها في الهواء، ثم غطّت جبينها بيدها وباليد الثانية مسحت على شعرك، يا مريم. أمّا أبوك فكان متوترًا يهزّ قدمه، وهو جالس، وقد أخذ جبينه يتقبّض، بنظرات قلقة.

حين عاد عمّك بشير كان هادئًا. جلس وتحدّث بنغمة اعتذار مبتسمًا. تكلّم بلهجة فيها تواضع ومصالحة، وفيها تقدير واعتبار:

- الوضع يجعلنا نتوتّر من أتفه الأسباب. أين سأكون يا هاشم؟ في العمل، في الشعبة! الوضع متأزّم ونحاول احتواء الموقف .الأمور خطيرة في الرقة.

ينظر إليّ هاشم، ثم ينظر إلى عمتي وينتظر تعليقًا.

- منذ دقائق هاجموا مراكز أمنية.

-رأيت أمين الفرع اليوم بوضع سيّئ، في وجهه هموم كبيرة. يقول إن الأمور ستزداد سوءًا، ويجب أن نقوم بالواجب.

صامتة تستمع عمتي خديجة إلى تلك العبارات، وفي عينيها تعبير غامض مبهم، رغم أن نظرتها تبدو حنونة ومعاتبة.

تبرّعَت وعلّقَت بدل هاشم بهدوء، دون أن تحوّل نظرها عن التلفاز:

-الله ينهيها على خير، يا بني!

بعد لحظات من الصمت عقّب هاشم أخيرًا:

-أخاف عليكَ، وتهمّني أفعالك. لأنّكَ أخي.

عندما أخذ الحوار سبيل المصالحة بصورة ودودة، أقرب إلى التوافق والرضا، نهضتُ نحو المطبخ، لأحضر الطعام، ولحقتني عمتي خديجة، وبقي بشير وهاشم في الغرفة يتحادثان بجدّيّة ومودّة، وكأنهما يبحثان عن حلّ!

بعد العشاء صعد عمّكِ بشير إلى غرفته ثم نزل مسرعًا وقال:

-عندي شغل ضروري. السيارة تنتظرني!

عمتي خديجة أصيبت بالذهول من هذا القرار! وهاشم بقي صامتًا ينظر إلى أخيه! وقبل أن يخرج بشير وقفت عمتي خديجة:

-ما شربت الشاي!

-خروجي ضروري وهذا واجبي. سأخرج ولن أعود الليلة.

استغربَت عمتي جوابه. اقتربَت منه، ووضعَت يدها على كتفه. وبنظرات من أمّ مُتضرِّعة مُستعطِفة قالت:

-الصباح رَباح يا بني.

خرج بشير! كانت تنتظره سيارة من سيارات الحزب! لم يرُقْ ذلك لهاشم. هزّ رأسه بحِيرة وتشنّج، طرق الكرسي بقبضة يده طرقات رتيبة محتجّة، وسعل نتيجة الزكام! بعدها لم يرُق لنا السهر. الوضع قلق، وخروج بشير زاد من قلقنا. نقعتُ لهاشم بعض الأعشاب في ماء ساخن شرب القليل منها... ثم قمنا إلى النوم.

في غرفة النوم أبعدتُ الستارة، لأفتح النافذة قليلاً. لم أرَ سوى الظلام والصمت في الرقة، ثم اندسستُ إلى جانب والدكِ في الفراش. نظر إليّ نظرة طويلة وهو يسعل. أحسستُ أنها نظرة صادقة وحزينة، كأنّها تحمل شكوى صامتة ترسلها روحه! احتضن يدي، ثم راح يحدّق في السقف. يداعب يدي ويحدقّ شاردًا. وفي هذا الوقت المتأخر رنّ جواله، فنهضتُ وجلبتُ له الجوال.

-أهلاً صبحي... كيف الحال؟

-والله لا نعرف! الله يسلمك.

- نعم. متوتر.. خير إن شاء الله!

-تصبح على خير -حبيبي- سلِّم.

حين أغلق الجوّال، ووضعه على الطاولة بقرب السرير، أخبرني أن صديقنا صبحي الأسعد يتّصل به من طرطوس، يطمئنّ على الأوضاع، ثم أدار وجهه لينام.

وضعت رأسي على الوسادة وأخذتني الذكريات مع ذِكر صبحي

الأسعد. أخذتني الذكريات إلى الآنسة يسرى زوجته، وأيام مزرعة النجاة، ولقائي بوالدكِ قبل الزواج في بيتهم!

فبعد أسبوعين من عملنا في مدرسة النجاة، وبعد مرور بضعة أيام على تسلّمنا للشقّة الخاصة بآنسات المدرسة دعَتنا زميلتنا الآنسة يسرى، زوجة المهندس صبحي إلى جلسة عائلية مشتركة. زوجها المهندس صبحي الأسعد، ومهندس الرَيّ وزوجته، ومهندس من مزرعة مجاورة مع أسرته، وكان المدير هاشم سعيد الحسين على رأس المدعوّين، والرجل الأعزَب الوحيد!

وكنتُ مقتنعة بوقوع مدير المزرعة الأستاذ هاشم في شباكي. نظرة المرأة لا تخطئ. بحدسها تتأكّد من إعجاب الرجل من دون أن تنظر إليه تشعر بنظراته تدبّ ناعمة، فوق خلايا وجهها، تتسلّل تحت اللباس إلى خلايا جسدها، فتتفتّح مثل زهرة!

كانت جلسة ممتعة. دردشنا ودخلنا في موضوعات مختلفة، تعرّفتُ أكثر إلى الحضور، وإلى طبيعة الحياة. وكانت النظرات تتلصّص وتسرق! ومع شرب القهوة والفَضْفَضَة وتداخل الأحاديث استمرّت الجلسة أكثر من ثلاث ساعات، وقد كان يوم جمعة. التقت وجهات النظر في أكثر من موضوع. وكان ثمة نسيم نفسي طري ينعش الجلسة، تغذّيه نظرات خفيّة من المدير تمطرني محبّةً، وتحوّلني إلى أميرة الجلسة!

تعمّقت المشاعر أكثر! وحين قام يودّعني مدّ يديه الاثنتين محتضنًا يدي فاختفت بين يديه كطفلة تائهة! هزّ يدي اليمنى بيديه هزّة رجل يندفع بكل مشاعره، ولا يريد أن أغادر! شعرت بكهرباء تهزني في أعماقي!

حتى في مزرعة النجاة، هذا المكان البائس، تنتعش المرأة حين يُعجب بها الرجل! انتهت الجلسة وعدنا إلى الشقّة. مشاعر السعادة أزاحت مشاعر الوجد والشوق إلى أهلي! طافت في ذاكرتي صورة والدي المريض المدمن في محَرْدة. وطاف شبح أمي الميتة تبتسم ابتسامة متعبة واهنة تشبه حالها قبل الموت، حين كانت في أيامها الأخيرة!

عندما وصلت إلى الشقّة، ومن دون قصد، فكّرت في احتمال أن يكون مكتوبًا لي أن أعيش في هذه المزرعة. رحت أقارن بين طبيعة محَرْدة وهذا الواقع الجهنّمي في ريف منسيّ بين حلب والرقة. أيّ مكان هذا الذي أوصلني إليه حظي التعِس؟ يسمّونها مزرعة النجاة؟ إنها مهلكة وليست نجاة! توقّفت عن تقليب محطات التلفاز وتناولت الجوّال، لأعيد الأسطوانة على عمي جورج، ألحّ عليه أن يسرّع في نقلي من هنا، وأخلص من خدمة الريف. لكني عدلت عن الاتصال ورميت الجوّال! وعُدت أقلّب المحطات من جديد. أبحث عن أغنية لجورج وسّوف أو لفيروز. كان توتّر لطيفٌ يظهر على تصرّفاتي. ابتسمت هدى، وهي تروزني بنظرة خبيرة:

-الأستاذ هاشم كان ينظر إليك نظرة إعجاب!

-والله!

قلتها بنبرة تعجّب، ثم أضفت:

-ما انتبهت!

وخزتني زميلتي من خاصرتي، وهي تتجه نحو المطبخ لتعدّ لنا قهوة. كانت تضحك من تجاهلي ومكري المكشوفين!

تنبعث حيّة تلك الذكريات الغافية، طريّة بملامحها وروائحها.

تدوّخني! أنظر إلى والدكِ وهو متمدّد في الفراش بجانبي، وأقارنه بتلك الصورة التي استبدَّت بي!

يتقلّب والدكِ في السرير. أخذ مُسكّنات لتهدئة الزُّكام وبقي متعبًا. مع أنّ جسده قويّ. كنت أريد أن أصرفه عن الغَمّ، مقتنعة بقدرتي على ذلك، واثقة من أني امرأة قادرة على إذكاء الحياة في جسده! لكن هذه المرة لم يهتم هاشم بيوم الخميس! حاولت بكل وسائل الأنثى! أشعر أنه مستيقظ، ولكنه يتظاهر بالنوم. تبتعد مشاعره ويتهرّب من الحياة!

«لا يمكن أن يصرفه عنّي زكام عابر، ما برأسه أكبر بكثير!».

قلت ذلك في نفسي وانصرفت عنه، فالمرأة لا تستطيع أن تنتظر طويلاً، حتى لا تشعر بجَرح!

بعد منتصف الليل خيّمت رهبة السكون في سماء الرقّة، ومن جهة الغرب تناهت طقطقة رصاص بعيدة تشبه طقطقة حب ذرة يُشوى على النار.

بدأت الأسئلة تنقر في دماغي مثل ديوك متصارعة لا ترحم. هل ستتمكن هذه الجماعات، التي ترفع من وتيرة العنف في التظاهرات، من فرض أسلوبها وهزيمة الدولة والمعارضة معًا؟ ماذا لو تطوّرت الأمور أكثر؟ كيف سيكون الوضع؟ وهل الدولة صارت ضعيفة؟

كنت غارقة في أفكاري، قلقة أتقلّب من جنب إلى جنب. أحسّ هاشم بقلقي تنهّد وسعل. بعدما أجهده التفكير، حاول النوم، لكنه لم يستطع. قمت لإحضار كأس ماء. كنت أريد أن أفعل أيّ شيء يخفف من قلقي. ما إن عدت إلى الفراش حتى قال:

-هؤلاء الحمقى البعثيون لا يعرفون التعامل مع الناس، لا يعرفون التعامل مع الاحتجاجات إلا بالقمع. يظنون أن حزبهم لا يُقهر. لا يستطيعون تقبّل أن حكم الحزب الواحد انتهى في العالم كله، والنماذج المتبقية مآلها الخسارة.

-خوّفتني! ما نمت؟

وقرصتُه حتى أبدّد الغم!

-أنا قلق عليكِ وعلى مريم وعلى أمي وعلى بشير، وقلق على الرقّة وعلى سوريا كلها. لكن ماذا ينفع هذا القلق! لا يغيّر شيئًا.

عقّبتُ مستسلمة:

-المكتوب ما منه مهرب!

نهض هاشم، وفتح النافذة، فدخل إلى الغرفة هواء بارد منعش، راح يحرّك الستارة أحيانًا، وبدّد شيئًا من الغمّ في نفوسنا!

- 2 -

بقيتُ نائمة حتى العاشرة صباحًا، فقد كان يوم الجمعة. بعد تململ في الفراش، وكان هاشم ما يزال نائمًا، قمت وذهبت إلى عمتي خديجة في المطبخ، كانت تعدّ العدّة لتصنع «السِّيايِيْل»، نحبها جميعًا شأن أهل الرقة. تصنعها عمتي بمهارة، تعجن العجين بطريقة خاصة، وتضع السمن العربي الجيّد، مع كمية من السكر المذاب، ومكوّنات أخرى تسميها عمتي «الخلطة السرّيّة»، وتشتهر بصناعتها بين الجيران. لمّا تفقّدتُ الثلاّجة تفاجأت! لم يكن عندنا ما يكفي من الخبز! بقايا مقطّعة! ووالدكِ متعب من الزكام. سعل في الليل كثيرًا وسخَن. لم ينم حتى الفجر. أما عمّكِ بشير فلم يرجع، منذ أن خرج في الليل!

قرّرتُ الذهاب إلى الفرن الاحتياطي بعد الصلاة مباشرة، حتى أجلب الخبز. رنّ الهاتف. كانت جارتنا أم سالم تطلبت عمتي خديجة. أخذهما الحديث على الهاتف! وعمتي خديجة تهزّ رأسها بتوتر. ولما أغلقت السمّاعة قالت:

-اليوم بعد صلاة الجمعة سيصلّون على الولد البابِنْسِي بجامع الفوّاز، وبعدها يشيّعون الجنازة في تظاهرة كبيرة!

-الله يستر!

-يا بنتي نؤجّل شراء الخبز. الوضع سيّئ، وتشييع البابِنْسِي لن يمرّ على خير.

وضعتُ صينيّة القهوة على المَرْمَرَة:

-عمتي، جامع الفواز بعيد. تشييعه بجامع الفواز، وطريقي على الفرن الاحتياطي!

شربنا القهوة وساعدت عمتي خديجة، ثم رتّبتُ الأواني ونظّفت المطبخ، وبعد صلاة الظهر صعدتُ إلى غرفة النوم، ومن دون أن أشعّل الضوء لبست بنطال الجينز والكنزة الزهرية مع جاكيت الجينز. أتحرّك بحذَر، حتى لا يستيقظ هاشم. نظرتُ على عجل في المرآة في العتمة. رتّبت شعري قليلاً، ثم نزلت. عمتي خديجة تنظر إليّ صامتة، لكنّ نظراتها تتكلم. تحتجّ، كأنّها تقول:

«أنا قلقة لا تخرجي».

حين خرجت كنت أسمع صوت التظاهرات من بعيد. عدد قليل من المارّة يسيرون في الشارع. لم ألحظ حركة للنساء، «إنه يوم الجمعة». قلت في نفسي.

صوت التظاهرات يتعالى كأنه يقترب. وصلت إلى الفرن ووجدت بعض الأولاد يبيعون الخبز. اشتريت ربطتين وعكفت راجعة في الشارع نفسه. الصوت يقترب! فجأةً ظهرت طلائع المتظاهرين فأحسست أنّي تورّطت! أصابني ارتجاف في جسدي وأحسست أن ركبتيّ غير قادرتين على حملي. لكن لا سبيل. أتقدّم! ها هم أمامي حقيقة! بشحمهم ولحمهم، بدمهم وغضبهم! ليتني لم أخرج، ولكن....!

التظاهرة مثل أمواج بشريّة هادرة! مناظر حيّة، جديدة على نظري. تختلف عن مشاهدتها بالتلفاز. الصُراخ والهتاف يرتفع. يزلزل الأرض والجدران ويدوّي في سماء الرقة. بدأت أصَلّب على صدري من دون شعور. هل ما أشاهده حقيقة؟ من هؤلاء؟ يا يسوع لماذا ساقتني الأقدار إلى هذا الموقف؟ طلائع الحشد تقترب والشعارات تعلو وتهدر:

هي لله هي لله لا للسلطة ولا للجاه
رقّاوي وما بيَّ خِيَانَة وين الأمن اليِتْحَدّانا

حشد التظاهرات يهدر بأصوات متداخلة صاخبة مرعبة. تظهر اللافتات وتقترب. الخبط يتعالى.. يا يسوع! الرحمة.. يا عذرا، أنا امرأة وحيدة ضعيفة! يقترب الحشد مني أتلفّت بحثًا عن منفذ!

عالجنة رايحين............
حرّيّة للأبدّ   غصبَ لْعنّك يا أسد....
الشعب يريد إسقاط النظام

يقتربون أكثر. يتحرّكون حركات غاضبة متحدّية تنذر بمواجهة. معظمهم شباب ذكور. لم أشاهد بينهم إلا بعض الفتيات أو النساء. مع صراخهم تلوِّح أيديهم في الهواء، مثل سيوف مُستلّةً في لحظة هجوم. دويّ التظاهرة يزداد. من زاوية إلى زاوية، من بناية إلى بناية، يتردّد في الحجر والشجر والأرض والسماء. النسوة يقفنَ وراء النوافذ وعلى الشُّرُفات! الدويّ يرتفع! الطبيعة باردة، والرجفة تجتاحني.

وجدتُ نفسي مجبرةً على البحث عن مكان بعيد عنهم، فركضتُ. لكنّ الدويّ يقترب. يحاصرني! بدأت طلائعهم تعبُرُني. توقّفتُ على الرصيف ملتصقة بالجدار. نظراتهم مشتعلة تتحدّى، تبحث عن مواجهة. أصواتهم عالية، فيها نبرة الوجع. يتحرّكون كالسيل الغاضب. يجمعهم وينظّمهم إيقاع الاحتجاج من دون أن يشعروا. وجوههم غاضبة كَوَتها مصائب الزمن. يتطايرٍ منها الشر والإصرار. ليست كما عهدتها في الرقة. وجوه متنمّرة متألِّمة. الشقاء

يظهر في الملابس، وفي الوجوه. في الأفعال والصراخ! حركاتهم قويّة عنيفة واثقة. في المكان رائحة تشبه رائحة الموت! شيء أقرب إلى الجنون الجماعي.

أنظر مذهولة أحاول التركيز على ما يجب أن أفعله. أراجع قدراتي وتبحث نظراتي عن فرصة للخلاص. لا يمكن السير عكس موج التظاهرة. ليس أمامي. سوى التشبُّث بالجدار والالتصاق به ليعبر هذا الجنون.

أَدسُّ يديّ بين إبطيّ، وأنا أحتضن الخبز لعلي أطرد الخوف والبرد، متّكئة على الجدار فوق الرصيف! الهدير يدوّي. يتردّد فيخترق رأسي وعقلي، والصدى يعبر السماء، وتهتزّ المدينة. زغاريد تنطلق من بعض النوافذ. هل قامت القيامة؟

يرفعون رؤوسهم مصمّمين. تتناثر على شفاههم رغوة وكلمات هادرة، تذكّرني بهدير المياه في وديان العاصي! عندما تنطلق الزغاريد يزداد هياجهم. يصرخون كالوحوش الهائجة:

واحد واحد واحد.... الشعب السوري واحد

يحرّكون أيديهم حركات عصبيّة مع الكلمات التي يردّدونها:

يسقط يسقط يسقط

رقّاويّة واحنة قدّه   هذا الصّنَم بَدْنا نهدّه

يزداد التزاحم. الأصوات ترتفع تهدر وتشتد حتى تكاد تمزّق طبلة أذني! أين أنت يا هاشم؟ تنطلق رشقات من الرصاص. خبط الأقدام يهزّ الأرض، وأصواتهم ترتفع لتغطي على رشقات الرصاص!

صرتِ -يا مريم- مثل حلم يصعب الوصول إليه! هل أُقتل بعيدًا عن بيتي وبنتي وأهلي؟ وفجأة يسقط عدد من المتظاهرين. يسيل الدم، يخلّف بقعاً حمراء، يصرخ أحدهم. من بعيد أراه متمدّدًا على الأرض. ينتشر لون داكن حوله في الشارع!

يفرقع الرصاص بكثافة. يتطاير ويلطم الجدران! أصيب من يحمل العلم الكبير. تفرّق من حوله المتظاهرون. ترنح وسقط العلم من بين يديه، فمشى خطوات عشوائية إلى الأمام، ثم مال إلى اليسار، ثم إلى الوراء قليلاً. رشقة أخرى وسقط على الفور! ما هذا الذي أراه؟ هل أنا في كابوس؟

أحاول التحرّك من مكاني. تعجز ركبتاي المرتجفتان عن حملي، فأرتعد وأتكوّر على الرصيف. أنطوي على جسدي. محفظتي بجانبي والخبز في حضني! الرعب يخترق قلبي ويخرج من عينيّ. هبّ الهواء فصار جسمي يرتجف مثل مريض تفترسه الحمّى!

يتبعثر الدويّ المحتجّ. صوت الرصاص أقوى. الجموع تعبرني. تعبر من فوقي! من حولي... ألتصق بالجدار، وأحاول أن أغمض عينيّ وأسلّم أمري.

رصاصة انطلقت وطنّ صفيرها عند أذني. حركات مثل السكاكين تقطع في بطني. توقّعتُ أني سأموت مجانًا في هذا الاحتفال الدموي المجنون!

دوّار يستبدّ برأسي، وأنا أتكوّم ملتصقة بالجدار. الأرض تدور. أغيب وأنا أفكّر: هل النجاة مكتوبة لي يا ربّ؟

الأصوات القويّة تلاشت. صوت الرصاص يدوّي في الهواء. يرتطم بالأرض. عيناي مغمّضتان. أفتحهما وأرى المتظاهرين يسقطون

واحدًا تلو الآخر. تسيل الدماء الممزوجة بالعرق والتعب والاحتجاج. تتطاير اللافتات الورقية، وتتحلّل الكلمات المكتوبة في الوحل تحت الأقدام. بعدما كانت كلمات تدوّي صارت أوساخًا تطمسها الأقدام! أسمع اللهجات والأنين لا أصدّق! جفّ حلقي. أحسّ بلساني قد تجمّد ملتصقًا بسقف حلقي.

أقلّب نظري عسى أن أجد طريقًا للهرب. أرى أحد المتظاهرين يتخفّى وراء عمود وينظر الى صديقه الجريح. الجريح ينزف من رأسه ويرتجف ويرفس. اندفع صديقه إليه، يحاول أن يسدّ الجرح الذي في رأسه وأن يسحبه. لم يتمكّن. ارتمى فوقه إثر رشقة طلقات نارية. ثم نهض من جديد وحاول جرّ صديقه نحو العمود. آلمني المشهد وحزّ في نفسي عجزي عن المساعدة. رصاصة أصابت المنقذ في إليته قبل أن يصل إلى العمود الإسمنتي. لكنه تمكّن من الوصول ليحتمي خلف العمود. من جديد استعان بالعمود متراسًا، وقد تشكّلت تحته بقعة حمراء تتسع، يئن جامعًا جسمه كالوحش الجريح. يضع يده على جرحه، ويصيح لصاحبه، يشجّعه:

-ازحف. ازحف!

يضيع صراخه في الازدحام ويغطّيه صوت الرصاص. الجريح يرتعد ويرتعد مثل فرخ عصفور يصارع للطيران، حتى همد!

مسلّحون يشعلون النار في كل شيء. يكسّرون كلّ شيء. عظام البشر، وزجاج السيارات، وواجهات المحلات، وأغصان الشجر. يطلقون الرصاص. أطفال مراهقون يُسحَلون! أخاف وأتكوّر على خوفي والخبز في حضني! تتقدم السيارات العسكرية من الرصيف. يختلط هديرها بأصوات التكسير وإطلاق النار! أسلحة ومجموعات عسكرية كثيرة قادمة تلاحقهم. هل ستجرفني؟

أتذكر كلمات عمتي خديجة:

- «لا تخرجي اليوم الأمور سيّئة».

لم أردّ. آه. لو!

جاثية وفي حضني الخبز! أراهم يتفقّدون من سقط من المتظاهرين يبحثون عنهم على الرصيف وفي وسط الشارع، وتحت الشجر! العصيّ والأدوات الحادّة تنهال على الرؤوس. وأسمع الصوت يرن في رأسي. كأنه يخترق جسدي. تيبّست لا أجرؤ على الحركة. هل ستكون الضربة القادمة في رأسي؟

لساني معقود كأني خرساء. تعرّق جسمي، وأصبح لزجًا. الألم يسري في جسدي مع الرعب. بدأت أغوص في ظلام أو سراب! وأعود إلى وعيي. هل أشاهد فيلمًا؟

أحد المتظاهرين يتكوّم تحت الضربات. يتلوّى ويصدر عنه أنين أقرب إلى حمحمة حصان يتألم! ثم رصاصات على الساقين وهو متكوّم على الأرض. أصيبوا بشهوة الدمّ. وأنا مرميّة على الرصيف، وقد خارت قوّتي. جعلتني أقدام المتظاهرين مثل منديل قذر. أحاول النهوض، ولكن دون جدوى. يقتربون مني والخبز في حضني فأتجمّد رعبًا!

أمعائي تقرقع. أتلوّى وأكابد وأرتجف. من فمي انفجر سائل حامض برائحة كريهة، بلّل ربطات الخبز. زادت الرائحة من تهوّعي. ركبتاي ترتعشان. استلقيت بقرب الجدار وأفرغت ما في بطني.

اندفع إلى المكان أشخاص يتكلّمون بلهجات سورية معروفة، سواعد مفتولة بيدها بواريد، ووراءهم سيارات أمنيّة. تبدّدَت التظاهرة، ولم يبق منها إلا أصوات متفرّقة بعيدة، وبقع دماء، وأجساد مبعثرة على

طول الشارع! إنهم يسحلون بعض المتظاهرين المصابين. عددهم كثير. يغمغمون بكلمات مبهمة. يردّدون:

-على المشفى الوطني.

-على الفرع.

وقفوا فوقي! ينقّلون نظرهم بين الخبز والسائل الكريه الذي صار يغطي ثيابي:

-من أنت؟

-ماذا تفعلين هنا؟ ماذا...؟ ماذا...؟

بقيت في حالة من الصدمة. لساني معقود!

هل لهم أنوف تميّز. أدركوا أني لست من المتظاهرين. لم أعرف أن للخبز فائدة أخرى - يا يسوع- فائدة تُنجّي من القتل!

عيونهم تتحرّك بطريقة شيطانيّة شرسة مُعادية. يتفحّصون هيئتي. يتبادلون النظرات. يتحرّكون. يتهامسون. سَرَت همسات، وتحرّكت الرؤوس. فهمت أنهم توصّلوا إلى نتيجة!

يقترب مني أحدهم، يشير إلى الجماعة أن يبتعدوا. ينظر في جماعته، في الخبز، في السائل، في وجهي!

رفسة على كتفي. أخرى على وجهي. سائل دافئ بطعم جديد في فمي:

-يا شرموطة وقت خبز؟

يمتد كلامه مثل الشوك في حلقي، وعيني اليمنى تدمع، كأنّ فيها حَسَكًا. الألم فكّ عقدة لساني:

-أنا معلّمة، اسمي سارة طوني جبّور. زوجة المهندس هاشم الحسين أخو بشير الحسين أمين الشّعبة!

لم أحسّ بالألم في جسمي ولا بالبرد الذي ينهش عظامي. خوفي يقتل مشاعري. تناول محفظتي وأخرج الهويةِ وقرأ. هزّ رأسه، وبسرعة التفت، وصرخ على أحدهم، فجاء مهرولاً، وأشار له بيده، وكلّمه كلمات لم أفهمها، ثم أدار وجهه، وراح يتكلّم بالجوّال.

حمل العناصر محفظتي من الوحل، وتركوا الخبز مخلوطًا بالطين والدم والقيء، ووضعوني في السيارة.

يبدو أنهم لا يريدون أن يتكلّموا في هذا الوضع، حتّى الكلمات القليلة، التي يتبادلها لصّان في ظلام لا يريدونها! ينتظرون. تتكرر كلمة «الرفيق بشير» على مسامعي. التفَتَ إليّ:

-من يخرج من بيته في مثل هذا اليوم؟

بقيت صامتة. أشعر أن هؤلاء يدورون حولي، مثل دولاب سريع، وأنا دائخة ومسلوبة الإرادة.

أصوات من حولي:

-من الصعب استجوابها الآن.

-إنها في حالة غيبوبة وهذيان.

-لا حاجة لاستجوابها أصلاً.

تحرّكت السيارة. فتحتُ عينيّ عرفت الأماكن. مروا في الطريق باتجاه الغرب. حديقة الرشيد، ثم على اليسار، قصر المحافظ بوجهي على اليمين. فرع الحزب على اليسار، ثم دخلنا في الشارع. وقفنا عند مبنى الفرع. كان المبنى قاسيًا مهيبًا موحشًا. أمامه سيّارات عسكرية متنوّعة. عناصر مسلّحة. كتل من الحواجز الإسمنتيّة المزروعة حديثًا. القَسوة في النظرات والحركات والهواء. يتتالى وصول السيارات الأمنية والشاحنات العسكرية.

يأمر أحدهم:

-خذوهم إلى المشفى الوطني!

أجساد مستسلمة تُنقل مثل الأكياس من سيارات الجيب وتوضع في شاحنة. يحملونهم على دفعات ويكدّسونهم. أفكّر في عمل بشير. هل كان يطلق النار، ويلاحق المتظاهرين كما يفعل هؤلاء؟ أتساءل: ماذا يريدون مني؟ إلى أين يأخذونني؟ هل أشاهد بيتي من جديد؟ الرب لا يترك الضعفاء والمساكين. يا رب الرحمة!

حين عدت إلى البيت مع عسكري كنت مبتلّة مبقعّة ملوّثة. طيلة الطريق أفكّر. أفكّر فيكِ، يا مريم في والدك. في عمتي خديجة! الحياة غالية- يا بنتي- لا ندرك قيمتها إلا حين نعيش لحظات الموت الحقيقي.

شحنة كثيفة من التوتر تملأ البيت، وجدت هاشم قلقًا يصارع سعاله. يقف في الباب مع عمتي، التي تمسك بيدكِ. لحظات لا توصف هي خليط من اللهفة والفرح والفزع. أحدّق بالجميع. أنظر إليكِ كأنّني أنظر إلى وجه يسوع! ألتفت إلى هاشم، إلى عمتي خديجة. أبحث في عيونهم عن عذر لكل هذا القلق والألم الذي سبّبته لهم. لكنّ منظري يغني عن الشرح!

أشعر كأني ولدت من جديد! ارتميتُ بين ذراعيْ هاشم. السعال يشتد عليه ووجهه يختنق. أربكني الموقف. جاهدت لأقول كلمة. ماذا أقول؟ احتضنتك ويدي الثانية عند هاشم. تساقطت العبرات تسدّ زلعومي. نشيج ينفلت من أعماقي. احتضنتُكما. أدفن رأسي بينكما وأهتزّ من البكاءّ!

كان منهَكًا يسند كتفه على الباب، مسح على وجهي، وكأن المسيح يمسح وجهي، ويبعث فيّ الحياة:

-الحمد لله على السلامة!

وأردف بعتب:

-كيف تخرجين بهذه الظروف وأنا نائم؟ الخروج يوم الجمعة خطرٌ كبير!

أضافت عمتي خديجة:

-من له عمر ما تقتله شدة. سارة، عمرك طويل، يا بنيتي.

أمّا أنتِ -يا مريم- فكنتِ تتلمّسين وجهي بكفّكِ، وتدورين حولي مثل حمامة، نظراتكِ تسأل بمحَبّة، تمتدّ بحبال خفيّة موصولة بقلبي، لتعيد إليّ الحياة!

دخلت الحمّام. حاولت أن أغتسل. أحسّ بتعب وأوجاع. أجاهد لكي أنظّف نفسي. أحس أنني مريضة، وأن ما مررت به حلم، كابوس ثقيل. ترتفع حرارتي بعدما استلقيت في المضافة بجانب عمتي خديجة! حرارة لعينة تجتاح جسدي. أهذي وأدمدم كالممسوسة.

تقول عمتي خديجة:

-كنت ترطنين وتدمدمين، وجسمك ساخن مثل النار، وأحيانًا يصدر منك أنين يتواصل مع الدمدمة. كنتِ -يا بنيتي- مثل فرس المرحوم أبو هاشم لما مرضَت.

في الليل يعود الصمت يلف الرقة. كأنما بركان همد وينتظر الثوران من جديد. شبح الموت يخيّم على المدينة المنكوبة. هدوء عميق أخرس يطبق على كل مظاهر الحياة. هدوء له رهبة اللحظات التي تسبق الهجوم. لحظات الترقّب القاسي بين جيشين!

نسيم الربيع بارد ورائحة الرّقّة منعشة مثل خبز الحياة. أعزّي نفسي:

-عسى أن يكون ما حدث عاصفة وانتهت!

قنوات التلفاز تنقل الحدث. كل قناة ترويه بطريقة مختلفة. الناس يتوقّعون طريقة تناول الخبر في كل قناة. نستمع ونحن نقلبّ القنوات:

- «قتل أربعةَ عشَرَ متظاهرًا، والجرحى بالعشرات. وقوات الأمن تحاصر المشفى الوطني، وقد منعوا الناس من الوصول إليها».

- «مجموعات من العملاء يحاولون تخريب الحياة الآمنة في الرقّة، وقوات الأمن مدعومة بقوى شعبية تفرّقهم، وتعتقل عددًا منهم وتعيد الأمن إلى الرّقة».

- «قوات النظام تختطف بعض الجثث، وميليشياتها تطلق النار على الجرحى، كما أنهم يحتفظون بالجثامين».

«سيارات أمنية مصفحة اختطفت بعض الجثث والمشفى مطوَّق!»

- «أعادت الدولة الأمن إلى مدينة الرّقّة، بعد محاولات تخريب من بعض العملاء».

ألتفت إلى الوراء، إلى تلك الأيام الجميلة، أيام العشق في مزرعة النجاة، وأتذكّر يوم جلبت المعلّمة أمّ حميدي مروحة سقف من مدير المزرعة هاشم الحسين أرسلها هديّة للآنسات. أحسست يومها أنّ وراء المروحة ما وراءها!

«المحَرْداويّة المزيونة»، هكذا شاع اسمي بين السكّان في المزرعة، وبعد إرسال المروحة بأيام جاء سائق المدير إلى المدرسة ليبلغنا بأن مدير المزرعة يدعو الآنسات إلى حفل يقام بمناسبة الحركة التصحيحيّة.

لماذا ارتجف قلبي للدعوة؟ هل هو صادق؟ صرت أتشمّم أخباره! كنت أتمنى وأتخيّل أن أنفرد به وحدي بابتسامته الساحرة وعينيه. لأصغي إلى وشوشته وكلماته. لأطير كالفراشة بين يديه، إلى

أحلامي. أندفع من دون أن أشعر، ليفيض الحبّ في قلبي عذبًا كماء الفرات، يثمر ويعطي! حينها أدركت -يا مريم- أني وقعت في حب والدكِ. وقسوة الحياة هناك في تلك المزرعة صارت تتحوّل إلى مكان يحلو فيه العيش.

في أيام التظاهرات لم يعد يشغلنا إلا تأخّر عمّك بشير! أحيانًا يبقى يومًا كاملاً لا يأتي، وربما يومين. عمتي تترقّبه بألم متأثّرة ومُنتَقِدة.

جاء بشير يوم السبت بعد أذان المغرب، وقد بدأت العتمة تدبّ في الزّقّة، كما تدبّ في النفوس! نهضت عمتي لتصلّي وهي تردّد:

-صلاة المغرب تغسل النفس من خوف الظلام والليل.

كان بشير مرهَقًا قلقًا واهنًا متوجسًا، ثيابه مبلّلة ملطّخة بما يشبه الدماء! كلماته تخرج ثقيلة من فمه، وهو يحدّث هاشم وأمّه. وكنت في المطبخ أحضر الصنوبر والأرز واللحمة من أجل طبخة «الكْلَال» في اليوم التالي.

تركت ما بيدي، وجهّزت إبريق الشاي. وحين دخلت عليهم وجدت أن حوار بشير مع أمه وهاشم قد احتدّ. وارتفعت أصواتهم تختلط بصوت التلفاز المرتفع!

هاشم يتأمل في أخيه وأنفاسه تغلي في صدره، وهو يتكئ بذراعه على الكرسي، ويسند ذقنه على كف يده. وحين دخلت أحمل الشاي استنفر ونهض، كأنه لا يريدني أن أشهد خلافًا بينه وبين أخيه، فهو طالما عبّر عن محبّته له. فليس لهاشم سوى أخ واحد هو بشير وأخت وحيدة اسمها نورية وقد تزوّجت. أحسست بتوتّر الوضع، فوَضعتُ

الشاي على طاولة أمام هاشم وخفضت صوت التلفاز بدافع تهدئة الأصوات. كان بشير يقول:

- حثالة المجتمع. مرتزقة زعران. كل ما فيهم مهين للرقة!

سحبَت الحديث عمتي خديجة، وجعلت الجميع يتوجّه إليها حين انفعلت:

-يكفيكم. يكفي هذا. والله عيب!

وقف بشير وراح ينقر بأصابعه على طرف الطاولة، ثم رفع يده بعصبية وتوتّر:

-القوة الموجودة في الرّقّة قد لا تكون كافية لبسط الأمن!

كانت عمتي خديجة تدور برأسها بينهما، وهما يتحادثان بعصبيّة!

-أنت لا ترى إلا القوة. دمّرك الغرور.

صفعه هاشم الذي اصفرّ وجهه، بهذه الكلمات وكان يتكئ بكوعيه على ركبتيه، واضعًا رأسه بين يديه، يغمغم بأصوات مبهمة أقرب ما تكون إلى الشتائم. ثم استقام في جلسته وأضاف:

-يا رجل البارحة قتلتم شباب الرقة.. اسمع الأخبار اسمع أحاديث الجيران وأهلك بالرقة!

-هل من الضروري أن نعيد الأسطوانة يا هاشم؟ وهل سأقنعك بأننا ندافع عن الدولة؟ ماذا نفعل؟ قد تضطرّ الدولة لقتل المئات.. الآلاف. تقوم بذلك حفاظًا على البلد، وليس رغبة في القتل!

-ما عاد ينفع هذا الكلام. إنهم متظاهرون يطالبون بإصلاحات، ويهمّهم البلد.

-أقسم بالله العظيم مؤامرة خارجيّة، وهؤلاء المتظاهرون مرتزقة حثالة!

ثم تحرّك بشير، واقترب من هاشم، وأردف:

-هل تريد أن أشرح لك كيف نسجوا المؤامرة، وضحكوا على هؤلاء؟

-لا، لا أريد. أعرف هذه الأسطوانة التي سمعتها مرارًا!

قطعَت الحديث عمتي خديجة، وقد انفعلت والتهب وجهها وتجهّمَت، وفاضت عيناها غاضبة، وقد أحدث تعبير وجهها في النفوس أثرًا واضحًا:

-فضيحة. مثل الديوك! ارحموا شيبتي!

التوتّر يحاصرنا، وكأننا في فرن. الجو مكهرب كأنه الصمت قبل الانفجار. صَمَتا، لكنهما تبادلا نظرات مضطربة قلقة. لا تلتقي نظراتهما حتى لا تتحول إلى مواجهة، هاشم يهزّ رأسه. ينظر جانبًا متقبّض الوجه. ويبرطم بكلمات تعبّر عن الاحتجاج!

بشير يتأفف ويتحرّك في جلسته، يتلفّت وقد اجتاح وجهه احتجاج، يدل على توتّر شديد ورفض قاطع، وقال بعصبية:

-لازم الواحد يبدّل قناعته ومبادئه، من أجل شلّة قذارات!

توتّرت عمتي خديجة أكثر. عدّلت جلستها واستقام ظهرها! عيناها تدوران بين ولديها، وإن كانت بقلبها تميل إلى رأي هاشم! تتأمّل بعين مستغيثة مثل المفجوعة، لعلها تنهي الموقف بشيء من الطيبة وتحافظ على ولديها!

-بنتي سارة.. نقعتِ الرز؟

-نقعته.

كانت تعرف أني نقعته، وأني أخرجت اللحمة من الثلاّجة، ولكنها تسألني لتبدد التوتر! تنظر إلى بشير، ثم تنقل نظرها إلى هاشم، وفي عينيها رجاء وتضرّع!

كسرتُ الصمت بانشغالي بكِ، يا مريم. أطعمكِ وأحدّثكِ. في حين صارت عمتي خديجة وَدودة، وبخبرتها أخذت تلقي على بشير أسئلة تتعلق بحمل إيناس، زوجته التي سفّرها إلى أهلها، وكأنّها تنوي أن تحرِّك بداخله مشاعر إنسانية نائمة:

- ما أخبار إيناس والحمل؟

-إيناس؟ زينة.

-والجنين؟

-وضعه مستقر.

-كأن بلدتهم ما فيها تغطية؟ حاولنا الاتصال ما في تغطية.

-طمّنّا عنها -يا بني- وعن الجنين دائمًا.

كان يردّ على أسئلتها على مضض معبّرًا عن ضيقه من الأسئلة. وأخيرًا لاذ بالصمت الساخر، يهز رأسه، ويجامل أمه بإجابات قصيرة. في حين تكاثف الصمت في الخارج، وكأنّه يتآمر مع الظّلمة، ليصبحا مثل سياج فولاذي خانق!

حركاتكِ -يا مريم- ونظرات عمتي وصوت التلفاز وكتابة «عاجل: مظاهرات في الرقة..» على الشاشة، جعلت الجميع يصمت كالحجارة، ليتابع. وفجأة يرن هاتف عمّك بشير:

-مشوار الطريق.

رشف كأس الشاي برشفتين، ونهض مسرعًا، فأوقع المنفضة بيده، ووقعت بقايا السيجارة على السجادة. خرج كأنه يفرّ هاربًا! وترك وراءه نظراتنا مستفسرة حائرة!

- 3 -

لم تهدأ المظاهرات. كانت لا تتوقّف إلا لتبدأ من جديد! تدوّي أصواتها في المدينة بأكملها، مثل دوي البَرَد في شجر العاصي بمحَرْدة! تواجَه بصورة أشرس وأكثر ضراوة ودموية! يتحدّث الناس عند الأبواب، على الهاتف، في الجلسات، في العمل، في المقاهي. الحياة تتوتّر وتتسمّم في الرقة!

تصل إلى مسامعنا في النهار أصوات تظاهرات، بعيدة أحيانًا وقريبة أحيانًا أخرى. تتكرّر باستمرار بعد أوقات الصلاة. تعلو الأصوات وتدوّي بكثافة. ثم تتوارى ضئيلة، كأنّ هديرها ينهزم مع الريح، لكنها لا تتبدد، تشبه أصوات الشِّجار والاستغاثة التي تأتي من بعيد، حين يتلاعب بها تيار الهواء.

يقترب الهدير أحيانًا في شارع المنصور، يمرّ أمام البيت يتردّد صداه في الجدران. له دويّ غاضب مخيف. يتداخل ويتثنّى ويتبدّد حتى التلاشي، ثم يدوّي من جديد، مجلجلاً مرعبًا، وكأنّه حيوان يُستَفز ويهجم صارخًا.

أذهب إلى مدرستي بجانب الفرن، ولا أجد طالبات. أبقى حتى منتصف الدوام لأوقّع وأعود. تزورنا جارتنا أم سالم، وتجلس مع عمتي تتحدّث عن مقتل ابن أختها في التظاهرات، وتبكي. تكاثرت

الهموم والشكاوى بيننا على الهواتف. الاتصالات صار لها لون جديد، والأخبار السيئة القاتمة ثوب بائس يغطي الرقة!

بعض الزميلات في المدرسة يتحدّثن ويتجادلن:

-قتلوا عشرين متظاهرًا أمس!

-يقولون: أكثر من عشرين.

-مقتل البَرْجَكْلِي شعّلها من جديد.

-هي شاعلة من دون البرجكلي.

-يقولون: إنّ الشغب والمظاهرات من الغرباء.

-كلاب يلفّقون. كلّهم رقّاويّة.

-الله ينهيها!

-الله لا ينهيها إلا برأسه.

يأتي بشير أحيانًا ملوّثًا بالطين، كأنّه خاض عراكًا مع مجموعة متسكّعين، يدخل ويغلق على نفسه الباب. يستحمّ ويجلس معنا ساعات، ثم يخرج من جديد.

والدكِ -يا مريم- يتجنب مواجهته. ذات مرة كنا نجلس ننتظره بقلق، وكان قد مرّ عليه يومين لم يأتِ. اتصل وكلّم عمتي التي سألته:

تنام بالشعبة، بالفرع، بالفرقة، أين تنام؟

-الله يحرسك يا بني   والله أريدك بجانبي!

تغيّر وجه هاشم، وسأل عمتي:

-أين ينام؟

-يقول: إنه ينام في مقرّ عمله.

قالتها بامتعاض غاضب. فالتفت أبوكِ إلى عمتي خديجة وقال:

-بشير في خطر. الوضع يتدهور في الرقة. يجب أن نقنعه ليترك عمله. ينتقل أو... أي حلّ آخر، حتى لو استقال!

سحبت عمتي خديجة يديها من حضنها، وجلّست ظهرها، وحرّكت كفّي قدميها قليلاً، وردّت:

-أخوك ما يترك عمله يا هاشم، لو خربت الدنيا، وأنت تعرف طبعه.

قالت عمتي خديجة كلماتها بيأس، أما هاشم فكانت نظراته ملتهبة تركّز في الفراغ وتبحث عن حلّ عصيّ.

*

كان يومًا من أيام شباط 2013 الثقيلة. هواء بارد يهبّ في فناء الحوش. طقس بارد ثقيل من غير مطر. خيّمت وحشة شديدة على شارع المنصور. وفي البيت، جلسنا صامتين كأننا في عزاء! كنت أنشغل بكِ -يا مريم- ألاعبك أحدّثك، لأطرد الهواجس المزعجة. وحين نهضنا إلى النوم شغّل أبوك التلفاز في غرفة النوم، وشاهد أحد المسؤولين البعثيين يتحدّث عن الوضع في سوريا، فقلب القناة بعصبيّة، وعلّق:

-كلام البعثيين المتعصّبين مقرف وثقيل. يتحدّثون بغباء وجهل.

كان يحدّثني ويتصنع الهدوء. وكلّما حاول قمع ثورته المتمرّدة التي تغلي في صدره فرّخت انفعالاً، يظهر في صوته أكثر تمردًا وغضبًا. تمدّد في الفراش من دون أن ينظر إليّ:

- يعيشون بأوهامهم والأحداث تتطوّر كل يوم، لا كل أسبوع. أخبار مَنْبِج سيِّئة. مطار جرّاح بقرب مَسْكَنَة محاصر. حتى مَسْكَنَة! مسكينة مَسْكَنة.

-وما أخبار جماعتنا، بيت أبو سلطان ومعارفنا بالمزرعة؟

-الوضع من سيّئ إلى أسوأ.

أتذكّر بيت أبو سلطان ومزرعة النجاة. أتذكّر حين كنا نمشي نحن الآنسات عصرًا على الطريق في المزرعة في نهاية الخريف يوم الجمعة. كنا نمشي، ويمرّ هاشم بسيارته الروسية «النيفا» البيضاء، يتفقّد الحقول الزراعية وحركة العمل. يتعمّد أن يمر بقربنا أكثر من مرة على الطريق! يهدّئ السيارة كلّما اقترب منّا! ينظر إليّ من بين الآنسات. أبتسم وأسرق نظرات خاطفة. أشعر بتفوّق وانتصار أمام زميلاتي، في حين يضحكْنَ ويعلّقن:

-للعشق ألوان!

-جننتِ المسكين.

-عينه ما رمشت، وهو ينظر فيك.

تدلّعه الفتيات بالسّر ويتهامسن: «عود الخيزران».

كان حينما يمرّ أعرف صوت السيارة من دون أن ألتفت، وحين تهدّئ السيارة من سرعتها يرتجف قلبي، وأشعر بنشوة تدبّ في خلايا جسمي، وتشتعل وجنتاي وينتشر تنميل منعش في صدري. وأرتبك! أكابر:

-هذا الغُرّ الفراتي الأحمق، ماذا يريد؟ يتباهى أمامي بمكانَته وسلطته! وهل تركتُ محَرْدة حتى أقع في حبّ رجل في هذه المنطقة المنسيّة؟

وتعلّق الآنسة يسرى زوجة المهندس صبحي:

-هذا ما هو غُرّ، يا سارة.. هذا عود الخيزران. حلم كل بنات المزرعة.

وتضيف هدى مبتسمة بغيرة:

-يا عيني على مَكر البنات. يا عيني!

ملاحقته عنيدة مصرّة! ذات مرّة وقف بجانبنا، وسلّم علينا، وعرض خدماته إن كنّا نحتاج إلى شيء! كان يتحدّث بثقة مسؤول مدعوم! وتزيد من ثقته سلطة الذكورة عند الرجل الشرقي. يتحدّث وينظر إليّ نظرات واضحة صريحة، نظرات رغم ما تُظهرُه من قوّة فإنها تنادي وتستجدي! ضحك ضحكة مغرية منعشة، ذكّرَتْني بنسمات محَرْدة في ليالي الصيف!

كنت في تلك البقعة أحسّ أنني أحتاج إلى رجل يلفّني بأمانِه! يومها اشتعَلَت في داخلي الحياة، وشعرتُ بقلبي يخفق بقوّة، وانطلقَت من أعماقي مشاعر حارّة. صرفتُ عينيَّ عنه، لكيلا تفضحَني، وعلمتُ أن ما يشغله هو ما يشغلني!

في الليالي المقمرة يطول السّمَر، ويكثر الهمس، وترحلُ الخيالات، وتبنى الأحلام، وتلتهب الأجساد! حين عدت إلى البيت، وعلى ضوء القمر، أخذنا الحديث أنا وصديقتي هدى. قلّبنا القنوات، حتى عثرنا على قناة، فيها أغنية «الحب كدة» لأم كلثوم. كانت كلمات الأغنية تلامسني، وتأوّهات أم كلثوم تسري في كل نبضة من جسدي.

من وراء شبك الحديد الذي يحمينا من البعوض، ننظر في القمر ونشرب القهوة. تحدّثني هدى عن أحلامها الحلبيّة، وأحدّثها عن الحياة في الريف هنا، وعن مزاج الناس، وعن المسكين مدير المزرعة ووقوعه في حبي. أتكلّم بنبرة محايدة، مغرورة! في حين كنت في داخلي أشتعل، ويجن دمي شوقًا إليه!

تسقط المرأة في شِبَاك الحب من دون أن تعترف. تتيه. تعيش غرور الإعجاب، وهي من داخلها تلتهب مثل كَمْأَة تنضج. تشدّها اللذة حتى

تغرق فيها بقلب أعمى. تغرق في حبها فتفعل أشياء لا تتخيل نفسها أنها يمكن أن تفعلها يومًا! يومها قضيت الليل كله أنصت إلى كلماته، أتخيّله يعبّر لي عن مكنونات قلبه، يتنهد ويوشوش بصوته الفراتي الرخيم، يحتضنني بقامته النحيلة الممشوقة مثل عود الخيزران، وكأنّه أصبح شريك العمر!

الآن أنظر إليه بجانبي أراه مثل طفل غاضب. ناديته، لنكسر الصمت الثقيل. فبددت الصمت رشقات رصاص من الجهة الغربية! عقّب على أصوات الرصاص:

-اسمعي، اسمعي! هذه ما هي مظاهرات، هذه مواجهات مسلّحة!

-الله ينهيها على خير!

يومها تأخّرتِ في الذهاب إلى سريركِ، بقيتِ تعبثين بالجوّال بيني وبينه. أراقبك حتى تنامي، لأضعك في سريركِ بغرفة عمتي خديجة، التي تركتها تسبّح بمسبحتها في المضافة. تنتظر بشير قلقة وتسبِّح!

إزاء غياب بشير وتطوّر الأحداث ما كان للأسرة إلا الترقّب والخوف من القادم. عمتي خديجة كانت في سابق الأيام تتحدّث معي بانشراح. في المطبخ، وفي المضافة، وفي الحوش. ينداح حديثها مثل دفقات فراتية عذبة سخيّة. تغيّرت الآن، فالأمر اختلف. توتُّر صامت، وأحيانًا انتظار وترقّب لكارثة!

قلّت جلسات بشير معنا مؤخرًا، بسبب انشغاله وغيابه المتكرر، وذات مرّة على المائدة ومع طرق الملاعق والعبارات المتقطّعة استرسل بقناعة عمياء مطلقة يتحدّث ويتحدّث بنغمة واثقة مُتحدّية مستفزّة:

-كلهم من خارج الرّقّة. من النازحين وبعض المأجورين. قريبًا ننظّف الرقة!

ردّ هاشم:

-لكن الطَّبقَة سقطت وقبلها مطار جَرَّاح ومَنْبج ومَسْكَنَة!

- دعايات. ما سقط شيء. عصابات استولت على بعض المراكز الحكوميّة، والدولة أرسلت تعزيزات إلى مطار الطبقة، وستعيد الأمن للطبقة، وتطرد المرتزقة.

يتلصّص بعينه على وجه هاشم الذي كان يتكلّم لإقناع أخيه، رغم قناعته بأن هذا الحوار لن يغيّر شيئًا. لكنه مع ذلك يحاول:

-يا بشير الواقع عكس كلامك. ثم إنك تخلط بين الدولة والحكومة. الحكومة هي حكومة السلطة القائمة. أما الدولة فهي لكل السوريين مهما كانت مذاهبهم وآراؤهم وقناعاتهم.

ثم اعتدل في جلسته، وتوجّه بحواسه إلى بشير، وتابع:

-القتلى بالتظاهرة يوم رأتهم سارة كانوا من الرّقّة. والحكومة تخسر البلد. والذين تُسمّيهم إرهابيين يلتهمونه يوما بعد يوم، والقنوات الحكومية تصوّر الأمور بطريقة لا تتفق مع الواقع. يا أخي، يا بشير حكم الحزب الواحد صار مستحيلًا. وحزب البعث صار مجموعة من المنتفعين.

-وهل هؤلاء المأجورون ليسوا منتفعين! مَن يدفع لهم الأموال؟ مَن يشتري السلاح؟ مَن...

قاطعه هاشم:

-تأكد أن استمرار الوضع على ما هو عليه من قتل واعتقالات، يعطي الفرصة المُثلى للتدخلات الأجنبية، وسوريا طالما كانت

معرّضة للأطماع. الحلّ الوطني الذي يقوم على مصالحة داخلية هو الحل الوحيد، وهذا لا يحصل إلا بالاعتراف بوجود معارضة حقيقية لحكم البعث، والاعتراف بالأخطاء الكثيرة التي ارتُكبت.

رنّ هاتف بشير فخرج على عجل.

حين يبدأ الربيع في الرّقّة تحدث ثورة جمالية، تتلوّن الطبيعة وتتزيّن الرّقّة برداء ربيعي مزخرف زخرفة إلهية فريدة، زينة من السماء. ويلتحم جمال الأرض بجمال الفرات.

في بداية الربيع، في مثل هذه الأيام، نخرج إلى قلعة جعبر. إلى الخضرة في مزارع الرّقّة، ندوخ بثوب الربيع وروائح النباتات البرية العابقة، وبالمَدّ الأخضر اللامتناهي المتلاحم مع زرقة الفرات!

كوابيس التظاهرات والمجازر والأحداث طيلة العام الماضي، عام 2012 لم تفارقني. صور القتلى. تفجير محَرْدة. المجازر في داريّا والحولة ودرعا وحمص وحماه والرقة. تتغير الوجوه وتتوالى صور لبشر أشكالهم مخيفة. لا يهابون الموت ولا يعرفون إلا القتل، أتخيّلهم يدخلون الرقة.

تتّصل عمتك نوريّة يوميًا مع أنها في الرقة، ولكن قلّت زياراتها بسبب الأوضاع. يطول كلامها على الهاتف مع عمتي خديجة. تتحدّث بغمّ عن انشغال بال زوجها على أقاربه في حمص، وعن الوضع العام!

تتراكم مشاعر الإحباط في النفوس. رياح الشر تتمدّد في سماء الرّقّة مثل لعنة. تقلّ الحركة حتى في النهار. يثرثر الجميع حول القادم. نقاشات محبطة متوجِّسة قلقة في المكاتب والبيوت والشوارع.

لم أكن مقتنعة بوجهة نظر الطرفين. أتفاءل بالخلاص، ولا أدرك أنّي في وهم، وأني أنتظر غيثًا لن يأتي! أمنّي النفس بأمور تبدو لي يومًا بعد يوم أنها أحلام ساذجة! أحدث نفسي:

-المهم هاشم بعيد عن الأحداث. «كل شاة معلّقة من كرعوبها» مثل ما تقول عمتي خديجة. بشير يحدّد مصيره. نحن جماعة مدنية ما لنا علاقة.

أقول لهاشم:

-ربما كان أخوك على حقّ. أتوقع أن هذه الجماعات لا تريد تغيير الحكم. بل تريد الاستئثار به، وحين تسيطر قد تستبد أكثر من الحكومة الحالية، وقد تُغيِّر نمط حياة الناس، وعندها لا نستطيع العيش تحت حكمهم.

يعقّب هاشم:

-تعامل الحكومة خاطئ، وأخي واهم يتحدث بنوع من الضجيج الفارغ، وكل شيء ينسحب من تحت الأرجل!

يصرّ أبوك -يا مريم- على أن يذهب إلى العمل كل يوم، وأنا أيضًا أذهب إلى مدرستي مع أني لا أجد فيها إلّا بعض الطالبات اللواتي يسكنّ بمحاذاة المدرسة، وعددًا من المعلّمات لا يتجاوز عدد الأصابع. مديرة المدرسة تصرّ على أن تستمر في تعليم من يحضر. لكن ذلك يصبح أكثر فأكثر غير ممكن. الخوف يعطل العقل. والشجاعة المتهوّرة تعطّل العقل أيضًا. كيف نعلّم. الغرف جامدة كئيبة كأنها مدافن. ينتابني القلق ويربكني الأفق الغامض لما يحدث!

أهرب إلى الماضي الجميل، أعود إلى أيام العشق في مزرعة النجاة، أتذكّر وساطة المعلّمة أم حميدي لمّا أرسلها والدكِ معترفًا بحبّه، يا مريم!

يومها سمعنا أنا وزميلتي هدى طرقًا على الباب في سكن الآنسات:

-آنسة سارة   آنسة سارة.

إنه صوت المعلّمة أم حميدي!

بدأت حديثها بعرض خدماتها، لتنظيف البيت معنا، وبعد كأس الشاي قالت لي بضحكة:

-هذا الأستاذ مدير المزرعة يقول: شوفي الآنسة المحَرْداوِيّة الطويلة إذا نقصها شيء فلتطلب!

انتعشت، ولكني تماسكت أمامها:

-شكرًا. صاحب ذوق.

شربَت الشاي عندنا بثقة امرأة خبيرة لها أهمية، وأنا أقرأ في دهاء عينيها تحيّاته ورغباته!

كانت أم حميدي امرأة في الأربعينات، أرملة ضخمة طويلة، شعرها أسود كثيف، تمشي بأنوثة زائدة. وتتلوّى في مشيتها. تغطّي رأسها بشال أسود، وتضع طوقًا ذهبيًا، وتترك جزءًا من عنقها الأبيض يظهر من تحت الشال. خدودها متورّدة، ولم يتجعد وجهها، مع أن الله لم يمنحها الجمال الملفت.

اختلطت النظرات بعرض الخدمة. يمتد الصمت، وعيناها تقول: إنها تريد أن تنقل عنه شيئًا. وعدًا. إعجابًا. كلمةً ناعمة!

يهبّ الغربي في العصر يطرد الخمول. يتقافز أطفال المزرعة ويعلو صراخهم في ساحة المدرسة. يومها صرخت طفلة جارتنا بعدما أصابتها حجرة من ولد، وهي تلعب، فركضنا وانشغلنا بها!

لم تكن أم حميدي تقبل أن تغادر من دون نقل الرسالة التي جاءت تحملها:

-أنت بنت أصول، الأستاذ على حق عندما قال عنكِ ذلك. وهو أيضًا ابن أصول، عرفته منذ سنوات.

علّقت هدى غامزة:

- نعم، والله ابن أصول، وصاحب شهامة. طول الوقت يتفقدنا.

ثم التفتت إلي مبتسمة وتابعت:

-يطمئنّ علينا ويسأل عنا إذا كنا نحتاج لشيء.

لم أعلّق. تبسّمت. كنت في تلك البقعة بحاجة إلى كلمة حب تدفئ عظامي وتهزّ قلبي!

أما الآن بعد هذه التظاهرات والمذابح فالأمر مختلف. أبحث عن الأمان، يا مريم. يمر الوقت بطيئًا مخيفًا مُحرِقًا، كل شيء يحكي وجعًا وخوفًا، يلمّح بأنباء قادمة.

قلعة جعبر خاوية موحشة. حدائق الرّقّة تحوّلت إلى ثكنات وتجمّعات مقيتة تفتقر إلى الحياة. الجميع يكتم أنفاسه. الخوف يتحرّك في الأجساد كالوباء، ويخرج من العيون. يزحف ويتمدد عبر الهواء في الأزقة، في القنوات الفضائية. توتّر ثقيل يلتف على الأعناق، يتخفّى ويولّد الفزع في الرقة، كاللص القاتل في جوف الليل! أخبار متواترة ومتناقضة لا نعرف فيها الكاذب من الحقيقي:

يتحدثون عن مقاتلين من جنسيات مختلفة يقاتلون ضد الدولة، ويكثر الحديث عن منظمة يسمّونها «داعش». منظمة تريد إقامة الخلافة الإسلامية. منظمة تجمع مقاتلين أشدّاء خبروا حروبًا كثيرة.

الأخبار تتواتر:

- «الغوطة سقطت كلها بيد المعارضة».

- «الجيش العربي السوري طهّر حمص من الإرهابيين».

- «شبّيحة يقعون في كمين لقوات المعارضة على طريق حماه حمص».

- «داعش استولت على الريف الشرقي».

- «اشتباكات بين داعش وقوى المعارضة».

شائعات عن أزمة محروقات ومواد غذائية في المدن الكبرى! الشائعة تبدأ ثم تتحوّل إلى يقين مخيف يحاصر البشر! عمتي خديجة ملأت البيت من المواد الاستهلاكيّة. الزيت والحبوب، حتى الطحين خزّنَته، وحين ترى الدهشة في عيني تعلّق:

-ذخيرة -يا بنتي- للأيام البشعة، الله لا يجيبها!

أشعر أن في حلقي سكينًا، لا أعلّق أكتفي بهز الرأس.

عمتي خديجة تراقب، وقد كانت بمسبحتها الطويلة القلعة الوحيدة المحصّنة في هذه العواصف الغاضبة المنذرة بالخطر. تنظر في التلفاز بعين قلقة متشائمة. أذناها تراقبان بخفاء. تقرأ بحدسها المستقبل. خبرة العمر تكشف الغيب عن طريق الحدس! يروق لها الجلوس في المضافة أمام التلفاز، أو الحركة في المطبخ، وتفقّد الأشياء. تقضي أكثر الأوقات تدردش معي، ونتحدث عن همومنا. بين الصحون والأواني في المطبخ، أو في المضافة، ودائمًا مسبحتها في يدها تسبّح وتتمتم بآيات قرآنية أحفظ بعضها، وتدخل طمأنينة إلى قلبي المليء بالخوف والقلق. وأحيانًا تغني المُوليّة أو اللّكّاحي، أو تتواصل مع الجارات.

ما كاد شهر شباط من العام 2013 ينتصف، حتى حدثت انقلابات خطيرة، قيل: إن المسلحين بدؤوا يسيطرون على بعض الأحياء في الرقة، وكثرت الشائعات:

- «توغّلوا وتوزعوا في الأحياء»!

- «انتشروا في أقسام من الدرعية! وفي شارع تل أبيض»!

في 11 شباط 2013 تضاربت الأخبار حول التظاهرات في الرّقّة. نسمع أخبارًا عن مواجهات عنيفة تدور بين مسلّحين ومقرّات الأمن! تتلوّن الأخبار والدعايات وتفرّخ، وتتضارب الأخبار بوسائل الإعلام. بشير يؤكد أن المسألة لا تتجاوز الضجيج الإعلامي الكاذب. ولم تتضح الأمور إلا في يوم الجمعة 14 شباط 2013. حينها كنت مع عمتي في المطبخ. كنا نطبخ «باميا ورز»، وجاءني اتصال على الجوال. بداية لم أرد. ثم تكرّر الاتصال مرارًا. نظرت في الجوّال وعرفت أنها زميلتي المدرّسة الحمصية:

- شاهدي التمثال. حرقوه في الطبقة!

-أيّ تمثال؟

-تمثال الرئيس حافظ الأسد.

أسرعت إلى غرفة المضافة، وتركت عمتي تنظر مستفهمة عن سبب اندفاعي. بشير وهاشم كانا يتابعان! النار تلتهم التمثال والدخان يخرج من العينين. وكأنه تعرّض لمواد بترولية شديدة الاشتعال. عناصر ترفع علم الثورة فوق سَدّ الطبقة!

بشير لا ينظر، ووجهه محتقن. في حين كان هاشم ينظر نظرات مواسية تخفف من ألم أخيه. سعل هاشم سعالاً مفتعَلاً ليبدّد الصمت ثم أضاف:

-الدنيا في تغيّر. ما في شيء يدوم!

كان الشرر يتطاير من عيني بشير، حوّل وجهه محتجًا. وبحركة من فمه وتقلّصات في وجهه، قال بنبرة احتقار.

-حثالة المجتمع! المجرمون والحثالة هم من يقود هذا الشعب!

صمت هاشم أدّى إلى تطوّر انفعاله، وألمّت به رعدة ورعشة في يديه، وقد حاول أن يصطنع أوضاعًا فيها الكثير من اللامبالاة والقوة والغطرسة:

- هؤلاء المرتزقة. حتّى الكلاب لا ترضى بحكمهم!

ثم صرخ بوجه هاشم الذي استمرّ في صمته:

-كيف يمكن لأحد أن يبقى على الحياد؟ الصمت هذه الأيام ملاذ الجبناء والخائفين.

قطعت انفعاله عمتي خديجة حين دخلت ويداها تقطران ماء. جاءت على عجل تسأل وتستفسر. لم يعلّق هاشم. اكتفى بأن ابتسم وتأمّل في أخيه طويلاً. ارتبكنا أنا وعمتي خديجة.

وراح بشير يدور كحيوان في قفص.

بعد سقوط الطبقة تغيّرت أشياء كثيرة وانهمك الناس بجلب المؤن والتحسّب للقادم.

أناقش هاشم بالترتيبات في حال تدهورت الأمور أكثر، كان يقلّب كفّه وينظر في الفراغ:

- لكل حادث حديث. أنا على الحياد. مع الجبناء كما يسمّيهم فريقا الصراع، فمَن يتقصّدني؟ ما لي علاقة بشيء!

-وأخوك؟

قبل أن يجيب أخذ يحرّك رأسه ويقطب:

-هو حرّ!

-لكنه أخوك، وأنت محسوب عليه!

يرفع يده رافضًا، ويتابع وصف أخيه بألم:

-متغطرس مغرور يظن الأمور سهلة، يطمح أن يصبح مسؤولًا كبيرًا، لا يريد أن يصدّق ما يحدث!

يشيح بنظره بعيدًا، ويتحسّر:

-رجوناه كثيرًا لينتقل، ولكنه يرفض بتصميم مقتنعًا بأفعاله أنه سيسهم في القضاء على «الشغب والفوضى»، معتبرًا أن هذه واجباته!

الرّقّة ما عادت في مأمن. تتوالى المفاجآت بوجوه وأحجام مختلفة، كنا نخشى كل شيء. انتشر الخوف في الهواء بعد أن فقدنا الأمان. عمتي خديجة بدت في الأيام الأخيرة واهنة ناشفة مثل عود خشب يابس، تكثر من الشرود والدموع، قلقة على بشير، فلا نعرف شيئًا عنه. كلّمَنا منذ يومين، وأكّدَ أنه سينشغل ويضطر للغياب لفترة!

كانت عمّتي صامتة قلقة في الصباح، فقال لها هاشم:

-ارضي عنه. غضب الأم بشع لعنة من الله.

-غضب الأم بسيط تنساه بسرعة، يا بني.

تجيب بألم، في حين وقف هاشم متأهبًا ليذهب إلى عمله، واضطرب وجهه اضطرابًا غريبًا أربكني وأخافني وهو يقرأ رسالة على الجوّال! ثم نظر في عمتي:

-اغتيالات واختطافات في محافظة الرقة!

نهضت عمتي مثل الملدوغة! اقتربت من هاشم. قَلّبَت نظراتها. تأمّلت فيه، وأمسكت بكتفيه الاثنين، وأطالت النظر، ثم رفعت يدها اليمنى على وجهه تلمّسته، كأنها تقبّله بنظراتها، وتودّعه إلى سفر بعيد، بعيد! وتريد أن تقول شيئًا لتوصيه. تضع ما تراكم من خبرتها في رأسه،

لكنها أحجمت عن الكلام. انسدّ حلقها. هزّت رأسها وراحت تتمتم بآيات من القرآن. تتساقط دموعها. وكأن فراقًا مخيفًا يحوم في ظلمة المصاب فوق الرؤوس، يحوم مثل الغراب. يصرخ ويهدّد إلى درجة أني خشيت وتشاءمت!

قبّل هاشم رأس أمه، واختنق بدمعة قبل أن يخرج إلى عمله. خرجتُ إلى الحوش أنظّف وأمسح الأرض. كانت غيوم كثيفة تتلبّد وتتكاثف سوداء تلتهم سماء الرقة!

- 4 -

كهارب يبحث عن خلاص، دخل علينا بشير، ثم اندفع إلى غرفته متعجّلاً. أربكَنا! نتبادل النظرات المتسائلة بفزع. نخشى الأسئلة! بعد لحظات خرج يحمل محفظة دبلوماسية ضخمة، وقد غيّر ملابسه.

كان متوتّرًا ذاهلًا، ومستعجلاً جدًا. لشدة توتره لم يركّز لباسه، فبدا طرف القميص فوق الحزام تحت الجاكيت! ينظر فينا. يتمعّن في وجوهنا. اغتصب ابتسامة، وهو يلهث بإرهاق، وصوته مرتجف:

-خير. لماذا تنظرون إليّ هكذا!

يبحث في وجوهنا عن جواب. عن تعزية تسوّغ فعله. حركاته العصبية تتراجع وعيناه تدوران. يخاطب عمتي خديجة:

-أنا خارج ولا أعرف متى أعود.

وجهه مهزوم بائس. كأنّه ينوي الهجرة بعيدًا. في نظراته تجلّيات عجيبة. مزيج من الهزيمة والألم والعنف والاضطراب والقسوة. أنزَل المحفظة، وجرّها بيده. يمشي وكأنّه يجر تابوتًا خلفه. وقف عند الباب نظراته تتنقل بيننا من جديد. تتمعّن تتشبّث في كل شيء، كأنها لا تريد

أن تنسى. أشياء حميمة في نفسه تتبعثر وتتبدّد، وكأن خسارة فظيعة تهدّ عزمه!

سأله هاشم باستغراب:

-لماذا تخرج بتكتّم كالمطرود؟ وكأنك مجرم! ما القصة؟

انفجر غاضبًا مرتجفًا. شعر بهزيمة مرة. بجرح ينهش قلبه ويدميه:

-خصوصياتي. أسرار عملي. هل تحتاج إلى تقرير عن تحرّكاتي؟

- بل أطلب توضيحًا، لأنك أخي. أمّا عملك السياسي وأسراركم فلست راغبًا بوجع الرأس.

تَرَكَ المحفظة ورفع يده أمام هاشم بغضب، مثل خاسرة خانها حبيبها:

-بلا سخرية وأكل هوا.

-يا بشير، بلا عصبية تافهة. جاوبني! أنا أخوك وهذه عائلتك!

كان مكتئبًا يتحدث بانفعال. يمتلئ وجهه بالغضب. يكتسي بملامح فظيعة، لا تتغير بسهولة! هل هناك مفاجآت يخفيها عنا بشير؟ ماذا وراء انفعاله وقراره؟ الحوش يضيق بنا. عمتي خديجة يلفّها صمت يطحن داخلها. أصوات الريح مزعجة. حالة مقلقة من الترقّب، حتى أنتِ -يا مريم- وقفت تتابعين، ولم تتحركي. تنظرين إلى والدك وعمّك، وخفتِ، فالتصقت بي!

اقتربت عمتي خديجة من بشير وبيدها كرسيّ بلاستيكيّ، وقالت:

-اجلس. ريّح حالك. نريد أن نعرف ماذا يحصل. الله يوفقك ويحميك يا بني.

لم يجلس بقي واقفًا، ولكنّه حاول التخفيف من التوتّر. هدأت نظراته المتحدّية، وارتخت قسمات وجهه وزال تقطيب حاجبيه. نظر

إلى عمتي خديجة، ثم إلى أخيه، وإليّ وإليكِ يا مريم. تنقلت نظراته تمسح كل شيء في البيت من جديد، وبالتدريج ارتفعت نظراته إلى الأعلى متجهة نحو السماء، وأصبحت عيناه ضيقتين متأملتين، كأنه مُحْرَج من فعلة سيّئة، أو كأنّ حقيقة قاسية محبوسة في ضميره، ولا يستطيع أن يصرّح:

-أنا خارج في مهمة.

قال هذه الكلمات، وخرج مسرعًا كالمطرود، يجر محفظته. ما كان يريد، أو ربما ما كان يمكنه أن يسمع تعليقًا أو تضرّعًا من أمه.

تتلفّت عمتي خديجة مثل مظلومة دُبّرت لها تهمة كبيرة. تبحث عن نجدة.

دمدم هاشم وهو يكزّ على أسنانه:

-غبيّ. واهم. بل كاذب!

غضبٌ بدا على الوجوه. عمتي خديجة وقفت بجانب الباب، تهز رأسها بألم. تسعل سعالاً ثقيلاً إثر زكام رافقه تحسس في الربيع، فتحوّل تنفسها إلى حشرجة مؤلمة وهي تحاول سحب أنفاسها بصعوبة!

انفعل هاشم وراح يطلق السباب بلا حساب، ولا مراعاة لوجود أمّه. يتحدّث وعيناه لا تتوقّفان لحظة واحدة. تتحرّكان بيني وبين أمه المعذَّبة، وهي تكابد السعال، وتشير له بيدها أن يهدأ. نظر إليها وأردف:

-مسؤولو الحزب هذه الأيام للصراخ والتسويق فقط. القرار بيد الأمن والشبّيحة والعسكر! والمشكلة أن الصغار يضيعون بين الأرجل وقت الهزيمة. ابنك وراءه شيء كبير، إنه يورّط نفسه بشيء لم يفصح عنه، أخشى أن يضيع بين الأرجل.

هدأ قليلًا، ثم عاد يكرّر كلامه ويهز رأسه، كأنه يبحث عن شخص، يؤكّد ويبارك ما يقول:

-الحكمة هذه الأيام هي النأي بالنفس. النأي بالنفس. إذا تصارعت الدول احفظ رأسك.

قلتُ له محاولةً تهدئته:

-الله يكون بالعون.إنهم يفكّرون ويبحثون عن طريقة لمواجهة هذا البلاء. بلاء بدأ يحاصرنا يا هاشم، هل تريد من أخيك، وهو الحزبي المسؤول أن يستقبلهم بالورد؟

اصفرّ وجه والدكِ محتجًا وساخرًا مستنكرًا:

-بل يستقبلهم بالرصاص!

-لكنهم يخافون على البلد وعلى حياتهم وحياة غيرهم.

عقب هاشم بصوت مرتفع وبغضب يتنامى:

-أخي، ما اهتم بحياة غيره. ولا حتى بحياته ولا بحياة أهله. تهمّه السلطة فقط! طول عمره يزحف وينافق حتى يتمكّن. فالسلطة في بلادنا لا تُعطى إلا إلى الذي يكثر من الانحناء ليأخذها. هو لا يسأل عن حياة أحد!

رنّ الجوال بجيب هاشم:

-مستحيل يا رجل!

-متى وكيف؟ بهذه السرعة؟

-ماذا؟ في قصر المحافظ؟

انقلب وجه والدكِ أصفر وغاض منه الدم، والتفت إلينا:

-سقطت الرّقّة بيد المسلّحين!

تتلاحق الأخبار في التلفزيونات وعلى الهواتف. الخطوط الأرضية والجوالات لا تهدأ:

- «سيطروا على قصر المحافظ ومبنى الفرع وقيادة الشرطة».

- «اشتباكات عنيفة عند الأمن السياسي».

- «شفناهم في حديقة الرشيد، ويحاصرون المجمع الحكومي القديم».

- «اقتحموا فرع المخابرات الجوية»

- «أخذوا كل الرّقّة تقريبًا. الآن اشتباكات في الجهة الغربية، عند مبنى الدفاع المدني، يحاصرون فرع الأمن العسكري».

هاشم يضرب كفًّا بكف:

-كيف أخذوا الرّقّة بهذه السرعة؟

عمتي خديجة تنادي مثل المنكوبة:

-بشير .. يا هاشم، اتصل بأيّ واحد يخبّرنا عن بشير.. أخوك بشير!

كان لتلك الأخبار وقع مدوٍّ في الأرض والسماء! نتبادل نظرات مرتبكة حائرة. نهرع إلى التلفاز. نتابع المشاهد لا نصدّق. يتّصل هاشم ببشير. الجوّال لا يردّ. خارج التغطية!

لم نستطع الاتصال ببشير طيلة اليوم، فازداد ارتباكنا وتوتّرنا. رنّ الهاتف بعد منتصف الليل، وحين رفع هاشم السماعة انقطع الاتصال! نظرت في الرقم كان طويلاً غريبًا!

في الصباح تركت هاشم في السرير نائمًا إثر سهادٍ مزعج! ذهبت إلى المطبخ أجهّز الفطور. عمتي خديجة في المضافة، وقد لبسَت ثوبها المَخْمَل الكحلي. تستمع إلى الأخبار على غير عادتها، وأنتِ صامتة بجانبها يا مريم. عندما ركضتِ إليّ تنبّهت وسألت عمّتي:

-هل أجهِّز الإفطار يا عمّتي؟

أجهّزه معك، ولكن ما عندي شهيّة للأكل.

-يا عمتي، لن نفطر إلا إذا أفطرتِ معنا. المكتوب مكتوب. وبشير بخير، إن شاء الله، والرقّة بخير.

وانهمكنا نقطّع الجبن، ونقشّر البيض المسلوق، ونهيّئ المكدوس واللبن، وفي نفوسنا يتمدّد قلق صامت من التغيرات التي لا نعرف ماذا تخفي.

كنتِ -يا مريم- تلعبين بلعبة اشترتها لكِ عمتي خديجة. تدورين بجانبنا في المطبخ، وفجأةً دلقتِ كأس اللبن على ثوب جدّتك! ضحكَت ومسحَت اللبن، وأكملَت عملها في تحضير الإفطار، كأنها بذلك تقاوم حالة الخوف.

يهدل الحمَام فوق السطح. حان موعد طعامه.. رشّت عمتي له حفنة حبوب في ساحة الحوش، ووقفت تراقب الحمام ينقر الحب، يتقافز، ويهدل. تقفين بجانبها وتتحدّث معك أحيانًا، وتمنعكِ من إزعاجه.

سمعت الضجيج في الخارج. استغربت! خرجت من المطبخ لأنضمّ إلى عمتي.. توالى صراخ وتكبير. يتعالى الصراخ ويقترب. فزعتُ! التكبير ذاته الذي سمعته يوم التظاهرة. يا يسوع، ماذا؟

انعقد لساني. أنظر إليكِ-يا مريم- ثم إلى عمتي خديجة، وأفكّر بزوجي هاشم الذي تركته مجهدًا نائمًا بعد ليلة مزعجة!

عمتي خديجة تصيخ السّمع محاولة فهم ما يدور، أما أنا فتعود إليّ تلك الخيالات، يا ربّ هل أنا أحلم؟

أتلفَّت، أنظر، انكسر ظهري من الخوف، وأذني مُعلَّقة بالهدير في الخارج وبهاشم في الأعلى. التكبير يتعالى بغضب دمويّ مفزع! تكبير مخيف عجيب يختلف عن تكبير الشيخ في الجامع! الأصوات تقترب من البيت. لها دويّ وصدى يملأ الهواء. أشمّ رائحة الدم مثل كابوس!

طرقٌ شديدٌ على الباب سمعه كل مَنْ في الحارة، وكأنّه باب إسطبل تلطمه مطارق عملاقة! يصرخون: تكبير.

-الله أكبر.

-افتح يا شبّيح!

تسأل عمّتي. من أنتم، وماذا تريدون؟

- افتحي الباب يا وسخَة!

تتوالى الأسئلة والاحتمالات متسارعة في ذهني:

-يا رب ماذا يريد هؤلاء؟ هل يريدون بشير؟

انهار عزمي. هبوط هائل يجذبني نحو الأرض ويشلّ حركتي. كأني في بئر! محتارة أنظر فيكِ يا مريم! رائحة الدم ودويّ التكبير والصراخ الحاد تخترق حواسي. أرتجف والعرق بلّل جسمي وثيابي.

بسرعة، مثل الدبابير حين تنفلت، اقتحموا الباب واندفعوا يطلقون النار إلى الأعلى وعلى البيت. تصرخ عمّتي فيصوّب أحدهم إليها ويصرخ:

-يا شبّيحة!

تكبير دمويّ يتعالى! لحظات وامتلأ البيت بالتكبير والبواريد والصراخ. عشرة، عشرون، ثلاثون، أربعون! تكبير يملأ المكان. يخترق رأسي. صراخ مثل أصوات كائنات أسطوريّة مرعِبة.

رشقات الرصاص تداخَلَت. ضربات ورفسات تتسابق على عمتي خديجة. أحتضنك يا مريم وأبكي بلوعة لم أحسّ بها، حتى عندما فقدت أمّي. أراهم يتوجّهون نحوي فأنطوي عليكِ. أقدامهم أحذيتهم تلطّخت بلعابنا ودمائنا!

وجوه مخيفة. مسلّحون بأسلحة متنوعة بتنوّع مظاهرهم. بلحى ومن دون لحى. بجلاّبيّات وبناطيل. في عيونهم حقد وبحث عن الانتقام! الصراخ الحاقد يختلط بالتكبير وبألفاظ فاحشة!

تحوّل البيت إلى ساحة استعراض وانتقام. استباحوا كل شيء. يتقافزون في المطبخ. في المضافة. في كلّ زاوية. يبحثون مثل وحوش تتسابق على فريسة!

صرخت ووقفت، حين شاهدتهم يصعدون الدرج، ويطلقون النار في الهواء. الدرج يهتز من الارتطام والأرجل. تصرخ عمتي خديجة تلطم:

-يا قلبي يا هاشم!

وقعت زريعة من الأعلى على رأس واحد. صرخ:

-الله أكبر.

ورشق رصاصات إلى الأعلى!

سمعت ضربًا ولطمات على الجدار في الأعلى. رصاص ورائحة

دم وأنفاس بشرية ثقيلة. انعقد لساني. يداكِ تتشبثان بساقيّ.. بعيون مذهولة تصرخين.. ترتجفين. في حين أقعُ على الأرض. أشعر بغثيان!

لطمة فوقكِ، يا مريم. قطعة من زجاج نافذة من الغرف العلوية على كفّك الأيمن. يعلو صراخكِ، والدم ينزف من يدك!

يتقافزون، يصرخون، وعيون التشفّي في وجوههم! واللحى. اللحى مخيفة! تتكلم. تهتزّ! شيء من الموت والدم يتخفّى بين الشعر وفي الخلايا. في العيون. رائحة الدم في أصواتهم!

زعيق مثل الغربان، ويصرخون:

-الله أكبر. يا شبّيح!

تتسابق الطعنات على هاشم. وهم يجرجرونه إلى الأسفل! أصرخ مع عمتي خديجة، وصرخاتنا تضيع بين ركلات الأرجل:

-يا ابن الشرموطة.

-يا ديوث!

أمك

اختك

مرتك الـ..

يختلط سبابهم بتكبيرهم المتشفي.. عمتي خديجة تولول وتصرخ:

-هذا هاشم!

يتدخّل أحدهم:

-هذا هاشم ما هو بشير!

أشاهدهم يُجرجرون هاشم إلى ساحة الحوش، ودمه ينزف! هل أصيب بطلق ناري؟

كسروا الدالية وشجرة الرمان، وأغصان الأشجار. هاشم تحت الأحذية! يمسح الدم وهو بينهم، مستلقيًا على جنبه، ويضع يدًا على خاصرته. كان وجهه وجه ميت، وقد تلطّخ بالدم. يغمغم بصوت واهن لا يُفهم. يلوِّح بيده بحركات محتجّة آمرة لي ولعمتي خديجة. لم أفهم ماذا يريد؟

من جديد تعالى طنين وتكبير ولغط! موجة جديدة! يتقافزون ويطلقون النار على الجدران وفي السماء. أغمضت عينيّ وضممتكِ.

عمتي خديجة تولول، وأنت تصرخين:

-بابا. بابا!

ضاع صراخكِ. يأمرونه أن يمشي معهم، لكنّ رجليه لا تساعدانه. يجرّونه من يديه نحو الباب!

هل نخرج من هذا التكبير الدموي أحياء؟ يداي تتعرّقان على وجهك. ضممتُك وغرزتك في حضني، وروحي متعلقة بهاشم. لماذا يحدث هذا؟ أين العدالة السماوية، يا يسوع؟

تستجديهم بعينيها عمتي خديجة، انكسر عزمها وهي ترى هاشم. بكل هيبتها صارت تزحف. تتضرّع. ينقضّ عليها أحدهم. عمره بالعشرين ينتعل حذاء رياضيًّا أبيض، وعلى وجهه بقايا جروح. يرفسها على وجهها؟ يسيل الدم من فمها، وهو يصرخ:

-يا شرموطة يا أم الشبّيح!

تأوَّهت بوجع، وستَرَت وجهها بيدها! العجوز المسكينة تصارع الألم والإهانة وتزحف لتلحق بهاشم.

يلتفت أحدهم باللهجة الرقاوية نحوي:

-أين الشبّيح يا قحبة!

صامتة متيبّسة أحضنك، وأحبس نفسي، وأنظر إليه بعينين متضرعتين! ضربة بقدمه على ظهري فوقعت على ركبتيّ. أمسكوني من شعري وجرجروني وأنت تصرخين. تنفلتين من حضني، وأنا أصرخ وأتألم. جرّوني نحو الجدار، مثلما يُجَرّ كيس زبالة!

-أين بشير، يا بنت الكلب؟

-أنا زوجة هاشم، وبشير من البارحة ما رجع. أقسم بالرب ما رجع!

صفعني على وجهي. شاهدت شهبًا نارية لامعة مثل البرق. ومن جديد لطمة على فمي. السائل اللزج الدافئ ملأ فمي، وسال على وجهي!

أختك وأمك!

جسمي مبلّل بأشياء كثيرة، يا مريم. تهرعين إليّ وتصرخين ملتصقة بي. هاشم ينزف من وجهه وصدره! عمتي خديجة تنزف من فمها ويشتد نواحها وصراخها! أتلفّت لعلّي أحلم! غامت الدنيا بوجهي، كأني في دخان أبيض، لم أعد أسمع إلا دويًّا متواصلاً وطنينًا مثل شلاّلات سيل جارف! أفتح عينيّ من جديد. تتكوّرين مرعوبة فوقي تستنجدين بي! أرى زوجي على الأرض تحت أقدامهم.. الأيادي تتحرك فوقه، وتهوي بكعوب البنادق وبالأحذية. أصوات، وتكبير متداخل. يغيب هاشم بين الأرجل!

ملثّم يصرخ الله أكبر، والعجوز تتلوى وتستغيث وتتوسّل. تريد هاشم. يدفعونها بأرجلهم. وبضربة بالبارودة على رأسها من رجل ملثّم همدت العجوز تئنّ. بدا لي أنها غابت عن الوعي، أو ربما ماتت.

فتّشوا البيت. نبشوا أشيائي، محفظتي الخاصة، محفظة عمتي!

هاشم ينزف وهو متكوّم عند الجدار. يلهث بفم مفتوح. يجلّل وجهه الدم. أحدهم يشير بيده ويصرخ:

-ما هو بشير.

جرّوه والرفسات تتزاحم والعصيّ تنهال عليه. أشعر بها في وجهي وجسمي! رأسه يتهاوى، ودمه ينزف طازجًا حارًّا له بخار مثل شاهد غاضب. يحاول أن يتكلم. تضيع الكلمات منه وتزوغ النظرات! التكبير يتعالى فوقه. لم يتمكّن من النظر إليّ. تنزف كلمات من فمه كما تنزف جروحه:

اتركوا الحريم يا كلاب!

يتجمّعون حوله ويرفسون. سحلوه إلى الخارج ورأسه يهتز على طرف كتفه، وقد استطالت ساقاه وارتخى بينهم مثل ميت!

أنظر إليكِ تصرخين بحضني، أخرجوا هاشم. سمعتُ طلقات مثل احتفال وتكبير يتعالى منتشيًا!

قلبي يكاد يخرج من صدري، قوّة جبّارة تشدّني نحو هاشم. تركتكِ في الحوش، وطاقة جنونيّة دفعتني إلى الخارج:

-هاشم. هاشم. هاشم.

يضيع صوتي بين اللغط وحركة الأحذية وهدير السيارات.أحسّ بأحشائي تتقطّع، وقد امتلأت بحجارة مدبّبة وسكاكين نارية!

يُحشر هاشم في حافلة. أحاول أن ألحق، أتلقى رفسة على وجهي. التراب اللزج يملأ فمي وأصرخ. الدم ينز من جلد يدي ومن ركبتيّ وأصرخ.

رفعت وجهي إلى يسوع. كانت السماء شاحبة، ثم تحولت إلى ظلام حالك اختلط فيه وجه هاشم بوجهكِ -يا مريم- ووجه عمتي ووجه أمي!

أغيب وأصحو. أسمع خليطًا من اللهجات العربية، والكلمات الغريبة عن البيئة، تعبر من فوقي، مع خبط أرجلهم وتكبيرهم وصراخهم ورفسهم.

الفصل الثاني:

أيّام المُوْلَيَّة

1

كان غياب هاشم قاسيًا. الفجيعة كانت غير مُتَوقّعة. تركت جروحًا عميقة ونارًا تكوي كالجحيم. بقي مكانه في البيت مثل محجر العين الفارغ. انطفأ النور في عيوننا. نتخبّط في ظلام الوحشة مثل السَّبايا. وزاد من وجعنا اختفاء بشير! نحاول الاتصال به، بزوجته إيناس، ولكن لا فائدة. شعور قاهر من الضعف والوحشة والموت.

الحمَام يتصارع غاضبًا، يهدل طيلة الوقت. بقايا الأشجار في البيت كأنّها مفجوعة تندب عزيزًا. حين يهزّها الهواء تنوح وتنوح، لها حفيف متواصل، مثل عويل لا يرحل. مواء القطط يشبه صراخًا شيطانيًا حاقدًا. أمّا حجارة البيت، أمّا أرض الحوش، أمّا الجدران، فقد ضيّعت ملامحها. اصطبغت بالدم وتلوّثت بالإهانة!

الجيران هرعوا إلينا يعزّون، يتفقّدون، ويحاولون تهدئة الوجع. آه من الوجع. الجارات يداوين عمتي خديجة ويداوينني من أثر اللكمات. حتى الحوش نظّفْنَه من أغصان الشجر، وقطع الزجاج، وبقايا الدماء!

بقيتِ -يا مريم- ترتجفين وتصرخين. ثلاثة أيام وأنتِ ترتجفين وتتشنّجين وتتمسّكين بي، وفجأة يزرقّ وجهك وتتراجعين، ثم تختلجين ويخرج زَبَد من فمك! عمتي التي ظننتها فقدت الحياة. كانت تتمنى لو أنها فقدت الحياة فعلًا. لسانها يلهج:

-حسبي الله ونعم الوكيل. حسبي الله ونعم الوكيل. وكأنّ وجعنا لا يكفي، فوق مصيبتنا بهاشم جاءت مصيبة مريم!

ولو سُئلت يومًا كيف تبدو المصيبة لقلت: إنها وجه عمتي خديجة! أهملَت نفسها. في عينيها حزن الحرائر. حزن صامت نبيل مؤلم. تلبس لباسها القديم، ولا تهتمّ بمظهرها. حين تتحدّث عن مسألة تتعلق بهاشم، كأنها تتحدث عن أمر خارق جلَل أو عن حدث أسطوريّ مخيف. تبقى شاخصة في الفراغ، وتتحدّث كمن ينظر في أشباح غير مرئيّة!

تبكي عمتي خديجة بصمت، وحين تكون وحدها تنوح بصوت مسموع له أنين. مرّة كنت في المطبخ، وكانت وحدها في المضافة، وقد ذهبت نوريّة إلى فرن النَّظِير تشتري قليلاً من الكعك، وتجلب بعض الأشياء الأخرى. سمعت أنينًا يشبه غناء «المُوْليّة»! هل عمتي خديجة تغني؟ تركت الأواني، وجئت بهدوء إلى المضافة! نعم! إنها تغنيّ غناء الموليّة:

«أَوَّلْ ما خَطّ الكَلَمْ سَلامي لِلْغَالِي   هَمًّا اِبْكَلْبِي سطَا ما اِتْشِيْلَه اجْمَالِي

والله يا مُهْجِتِي مَاتْرُوْحْ مِنْ بَالِي   مازالْ شَمْسُ وْ كُمَر بَالجَو مَبْنِيَّة

تنوح، وتنوح. جف دمعها، فاستبدلت بالدمع ذلك الغناء الحارق. من دون شعور تفاعلت مع وجعها من وراء الباب، والغيمة تحجب الرؤية قبل أن تنهمر. قطعتِ الغناء -يا مريم- حين دخلتِ مسرعة على جدّتك.

عمتكِ نوريّة سكنت عندنا لأكثر من شهر. تركت بيتها وجاءت إلينا تعزّي وتقوّي من همّتنا! تصبّر عمتي التي انهارت وبدت مفجوعة لا ترحم نفسها! تنزل إلى السوق، تشتري حاجاتنا، حتى حذاء عمتي

أخذَتْه للتصليح عند محل محفوظ بشارعنا! تذهب إلى الفرن وتنتظر دورها. طوابير مرعبة، وتحتاج لإجراءات التسجيل والوقوف لساعات في الدَّوْر. أحيانًا تشتري من «البَسطات» حول فرن النُّوفِي وتعود. وقد تذهب أحيانًا إلى أبعد من ذلك، لتؤمّن لنا ما نحتاج!

قبل أن تعود عمتك إلى بيتها جاء وائل زوجها، وأخذها إلى «دُوّيرة الخُضْرَة» بشارع «تل أبيض». جلبوا خضارًا تكفينا لأكثر من شهر. وفاجأنا زوجها بأن جلب وجبة من اللحم المشوي «كباب»، من محل خالد الصَّفْوَة عند المتحف، وحلويات مشكّلة من «حلويات ابن الوليد» بشارع الوادي، وأقسم على عمتي وعليّ يمينًا بأنه لن يأكل حتى نشاركه الأكل. أصرّ أن يشجّعنا على قهر الموت والحزن!

وجبة وائل زوج نوريّة نقلتني إلى رائحة هاشم وليالي مزرعة النجاة! تذكّرتُ يوم أرسل إلينا مع أم حميدي علبة مكتوب عليها: «حلويات ابن الوليد». يومها جلَبَت لنا مع الحلويات وجبة من «مطبَّق باذنجان على بندورة» وبصل أخضر وخبز ولبن غنم. أطالت في جلستها تحدَّثنا عن تعب العاملات، وهموم النساء في مزرعة النجاة وأحلامهن، وعن عمل المزرعة، والتعب في الحقول، وحاجات الناس. أم حميدي لا تريد أن تقوم! في فمها كلام تنوي البوح به. نتبادل النظرات أنا وهدى. ويمتدّ الصمت!

حساسيّة وإرباك في الجلسة تسبّبها نظرات أم حميدي الملغزة، ووجهها الذي يحمل كلامًا لا تجد الفرصة لتبوح به. فهمت هدى ذلك، وقامت باتجاه المطبخ، ولتطمئن أم حميدي شغّلت المذياع!

-آنسة سارة الأستاذ المدير يعرض عليك خدماته وهو...

وصمتت. ثم ضحكت بخجل وأضافت:

-يريد لقاءً خاصًا!

قالت أم حميدي كلماتها منشرحة مبتسمة، وكأنها أدّت واجبها!

صمتُّ مبتسمة. أكابر وفي داخلي أشعر بانتصار ونشوة. وضعت الفنجان على الأرض بعد رشفة، وقلت:

-أنا ما عندي لعب. جئت أعلّم فترة خدمة ريف وأعود!

-يقول: إنه جاد!

أجابت بسرعة، وهي ترفع يدها، ووجهها يكتسي ملامح جدية، وكأنها تخطب لابنها البكر وتطلب مني عدم التسرُّع!

-جادّ؟

-نعم جاد.

تهز رأسها بثقة وتتحدّث بلهجة تريد عبرها أن تؤكد مكانتها عند المدير، كأنها تتباهى بمنزلتها! مع أن المسكينة أرملة، تكافح لتربّي أيتامًا!

-عود الخيزران واقع بحبّك يا آنسة، واقع بحبك يا المحرداويّة، وأنا متأكّدة.

طفل عند الباب جاء ينادي أم حميدي، لأنّ ابنتها حرقت يدها بالشاي فارتبكَت وقامت!

وما إن خرجت أم حميدي حتى عادت هدى تضحك، قلت لها:

-رسالة من مدير المزرعة السيّد هاشم، يقول: إنه جادّ ويريد لقاء جدّيًّا.

-وما رأيك؟

-لست مستعدة لأعيش قصة «روميو وجوليت» وغراميات وهمية. لا مجال للّهو واللعب.. أنا جادة في حياتي!

نظرت هدى إليّ نظرة من يعرف، وقالت:

-لا تكذبي عليّ وعلى نفسك يا سارة. كلنا نعرف أنك تلعبين معه.

-بصراحة اللعب مع هذا الفراتي أعجبني!

قلت لهدى هذه الكلمات، وفي داخلي أشعر بسحابة من الغرور تطير بي فوق السَّحاب. أنتعش. أطير في الجو، مثل حمامة مغرورة، تلعب مع رفيقاتها منتصرة فوق الغيوم. أحلم وأحلم. أحلامي تخلّف وشوشة وهمسًا وقبلات. تبني أعشاشًا دافئة. أعشاش عصافير ترفرف بأجنحتها وتزقزق على أغصان الأشجار. تتنقّل مزهوّة على أشجار الكينا والسرو والحور!

-لعبك مع الفراتي يجعلك تغرقين في هواه!

لا تتوهّمي!

-أنت لا تتوهّمي، افهمي نفسك. أكرّر لا تضحكي عليّ. بل لا تضحكي على نفسكِ.

هل حقًا لست مستعدة لأن أعترف؟ إنه يشغلني وقلبي يهواه. لماذا أرفض اللقاء؟ في العصر الأولاد يركضون خلف الكرة. جارتنا أم حميدي تضحك وتنادينا من بيتها. أشعر بقلق وطيف هاشم لا يفارق خيالي! أجلس مع زميلتي الحلبية هدى، وتأتي الآنسة يسرى زوجة المهندس صبحي، وعند الغروب يتكاثر البعوض، فندخل إلى البيت!

* *

بعدما ذهبت نوريّة إلى بيتها وبقينا وحدنا لم تتحسّن أوضاعي. فاجعة كسرت ظهري. كل شيء صار بلا معنى. جنة الله انتهت.أحسّ

برعب. أتخيل أنهم سيعودون ويبحثون عن بشير. بشير الذي اختفى مثل ملح ذاب في مياه الرقة، جلب لنا هاجسًا آخر. أتشهّد على طريقة هاشم، وأرسم الصليب.

آه. يا بنتي. ما أتعس أن تعيش المرأة خائفة وحيدة بلا رجل! تسمّم حياتها الأوهام والأحزان!

وضعكِ -يا مريم- كان يتدهور. تستيقظين أحيانًا في الليالي بصرخات مُدويّة. تتشبّثين بي، وترتعشين وتتشنّجين، شاخصة كأنك في غيبوبة! عمتي خديجة تقرأ عليك الآيات والدعاء، وتستعيذ بالله من الشياطين. وفي الصباح حين أسألك تشردين، وأحيانًا تشيرين بيدك في الحوش إلى حيث كانت آثار دماء من بابا على الرغم من تنظيفها بقي لها أثر. وتقولين بغضب:

-دم. بابا. دم!

عمتي خديجة ضعُفَت. احترق قلبها وهي تنوح. بعدما كنتُ شريكتها في النواح أخذَتني الشفقة على حالها، فصرت أعزيها. لا تأكل إلا للبقاء حية. تصلّي وتسبّح، وتبقى معظم النهار، في الحوش أو المضافة، صامتة شاخصة في الأفق، تترقّب الأخبار والشائعات، لعلّها تكحّل عينها بخبر مفرح.

تركض المسكينة وراء كل كلمة تتعلّق بمصير هاشم وبشير، وخاصّة هاشم! فله معزّة كبيرة في قلبها، فهو ابنها الكبير والمسؤول عن البيت.

«يا سارة أمّي تتعلّق بي، لأنني أشبهها. كأنّي نسخة منها، الفرق أنها بيضاء، ظهر فيها لون جدّتي الأرمنية».

هكذا قال لي هاشم يومًا. وقلت له:

«ربما لأنك الكبير، يا هاشم. وقد فقدت عمتي خديجة والدك».

تتقصّى المسكينة عن المسلَّحين، عن معارفهم. تتّصل وتتابع هنا وهناك. لا تكلّ ولا تملّ! وحين ينسدّ النفق بألغاز المجهول ودوامة التكهّنات تشعر بالخيبة ومرارة الواقع. تجلس على الأرض في باب الحوش، تبكي بصمت، ويتحوّل الباب إلى جليس حيّ يشاركها النشيج!

حين قويت شوكة المسلّحين تفاجأَت عمتي بتحالف بعض الشيوخ معهم، فعلّقت:

-الكلب العفن ينبح آخر الكلاب!

ولكنها تنازلت لهم، ذهبت إليهم. الأولاد يكسرون الظهر. توسّطت وتواصلت مع المعارف. تريد أن تعرف مصير هاشم!

- «بعد أسبوع يردّون لنا خبرًا».

- «اليوم كلّمت أمير الجماعة».

- «بعد العصر عندي لقاء مع زعيم الحركة».

وتقول لي عمتي:

-أخاف-يا بنيتي- أن يكون هاشم مات، وما أحد يتجرّأ على نقل الخبر لنا!

-بعيد الشر، يا عمتي!

تَوَتّرنا كثيرًا حين أخبرونا أنّ واحدة من سياراتهم مرَّت مصادفة بشارعِ المنصور تحمل جثّة ميت! لا نتجرّأ على الكلام. كان يومًا صعبًا ثقيلاً مرعبًا مشؤومًا. الاتصالات لا تنقطع.

- «هذه جثّة رجل من شارع الوادي».

- «الجثة لشخص من حي البياطرة، لكن أهله يسكنون هنا، ومرّوا من أجلهم».

- «إنها جثة طفلة من «الحسّون» ماتت نتيجة إصابة قديمة».

- «هذا محامي من «العجيلي» أخذوه ورجّعوه جثة».

شائعات كثيرة لم نتأكد منها إلا عن طريق نوريّة بعد يوم، حين أوضحت لنا أن الجثة تعود لأحد المصابين النازحين. قُتل نتيجة القصف العشوائي من قوات الحكومة.

-مكبّرات النعي لا تنقطع، وفواجع القصف العشوائي بدأت تتكاثر، وصار القتل بالجملة!

تغيّر كل شيء. وجد الحكام الجدد من يزمّر ويطبّل لهم. الكثير من سكان الرّقّة هلّل في البدايات وأيّد. كانت النسبة العظمى من المؤيدين في الأحياء الفقيرة والشعبية!

مررت بمدرستي التي بقيت مغلقة فترة. لم تعد هناك أيّ صورة للرئيس ولا للعلم السوري. تحدّثني زميلاتي:

- «عناصر من الحُكّام الجُدُد مسحت كل الشعارات القديمة، وحطّمت الصور وبدّلت الأعلام».

- «كانوا يصرخون ويكبّرون».

- «هذه الرايات والأعلام هي راياتهم وأعلامهم».

امتلأت المدرسة بالمسلحين وشعاراتهم. العلم الذي شاهدته في التلفاز وفي التظاهرات بدأ يرتفع في سماء المدرسة. عبارات إسلامية تنتشر على الجدران وشعارات معادية للدولة تسود في كل مكان من

الرقة. حاولوا زرعها حتى في الهواء! وكأن الرّقّة فتاة تلبس ثوبًا جديدًا. مرتبكة تلبسه على عجل فيبدو غريبًا عليها!

أنظر إلى مدرستي أتأمّل الدمار الذي أحدثه قصف الحكومة على المدينة. أتذكّر زميلاتي وزملائي. أتساءل عن مصير كل منهم. وتعود بي الذكرى إلى مدرسة مزرعة النجاة. أتذكر تلك الأيام التي بدأت صعبة وقاسية ثم تحوّلت إلى ذكريات جميلة. تقودني ذكرياتي إلى محطات مع والدكِ عزيزة عليّ. ففي يوم من شهر كانون الثاني من العام 2004، جاء إلى المدرسة وكنت أعطي الدرس في الحصة الثانية.

جاءت المديرة بنفسها تناديني:

- «مدير المزرعة يسأل عنك!»

قلت في نفسي:

-جاء برجليه أخيرًا.

أشعر بطعم الحياة يهزني من الأعماق. خفق قلبي، وابتسمت المديرة إذ لاحظت تغيّر لوني ثم استدارت عائدة لتمنحني لحظات أسترد فيها لوني!

أبحث عن سرّ انجذابي. أحاول أن أتماسك. يا يسوع هل فقدان الأمومة ما يجعل عاطفتي متأجّجة على هذا النحو؟ هل هي الغربة أم شيء خفي أكبر من تعليلات العقل؟ من أين خرج لي هذا الفراتي النحيل، عود الخيزران هذا؟ لماذا تسوقني الأقدار إليه؟

أمام الأولاد، في الصف، أدرتُ وجهي وأخرجتُ المرآة من المحفظة، ورتبتُ شعري مرتبكة متفاجئة! حين دخلتُ غرفة المديرة كان يبتسم ويتأمّلني. عينه تدبّ فوق وجهي وجسدي، وأنا تائهة من السعادة!

مدّ يده وصافحني بحرارة. جلست ورفعت يدي إلى شعري، فشممت رائحة يده في كفّي. ما أروع رائحة يده! تشبه رائحة قمح الفرات بعد المطر في صباح ربيعي دافئ.

-آنسة سارة يسعدنا وجودك بالمزرعة!

-تسلم أستاذ الله يخلّيك.

عدّل جلسته، ونفض السيجارة بالمنفضة أمامه:

سيرتك في بيوت الأهالي على كلّ لسان، ولكن عتبنا عليكِ. كنتُ أعتقد أني مدير مزرعة، ومسؤول عن كل شيء فيها!

ابتسمت، وحرّكت رأسي، لأبعد خصلة شعر نزلت على وجهي.

-هل قصّرنا في شيء؟

- لا ولكن كيف تستأجرين سيارة المرّة الماضية للذهاب إلى مَسْكَنَة، وما تطلبين مني؟

يتعطّش صدري لاحتضان هذا الرقّاوي الشقيّ. نظرت في عينيه فأخذني. وصرت أدور مرتبكة بداخلي:

-والله حتى ما نشغل جنابكم!

-المدرسة جزء من المزرعة، وهذا شغلي.

وقبل أن يُكمل ابتسم وسحب نفسًا من السيجارة:

-في موضوع بسيط أحببت أن أحدّثكِ به!

دخلَت الآذنة بالشاي فصمتُّ للحظات:

-خيرًا، إن شاء الله!

-ما في إلا الخير. لو تكرّمتِ بالمرور على المديريّة إذا كان عندكِ وقت!

أخذتُ رشفة من الشاي، ووضعت رجلاً على رجل، وقد امتلأت ثقة:

-ما في مشكلة. متى يناسبكم؟

-بأيّ وقت يناسب حضرتك.

-بكرة بين العاشرة والحادية عشرة، عندي ساعة فراغ.

-وهو كذلك!

لمّا قام شعرت بكهرباء تملأ الفضاء بيننا. فاح عطره وانجذبتُ وتورّد خداي! مرّة أخرى، المديرة تبتسم!

حتى في ليل ذلك اليوم بقيت مرتجفة منتعشة مرتبكة. فكّرت كثيرًا. احتمالات متنوعة! ماذا يريد؟ وإلى متى تستمرّ المطاردة؟ وما النتيجة؟ هل سيوافق أهلي المسيحيون على زواجي منه؟ هل أتحدّاهم وأخسر ناسي ورحمي؟ ثم ما أدراني أنه جادّ؟ وهل تسمح له أعرافه وأوضاعه العائلية أن يتزوج من مسيحية؟ لكنّي وعدته. نعم وعدته بالذهاب وسأذهب. يجب أن أحترم كلمتي.

حين ذهبت إلى مكتب المديرية -يا مريم- كان المطر قد انهمر بغزارة في الصباح، وقبل الظهر انقطع، وانقشعت الغيوم، وسطعت الشمس تداعب بأشعتها أوراق الأشجار، أشجار الكينا والسرو.

المزرعة هادئة مغسولة، تبدو مثل طفلة جميلة بعد حمّام. وأصوات العصافير والأطفال تختلط في احتفال وجوديّ مثير!

ما إن دخلت المكتب حتى استنفر المدير. أوقف العمل واستقبلني في مكتبه الكبير، وبعد الترحيب الحارّ بكلمات كانت تهزّني قال:

-لا أريد أن أعطلّك عن عملك في التدريس. مع أني أرجو أن يطول اللقاء.

دار من وراء المكتب، وجلس في مواجهتي وقال:

-هناك أشياء لا نفهمها.

نظرت إلى وجهه مستفهمة. كان يبتسم. ثم تابع بصوت مهموس:

-أشياء ترغمنا -يا آنسة سارة- وتقودنا إلى حيث الشقاء والسعادة. ولأكن صريحًا، لا أخفيك أني مشغول جدًا بكِ. أنتِ حاضرة في حياتي إلى حد ما عاد يمكنني الصبر عليه. إذا ذهبت إلى العمل أتصوّركِ تودّعينني على الباب. إذا جلست لآكل أتصوّرك...

كان يتكلّم ويتكلّم... وكلماته تنقلني إلى دنيا عجيبة، إلى أن قال:

- سارة، أنا أحبك!

صرّح أخيرًا. قالها بوجهي! كلمات لذيذة مغرية بصوته الرخيم. نغم منعش يأتي من مكان بعيد، ربما من الجنّة. كنتُ -يا مريم- مثل وردة عطشى تستقبل قطرات المطر في هذه المنطقة النائية. ابتسمت وطأطأت برأسي، وتشابكت أصابع يديّ ببعضها، وتمتمت بكلمات لا أعرف كيف خرجت من فمي:

-وهل يحبّ المرء بهذه السرعة؟

-اسألي نفسك! أنا أيضًا لم أعرف هذا الشعور، ولم أكن أتصوّره بهذه القوّة!

ثم تمشّى ودار من وراء الطاولة مبتسمًا:

-حين رأيتكِ لأوّل مرّة تحرّك بداخلي شيء ما. شيء جذبني نحوك بشدّة، وكأني وجدت سرًا من أسرار الفردوس. إنك امرأة أخذت كل اهتمامي. تملّكَتْني وأسرَتْني!

رمى السيجارة في المنفضة، وأضاف من دون أن يعطيني مجالاً للحديث:

- ما رأيكِ بلقاء في بيت أحد الأصدقاء بعيدًا عن العيون؟

أربكَتني جرأته، واحمرّ وجهي، وتلعثمت. أنقذني دخول أحد الفنّيين يطلب توقيعًا لمأموريّة جرّارات لتسميد الحقول.

كنت مرتبكة، وسعيدة. أحسست أني غير قادرة على إخفاء مشاعري. نهضتُ وهممتُ بالخروج. ألحّ عليَّ كي أبقى، لكني لم أكن قادرة على الكلام. هزّ رأسه وأخذ يدي بيده وأردف:

-هل أعتبر صمتكِ موافقةً؟

ثم ضحك وأردف:

-أقصد على اللقاء على الأقل.

أشعر بطعم كلماته الحلو. حين خرجتُ أدركتُ أن القدر يجرّني إلى عود الخيزران. إلى هذا الرقاوي النحيل.. لماذا، وكيف يحصل ذلك؟ لا أعرف!

أتساءل: هل جروحه قاتلة؟ هل تشافى؟ أين يسجنونه؟ لا أستطيع التفكير في احتمال أن يكونوا قتلوه. أشعر أن سوريا التي نشأت فيها وأحببتها، وتعلّمت من والدك مزيدًا من الحب لها، قد ذهبت إلى البعيد، ولم يبق من آثارها في هذا العالم سوى غَصّات أليمة تخنقني!

أخرج بعد المصيبة ضائعة تائهة، أترقّب قرارًا لم ينضج. أفكّر في احتمال اضطراري لمغادرة الرقة. أين أذهب؟ والدي لا يبالي بي! قاطعني بعد زواجي. أتردّد في الاتصال به. بعد تردّد طال اتصلت بعمتي ليلى في محَرْدة. خشيت أن يرفض والدي الحديث معي، ورويت لها ما جرى! تأثّرَت عمتي، وغصّت على الهاتف، وبعد ساعة رنّ جوالي:

-سارة بنتي.. أنا أبوك!

- لو جئت مع بنتك لعندنا في محَرْدة، يا بنتي!

حين سمعت صوت والدي شعرت بضعفي الحقيقي. عدت طفلة أعبث وأتخيّل كيف يشرب العرق متألمًا، وكيف كانت أمي تعود من مدرستها؟ عدت إلى رحمي في محَرْدة. يتحدث والدي بصوت شاخ منذ زمن. الشيخوخة في صوته زادت من حزني. هدّتني موجة ضعف فظيعة. منذ زواجي لم أسمع صوته. أنظر في السماعة أبحث عن حنان أهلي. اختنقت بدموعي وبقيت صامتة.

-سارة هل تسمعينني؟ هاتِي بنتكِ وتعالي.

مسحت دموعي وتماسكت قدر الإمكان!

- مالي غيركم. أنتم أهلي. مصيري عندكم.

حين انتهت المكالمة انفجر حزن عجيب. حزنٍ تراكم، وثار مرة واحدة. بكيت وبكيت. وبقيت في الغرفة ساعات أفكر. ولكن كيف أذهب؟ هل أذهب وأترك عمتي خديجة؟ وهاشم هل يرضى أن أحمل ابنته وأعود إلى محردة؟ ماذا أفعل والرقّة تتبخر من عالمي؟ تتحوّل إلى وجه جديد مجهول الملامح، يفرّخ رعبًا خبيثًا!

-يا بنتي ذرّيّة هاشم ما تطلع من بيتي! وهاشم يا سارة هل نتركه؟

قالت كلماتها وغصّت.

عمتي خديجة تطلب أن أبقى في البيت. عندما قلت لها «تُصبحين على خير» نظرت إليّ وقالت:

-قرّبي مني، يا بنيتي!

احتضنتني. في عينيها وجع وعذاب وحزن، كأنها تستغيث بحديثها معي! نتكوّر في جلستنا. تروي لي ذكرياتها عن هاشم في صغره، تحدّثني عن بشير، وعن نوريّة. ننشج مثل يتيمتين بلا مأوى ولا حامٍ!

تأتي نوريّة وتنام عندنا أحيانًا. تزورنا بعض الجارات، وتُكثِر جارتنا أم سالم من زياراتها. تأتي كثيرًا في النهار، تبقى عند عمتي ساعات، وتعود إلى بيتها عند المغرب! تقول:

مشكلة إذا تأخرت. ليل الرّقّة صار يخوِّف!

- 2 -

يتكاثرون، ويتوزعون في مراكز الدولة. أقاموا الحواجز، واحتلّوا المؤسسات! ردود الأفعال لا تتوقف:

«حوّلوا المدارس إلى مخازن أسلحة».

«صفوا الكثير من الموالين».

«القصف من الفرقة والمطار ذبحنا».

«يا بن الحلال، البراميل والصواريخ دمّرَت نصف بيوت الرقة».

مع الأيام تصبح الكلمات التي يتبادلها الناس قليلة، ناشفة، حادّة، عصبيّة.

تتزايد المظاهر العنيفة المسلّحة المفاجئة، في الرّقّة كل يوم، وتتكاثر الوجوه الغريبة، وتنشر أنفاسها المخيفة في هواء الفرات! ذات مرة اتصلَت أم سالم مرعوبة:

-دخلوا على المصرف ونهبوا كلّ المصاري. يقول سالم: «مليارات متَلْتَلَة»! وحين سألته: أين أخذوها؟ انفعل وأجابني:

-وهل يقولون لنا؟ كنّا نتكوَّم مثل الغنم. لم يسمحوا لنا بالاقتراب!

عبارات تتناثر في فضاء الرقة، تؤمّل النفوس، ومع القهوة الرقّاوية يسيل الحديث، مثل النزيف الحارق:

«يلعن أبوهم وأبو ساعتهم».

«الله يقطعهم».

«يقمعون ويقتلون أبشع من أول».

«اصبروا، يا جماعة. الصبر زين! ولكلّ شيء نهاية».

«نهبوا كل المراكز الحكومية. حتى الآثار سرقوها».

«حليب الأطفال ما له أثر بكل المحلاّت».

«الخبز صار حسرة. يصبغون يد الواحد. كأنه مجرم».

«يمغرون يد الولد برقم. يصير مثل النعجة. يظل أكثر من خمس ساعات، وأحيانًا يرجع من غير خبز. وهل تركوا قمحًا. سرقوا صوامع الحبوب. يقولون: سرقها شخص كان عامل فرن».

«ما لنا إلا الصبر. مرحلة وتعدّي».

«كل قادر على الخلاص هرب. حتى الأطباء هربوا».

انطفأت لحظات الفرح. نشوة النصر المُدَوّية التي استحوذت على قلوب المعارضين بدأت تحتضر! السلطة في الرّقّة تغيّرت. نظراتها مخيفة، عنيدة، تتسلّل عبر كل شيء في النهار والظلام! تتسلّق الوجوه والجدران والبيوت، مخيفة مثل أفعى غادرة لها مئة رأس، تترقّب لتلتهم فريستها. باتوا يُفتّشون عن كلّ شخص كان يومًا مع الدولة. يأخذون الشخص ويختفي!

تعلّق عمتي خديجة:

-بين البراميل وملاحقة المسلّحين ضعنا وضاعت الرقة!

يزداد خوفنا في البيت، وتستبدّ بنا الوحشة، والهواجس تثقل النفوس، والناس تفكّر في شراء الأسلحة للحماية! لا أحد يجرؤ

أن يرفع صوته. صور الرئيس السوري بشار الأسد تُداس بالأحذية، وتمثال حافظ الأسد دُمّر فور دخولهم. مؤيّدوه يشاهدون صامتين. يطأطئون الرؤوس. يمضون متشاغلين من دون تعليق! لا أحد يجرؤ أن يفسّر أو يحتجّ أو ينتقد. الحيرة والخوف في النظرات!

سماء الرّقّة -يا مريم- تغيّرت. بدل الحمام والعصافير، بدل القطا العابر، بدل أنغام المُوليَّة، تحوم أشباح مفزعة! براميل الموت تسقط مثل كتل بركانية متفجّرة. تلك الكائنات الضخمة الجهنمية، حين ترتطم بالأرض نظن أن الرّقّة تعرّضت لزلزال كبير لانفهم ماذا يحصل؟ ولمّا أخذت القصة تتكرّر بدأنا نميّز البرميل من الصاروخ.

عام 2013 كان عامًا حافلاً بالمصائب الكبرى في سوريا، مجازر مرعبة تحصد آلاف السوريين. الأهالي في المجالس والمضافات يعلّقون على ما يحدث خارج الرقة:

- «ذبح بالسكاكين مئات الناس بالبيضا وغيرها».

- «صواريخ الكيماوي حصدت آلاف الناس»

يرد أحدهم:

-مئات ما في آلاف!

-أنت شبّيح؟ تصدّق ما يقوله التلفزيون السوري.

- «ريف اللاذقية الموالي للدولة يتعرّض لخطف عائلات».

يردّ آخر:

- «وغير الموالي يتعرّض لما هو أبشع».

- «ريف حماه وحمص تسيطر عليه الميليشيات».

- «مئات الجنود قتلوا في كمائن بداريّا».

- «معلولا سقطت بيدهم، واختطفوا وقتلوا».

- «قتلوا عشرات الجنود في درعا، فردّوا عليهم بمجزرة مروِّعة بحق الأهالي».

- «حلب دمروها، ونهبوا سوق المدينة وأحرقوه، وقتلوا وشرّدوا أكثر من نصف الأهالي».

أمّا في الرّقّة -يا مريم- فكانت أكبر المصائب في نهاية نوفمبر 2013 حين اهتزت الرّقّة بما فيها شارع المنصور مع شارع 23 شباط! ظننا أن زلزالاً ضرب الأرض. يومها ذهبت الضحايا بالعشرات، انعجنت الدماء بالخبز، ودُمِّر الفرن السياحي مع نصف الحيّ، بعدما سقط فوقه صاروخ ضخم أطلقته قوّات الحكومة.

الحواجز القليلة المتنوعة بدأت تكثر، تتزايد وترفع رايات مختلفة، لكن العلم الأسود هو الغالب عليها!

يحسّ الأهالي بتغيّر جذري في كل شيء. تغيّر بدأ فجأة من دون مقدّمات. تغيّر بدا مهينًا يختلف عن عادات أهل المدينة. يستهدف قِيَمهم. ينخرطون بعملهم مترقّبين قلقين. لا يتوقفون عن الشتائم في السرّ بأصوات خافتة. بدأ الكثير منهم يعيد حساباته، ويندم على الساعة التي خرج فيها، وصرخ بوجه الحكومة!

«كنا نظن أننا ننشد حرّيّة حقيقيّة».

«رعب المخابرات أرحم».

يتذمّرون. تتجعّد وجوههم وتتقلّص وتنعقد حواجبهم وتضيق العيون وترفّ. ترف أحيانًا رفيفًا متكررًا وتتحرك قلقة حانقة، كما يدور عصفور في قفص. في العيون وميض حزين. صار الكلام يعلو. نسمعه

حتى من الذين هلّلوا في البداية. كل يوم يرون أشكالًا جديدة. يشتمون ويحتجّون. يأملون بالخلاص. يعلّقون بغصّة على الوجوه الغريبة التي تجتاح مدينتهم.

«مثل ديوك الهندي».

«مثل الماعز المبقّع والأسود».

«مثل القطط المشبطة يتقافزون طوال الليل ويصرخون».

أكثر من مرة ونحن نتحدث في المطبخ نسمع تراشق نيران، ما عدنا نفهم مَنْ يقاتل مَنْ. التراشق نسمعه من كل الجهات. تضع عمتي يديها أمام وجهها، تبكي بصمت، وأرى الدموع تبلّل أصابعها، قبل أن تضطر لمسحها حين تراني. ترفع رأسها:

-لو نعرف مصير هاشم. لو نعرف أين اختفى بشير. حتى إيناس انقطعت أخبارها!

تصمت. ثم تتحسّر وتقلّب عينيها، وكأنها تبحث عن خبر، وربما طردت خوفًا أو هاجسًا لا تريد أن تتخيله:

-الله يسامحك يا بشير لا حسّ ولا خبر!

أحيانًا تفقد رزانتها وتوازنها، تصرخ منفعلة باكية، تخاطبه كأنه أمامها، وتنهار بعويل فظيع! لا تذكر هاشم، كأنها بذلك تريد أن تُخفف عني. فنصمت متواطئتين!

ذات مرة سمعنا في الليل عند الجيران صوت المطرب يوسف حسين الحسن يغني «سويحلِي ولكّاحي»:

«مَرّيْت اعِن بِيْجْ يا دارَ الْمِحِبّين   هُمّ اغْدَرَوا بِيْجْ اَلْبِيْهُم فطاةَ الْبالْ».

-يا عمتي الحكّام الجدد يرفضون الغناء، أخاف على جيراننا!

رأيت عمتي متأثِّرة بالغناء. كانت متفاعلة صامتة شاردة، وتغمض عينيها:

.....!

-قد يتعرضون للأذى!

-آااخ يا بنيتي، والله الليلة أخو خولة فتّح جروحنا!

يحفر الوجع ثقيلاً في قلوبنا مع الزمن! تستعيذ عمتي خديجة بمفردات دينية، وتكرّرها باستمرار، وتكثر من الصلاة. تردّد أحاديث وقصصًا من الماضي، مع الأحبة. لا تستطيع أن تستمر بتجاهل حزنها على غياب هاشم تحدّثني عنه:

-كان هاشم يحبّك كثيرًا، يا سارة. حين قال «مسيحية» ضحكت. وتخيّلت أبي حين تزوّج أمي المسيحية الأرمنية أيام «السّوقيّات»، وقلت له:

-يا هاشم كأنك تقلّد جدّك خليل الشلاش!

تستمر عمتي في قصّ حكايات سمعت معظمها. أما أنا فأغيب، ألجأ إلى الماضي في مزرعة النجاة، أذكر نقاشنا حول مشكلة الاختلاف الديني بيننا. كنا نتمشى عصرًا في بداية شهر أيار على الطريق بقرب المزرعة. تمشّينا على الطريق الإسفلتي، ثم ابتعدنا في مشوارنا بين الحقول. رائحة القمح الطري أنعشَتنا، وراح أبوك -يا مريم- يفتح لي قلبه ببوح حميمي، فأشعرني بمحبّته الصافية! تهمي كلماته مليئة بالتنهّدات والأحلام والطيب والأشجان والمحبة! حين يفتح الرجل قلبه لامرأة تشعر أنها امتلكته بالكليّة! وهذا ما كنت أشعر به!

-يا سارة، لونك بلون الحنطة الفراتية، وشعرك فاحم السواد. بصراحة أنت آية من آيات الجمال العربي الأصيل!

-لو كنتُ شقراء ما بقي فيك عقل!

-بالعكس هذا الجمال العربي أراه في الجمال الفراتي. تشبيهن معشوقات العذريين بأشعارهم!

وقفت وأسندت يدي على قناة الرّي، ونظرت في سنابل القمح، وهي تموج على مدّ الأفق. وقلت له وأنا أنظر في عينيه:

-حبّنا مكتوب له الفشل!

-لا! مكتوب له النجاح. إلا إذا أنتِ...

قاطعته، وقلت بصوت فيه نبرة حزن:

-هناك عائق يقف بيننا. أنت من دين غير ديني!

-الدين ليس مشكلة عندي. سارة اسمحي لي أن أتفلسف قليلاً، فأقول لكِ رأيي في الاختلاف الديني.

أبعدتُ شعري عن عيني بعدما تناثر بسبب نسمة هواء قويّة، وقلت:

-تفضّل.

-الاختلاف مظهر طبيعي في الحياة، وهذا الاختلاف لا يقف حاجزًا بين البشر.

ركّز نظره على وجهي حتّى يرى أثر كلامه، وانتزع ورقة من شجرة الكينا على الطريق، ودلّكها بين أصابعه، ثم قذفها، ونظر في حقل القمح الأخضر أمامنا، في حين ضحكتُ وعلّقت:

-وما علاقة هذا بكلامي؟

-له كل العلاقة. هذا الاختلاف أراه إيجابيًا. البشر يختلفون في

الدين والجنس والعِرق واللون. الله خلقهم مختلفين. لا يوجد تطابق بين إنسان وآخر لا في الشكل ولا في العقلية ولا في القناعات بما فيها القناعة الدينية، يا سارة! ولكن يجب ألّا يكون أيٌّ من هذه الاختلافات حاجزًا.

بدأت حركة البعوض قبل الغروب. طنَّت بعوضة عند أذني فحرّكت يدي لأبعدها عن رأسي:

-إن ما تقوله هو من باب التمنيات، لكن الواقع غير ذلك.

كان أبوكِ -يا مريم- مستغرقًا في أفكاره، ينظر إليّ بجدية عاشق مسؤول عن مصير حبيبته، فشعرتُ كأنني ملكة تحظى بنعيم الله المتدفّق.

-يا سارة قناعة الإنسان بوجود الله مسألة ضرورية. مسألة تتعلق بمواجهة الطبيعة والوجود. تتعلّق بالقيم والأخلاق. مسألة لا غنى عنها للمحافظة على نظام أخلاقي يميّز الإنسان.

ضحكتُ لهذا التنظير، والتفتّ إليه بحركة أنثوية. كان قرص الشمس المتلوّن في وقت الغروب، وقد أصبح بلون وردة برتقالية جميلة، يضفي جوًّا خاصًّا، يجعل كلماته تنساب متدفقة لأسبح وأغيب في نغم كلامه، فعقّبت:

-ما قيمة كل ما تقول إزاء عقبة زواجنا؟ ما الغاية من كلامك؟ ثم هناك من ينكر وجود الله، ويحقّق إنجازات علمية كبيرة ويرتقي ويتطوّر!

قلت كلماتي، وأشرت إليه أن نتحرّك بهدوء باتجاه المزرعة، وكنت منشغلة بإبعاد البعوض عن وجهي بامتعاض. كسر غصنًا من شجرة كينا، وراح يطرد البعوض عني، ويقترب مني:

-نعم. قد يُنكر. ولكن في صميم وجدانه يؤمن بوجود الله. لا

يمكن أن تجدي إنسانًا يرتقي بأفعاله، ويخلو من هذا الإيمان. فالإنسان لو عاش في كهف، أو في برج، أو في غابة، أو في صحراء، سيلجأ إلى صوت غامض خفي، يحاوره ويطلب منه المعونة! وإذا كان الله غير موجود في أي مجتمع بشري فإنه سرعان ما ينهار!

-كنا نناقش مشكلة اختلاف الدين كعقبة بوجه الزواج، ونقلْتَنا إلى محاضرة. فيلسوف ما شاء الله ! لكن ما علاقة هذا بموضوعنا؟

-إنه في صميم الموضوع.

- لو ذهبتَ إلى أهلي بمحَرْدة بهذا الكلام سيضحكون كثيرًا، وسيشكرونك على كلامك الجميل!

-سنتزوج. لديّ يقين داخلي يؤكّد ذلك! يا سارة، إنّ الله موجود في كل الأديان، ولأنّ البشر يختلفون في تكوينهم نراهم يختلفون في تصوّره وفهم تشريعاته، ولا يمكن جمعهم على راية واحدة، وهذا يعني حتمية الاختلاف. وعدم احترام الاختلافات بين الأديان، ومحاولة فرض الأفكار على الآخرين يعني عدم احترام النظام الإلهي الذي أرساه الله، وفطر عليه الإنسان. الاختلاف نظام إلهي! جزء حتمي وطبيعي من الوجود، ومن لم يستوعب ذلك ففي عقله مشكلة!

-هل درستَ ذلك في كتب الهندسة الزراعية؟

ضحك وصمتّ قليلًا.

كانت العتمة تتمدد، وخطواتنا رتيبة فوق الإسفلت لها وقع متكرر! وكانت وفود الأهالي تعود من بساتين الخضرة، فيقطعون حديثنا أكثر من مرّة بالتحيّات، خاصّة لوالدكِ. لحقت بنا مجموعة من الفتيات مسرعات فصمَتْنا، وقبل أن يتجاوزْنَنا. أخذنَ يضحكن ويتحدّثن بحديث سمعت بعض عباراته:

- «عود الخيزران والمحَرْداوِيّة المزيونة!».

- «هو أحلى منها».

- «تتمايل بالجينز، وتظنّ حالها حلوة. لبّسيها مثلنا، وشوفي شكلها».

قهقهة وهمس.

كان هاشم يبتسم ويتجاهل، ثم أكمل:

-يا سارة، نحن نأكل المأكولات السورية نفسها، ونغني الأغنيات الفيروزية والشعبية نفسها، ونؤمن بالخرافات والحكايات نفسها، ونحلم بذات الأحلام، فلمَ تقف الانتماءات الدينية بوجه الزواج؟ لماذا، فهي انتماءات لم نخترها؟ سوريا استوعبت كل الأديان ومزجتها بطريقتها السورية. أراهن لو أي سوري بحث في شجرة نسبه لوجد الأديان كلها تجري بدمائه. إنها سوريا!

- لو فهِمَت الأديان كما تقول لكانت أعظم وسيلة إنقاذ للبشر!

-يجب أن تُفهم كذلك. التعصّب يدل على العمى والقصور، وكل فكر متعصّب يفضح عوراته بأفعاله، ويمارس الجريمة من دون أن يعلم. يزرع الحقد والكراهية، لأنه يبني يقينًا مشوَّهًا ناقصًا. لا يعرف الشفق الإدراكي الحدسي، ويغرق في أوهام إمساكه بالحقيقة المطلقة!

اقترب مني أكثر ثم أضاف:

-أنا سوريّ وأنت سوريّة. ما يجمعنا من مشتركات أكبر بكثير من العصبيّات الدينية الضيّقة، يا سارة!

غرقت في الصمت وفي كلامه. وعلى ضوء القمر كنا نتبادل النظرات العاشقة بتناغم صامت سِرّي، لشهوة تتفجّر في داخلنا. أسرَتنا لغة الصمت، ونحن نسير باتجاه السكَن في عودتنا. وعلى

وقع الخطوات وهمسات الأنفاس اقترب مني فحرّكَتني أنفاسه الحارَّة! وفي العتمة لا أدري كيف اقترب أكثر ولمسني، فابتعدتُ محتجّة!

-يبدو أنّ كلامك خلص، وشَغَلك شيء آخر! ولم تجد حلاً للمشكلة الدينية!

- بل شدّتني رائحتك الرائعة! ثم إننا سنتزوج، أنا أصرّ على ذلك إذا كانت لديك الشجاعة!

ظننته يبالغ -يا مريم- شأن الرجال، عندما يأخذهم جنون العشق. صمتُّ ولم أعلّق، ولكنه أضاف:

-لماذا لا تتكلّمين؟ أنا جادّ. نحن في البيت ليست لدينا مشكلة. أخوال أمّي مسيحيون!

-كيف؟

-قصّة طويلة. جدّتي أم والدتي من المهجّرين الأرمن. الذين فرّوا من تركيا، وجاؤوا إلى الرّقّة أيّام «السّوْقِيّات». كانت فتاة مقطوعة، قُتِل أهلها جميعًا، وجاءت مع أقاربها، في بداية شبابها، وتزوّجها جدّي من أمي. لكن لم تجيبي. هل أنتِ موافقة؟

-عندما تقرّر لكلّ حادث حديث!

-أنا قرّرت، وجاهز بأي لحظة. ثم استدار ليواجهني، وقال: سارة، أريد الزواج منكِ، وبأقصى سرعة.

قالها، وبدأ يقترب مني! وبجرأة رقّاويّة مدّ يده، وخطف يدي ووضعها بيده فتشابكتا واستسلَمَت يدي! يده كانت حارّة قوية. أشعرَتني بأمان وبدأت أدوخ. اشتعل خدّايَ. سرى الدبيب في صدري ينحدر إلى الأسفل، وقلبي يخفق بمحبّة مشتعلة مجنونة. يخفق بكل تعابير العشق!

عدنا في العتمة على ضوء القمر متشابكي اليدين. قلوبنا تخفق، ونشتعل أكثر! لم يعد يكترث! شدّني إلى تحت شجرة كينا ضخمة على طرف الطريق. قرّب وجهه من وجهي وانسلّت يده الثانية، وطوّقت خصري، فغمرَتني أنفاسه الحارّة. انتقلت حرارة يده من وراء اللباس، فأشعلَت جسدي مثل لهب وارتخت عزيمتي. في العتمة بجانب الطريق احتضنني، ومرّر يده الثانية على خدّي وعنقي. شعرت بدوار واضطراب، فأغمضتُ عينيّ وسَرَت في جسدي إثارة مدوّخَة. راح يهمس بكلمات فراتيّة لذيذة، طعمها كالعسل تجعلني سيدة الوجود. كنت أغمض عينيّ. في حين يهمس في أذني وأتنشّق أنفاسه. طعم لذيذ لم أعرفه من قبل. سقطت المحفظة من يدي وانساقت أنوثتي تنجرف مع بركانه الهائج من دون ممانعة. كنت عاشقة مستسلمة تتوسّل بآهاتها. هنا. هنا تحت الشجرة!

تلك كانت أيام مزرعة النجاة أيام البعوض التي انقلبت إلى جنّة من الحب. والآن يا هاشم. ماذا أفهم مما يحدث؟ وماذا أقول لكِ -يا مريم- عن والدك؟ هل هو فيلسوف أكبر من صراعات الأديان والمَذاهب والأحزاب والجماعات؟ هل كل هذه الجرائم ضرورية لأجل التغيير؟ يا يسوع لماذا كل هذا الدم والخراب؟

أتذكّر تلك اللحظات الدافئة، وأبكي حظي العاثر بعد الفاجعة، ولا أعرف ماذا أفعل أمام واقعي الجديد! لو أنهم أخذوني مع هاشم! لو كنا في مكان آخر! لو! كنت تمزّقين قلبي عندما تتذكّرينه وتردّدين باكية:

-بابا. بابا!

هل تذكرين يا مريم؟

- 3 -

بعد تفجير محطّة القطار في آب من العام 2013 وهزيمة الألوية الأخرى بدأت مظاهر جديدة. الأعلام السوداء تتكاثر بصمت دون ضجيج، ومع الأيام صرت أشاهد الكثير من الملثّمين يلبسون الأسود والمموّه وينتعلون الحذاء الرياضي، وكثُرت اللافتات الإسلامية، وسرَت شائعات مختلفة. ومواعظ، وتعليقات:

«إنهم يفرضون على النسوان تغطية وجوههن! يقولون: إن على المرأة أن تحتشم، وإن الحشمة شرط العفة».

«هل نحن أهل هذه المدينة تنقصنا الحشمة؟»

«سيقيّدون خروج المرأة، فلا يُسمح لها بالخروج إلا برفقة محرم!»

سرعان ما بدأت تكثر حواجز يرفرف فوقها علم أسود، كُتب فيه بخط أبيض «لا إله إلا الله» وفي بقعة بيضاء وسطه كتبت عبارة «محمد رسول الله» بالأسود. ولم ينته عام 2013 ويحل عام 2014 حتى انتشر العلم الأسود يخفق فوق المباني كلها بمحافظة الرقة! كان يرتفع مثل كابوس ثقيل، يفرض نفسه على كل الكائنات. إذًا جاء هؤلاء ليبقوا.

جاء بعض هؤلاء من وراء البحار ومن خلف الجبال. طبيعة الرّقّة حرقت وجوههم وقشّرت أنوفهم وأيديهم. تصرفاتهم ونظراتهم وحركاتهم تثير المخاوف والدهشة. يتحدّثون بلغات ولهجات غريبة. وأحيانًا يطلبون من الشخص أن يتحدّث ببطء، حتى يفهموا. يضيّقون على الناس ويردّدون أمام كل صغيرة وكبيرة:

-الشرع، الشرع، الشرع!

أوامر صارمة لا تقبل الحوار! وتعليقات السكان المستنكرة تنزف باستمرار:

«والله هذا احتلال».

«من أي البلاد جاء هؤلاء؟»

«لماذا كل هذه الحواجز؟»

شعر الجميع أن ما حدث وما تغيّر كبير. كبير جدًا! أكبر مما يتصوّرون. ومع الأيام بدأت تُزرَع عادات جديدة! كثُرت المطاعم والسيارات المتنوعة بألف موديل وموديل. دويّ مولّدات الكهرباء أشبه بمصانع كبيرة في البيوت. لباس أسود أو مموّه قصير غريب على أهل المدينة ومحيطها. وجوه من كل الدنيا تتجوّل في الشوارع. صرت أذهب متحجّبة منقّبة، لا أجرؤ على خلع الحجاب مع أن هاشم كان يرفضه! ينظر فيّ أصحاب المحلاّت على الطريق اليومي المعتاد، فيثير ذلك وجعًا في نفوسهم. يتعاطفون بنظرات، ويشاركونني الذلّ والبؤس!

اللباس الجديد يغزو كل شيء، الشوارع والمحلات والأبنية والهواء والريف والمدينة والشجر والحجر والنهر. لباسٌ يغلب عليه اللون الأسود. اختفى السفور، وأصبح تهمة فاجرة مشينة!

انتشرت اللحى بأشكال مختلفة. قصيرة وطويلة، خفيفة وكثيفة، مهذّبة ومبعثرة. كلها من دون شوارب. الخيم السوداء المغلقة المتحركة هي العلامة الوحيدة الفارقة بين اللحى والنساء. حين تقبل خيمة سوداء مقفلة لا وجه لها ولا ملامح يدرك الناس أن في ثناياها كائنًا إنسانيًا يدعى أنثى! وحين يقبل السواد بهيئة شبح متوحّش، بشعر طويل ووجه قاتم أكلته غابة من الشعر يُعرف أنّه رجل! من يشاهد الرّقّة يظنّها بدّلت وجهها الأخضر بهذا اللون الأسود الكالح!

كأنهم من عالم آخر. لا يسمحون بالاقتراب منهم. حين نحدّثهم ونناقشهم لا يجادلون. تنعقد حواجبهم مباشرة ويتهيّؤون. وجوههم ملثّمة، كأنها تُخفي ألغامًا، لا نعرف متى تنفجر. شيء ما يدفعهم بتصميم. يغلي في دمائهم مثل النار. يترصّدون بدقة ويترقّبون أدنى هفوة أو تصرف ينافي قناعاتهم، ليبدأ التكبير المخيف!

أقفلت المدارس وتغيّرت الحياة. ينطوي الناس في الرّقّة على أنفسهم، بعدما كانوا منبسطين منفتحين. أصبحت الرّقّة مرعبة قاحلة مجدبة، تهجس بمخاوفها الليلية، وقد وقعت فريسة لمخلوقات جديدة! تذوي وتموت الأزهار فيها، ويتجمّد الدم في العروق، ويفسد الهواء. يتجوّل الرّعب في ظلام الليل مقيتًا ساخرًا، ينتشر مثل روائح جثث متعفّنة تتحرّك في الظلمة. ينتشر في الشوارع وفي الأزقة وخلف الأبواب. يتلصّص على البيوت، ويتغلغل في الأسرّة، ويجثم فوق الأغطية مثل شبح خرافي بغيض!

زرت أعيان الأرمن أخوال عمتي خديجة بإيعاز من الخوري وبيت الخواجة! وقد تفاجأت لمّا أخبروني بأنهم طلبوا منهم دفع الجزية أو الرحيل! وازداد خوفهم بعد تفجير الكنيسة!

عندما ذهبت لأزورهم لاحظت امرأة طويلة تسير ورائي. سمعت بطريقي وقع خطوات، والتفت فإذا هي ورائي بمشيتها وهيئتها المعتادة! هل تتعقّبني وتتجسس عليّ؟

مررتُ على محل يبيع الأدوات النسائية، وقد حلّت فيه امرأة محلّ البائع السابق، بحسب القوانين الجديدة. فوجئت بأن هذه المخلوقة الثقيلة دخلت ورائي إلى المحل! وصارت تهمس في أذن صاحبته! ثم نظرت الثانية إليّ بطرف عينها! لغط وهمهمة، ونظرات! الحديث يدور حولي! انضمّت إليهن ثالثة. ينظرن كالمتآمرات نظرات معادية متّهمة. قالت صاحبة المحل بصوت هامسٍ كأنه فحيح أفعى:

-هذه القحبة النصرانية عادت لأصلها. هي تتردّد على بيوت المسيحيين الأرمن!

ذهلتُ وخفت. كنت ذليلة وحيدة يتيمة! أحاول التخفي وراء عباءتي. تحذيرات بيت الخواجة والخوري لم تكن وهمًا. وهل تحوّلت رقة هاشم إلى كل هذا العداء؟

لم ينته المأزق. تقدّمت صاحبة المحل مني وهي تحدّق بي. وقفت بجانب الطاولة، واتكأَت بكوعيها تنظر نحوي نظرات كأنها تقول لي.

- «انقلعي من هنا!»

رفعتُ رأسي وتأملتُ وجهها. يا للعجب! إنها هي، عرفتها من عينيها! سُمعتها معروفة، عملَت في صالون نسائي سابقًا وطردوها، وعملت في ملهى ليلي وطردوها، لأنها سرقت صاحبه! عرفتُها! لم تقدّم للعالم سوى العهر والفساد والروائح الكريهة. إنها هي! تحدّق بي، تترقب كضفدع يتربص بفراشة. بالأمس كانت مشبوهة، واليوم

تحاول إذلال زوجة المهندس هاشم الحسين.. نسيَتْ من هي؟ ولم تشاهد إلا القحبة النصرانية! فهل التوبة تغيّر مسالك البشر بهذه الصورة السريعة؟ لله في خلقه شؤون كما يقول هاشم والدكِ، يا مريم!

***

يستقبل الناس الوضع الجديد بمشاعر متباينة تتغيّر بتغيّر الوضع. على الحاجز يثيرون الرعب في الهواء. تصفرّ الوجوه وترتجف الأيدي والرُّكَب. الجُبن الفطري، حين يصيب الناس عادة في لحظات الخطر ينكمشون. يتلفتون حائرين خائفين، وتنطلق الهمسات من الصدور:

«يزداد عددهم كل يوم، والله كرّهونا حياتنا».

«حاصرونا وسوّدوا حياتنا مثل ذبّان الخيل!»

«الرقة التي عاشت بحضن الفرات آمنة، لم تكن بحاجة إلى كل هذا الحشد من الوجوه الغريبة.

يجلب الناس بعودتهم إلى البيوت قصصًا وحكايات ومفارقات مضحكة مبكية وأحاديث ومواقف مزعجة.

عبارات وأسئلة محتجّة كثيرة يتداولها أبناء الرّقّة الأصليّون. ومع الأيام ضاقت الرقة. تأتي الجارات ويتحدّثن مع عمتي بصوت هامسٍ ويرتجفن:

«بعد أسبوع سفرنا. لقد قرّرنا النزوح».

«أبو طاهر أخذ بيت باللاذقية. العيشة بالرقة صارت مثل الموت».

«الساحل آمن. كل الرقّاويّة من معارفنا صاروا هناك. تنزحون معنا، يا أم هاشم؟»

نزفَت جروح عمتي من جديد:

-كيف أنزح، ومصير أولادي مجهول؟

في تلك الفترة تغيّرت جلسات عمتي، تحوّلت إلى مآتم متكرّرة، وحين تكون وحيدة تبدأ تراتيل الألم الرّقّاوي:

«يا شَايْلِيْنَ النّعَشْ.. يا اهْلَ المْرُوّة وْجَاي

خَلُّونِي اوَدّع الوَلَد.. اِبْرِيْح الْمِسِكْ وانْعَاي»

تستطيع عمتي خديجة أن تبيع محلاً واحدًا من محلات نمتلكها، أو أن تصرف بعض المدّخرات من الذهب، وننزح إلى اللاذقية أو طرطوس! ولكنها قالت حين كرَّرَت أم طاهر عليها العرض:

-أموت بالرقة عند ناسي. كيف أبعد عن هاشم وبشير وقبر أبو هاشم؟

-معك حق يا عمتي. وأنا أنتظره هنا مهما فكّرت بالنزوح.

كيف أنزح-يا مريم- عن ذلك المكان الذي عشقته وشهِدَ أجمل أيام حياتي. كيف أنزح عن المكان الذي انقلبت فيه نفسيتي فراقَت لي حياة المزرعة بعد أن كنت أكرر الاتصال بعمي جورج بالشام وأبكي:

-عمي كرهت حياتي انقلني بأي وسيلة.

-يا سارة، أُقدِّر ظروفك الصعبة. وَعدٌ مني، بعد الفصل الدراسي الأول تكون الأمور منتهية!

-يا عمّي الحياة في مزارع الدولة صعبة لا تُطاق. مستعدّة للخدمة بريف حماه الشرقي، حتى أظل قريبة من محَرْدة، وأطمئن على أبي. يا عمي أرجوك!

- يا سارة يا بنتي. خدمة الريف لا بد منها. والله ما تركت مسؤولاً إلا طرقت بابه في العاصمة.

وأُكرّر اتصالاتي وألحّ عليه. ولكن بعدما بدأت أنشغل بهاشم خفت اتصالاتي، وكان طيف هاشم وراء التراخي في طلب النّقل!

-هل يحبني حقًا؟

أتساءل أمام هدى في حين تضحك وتعقّب:

-أنت أحببتِه. نحن النساء لا نثق. الرجل إذا أحبّ يكمد ويصمت مهما تألَّم. أما المرأة فإنها تجن. وأنتِ جُننتِ!

صمتُّ. بدأت أدرك أن ريح الفرات أخذتني وصرعتني. اقتنعت أن عطر هذا الفراتي جزء من تكويني. اقتنعت أن رائحته قَدَري ومصيري. تسري في روحي بصمت. حبّه جعلني أكتشف جمال الطبيعة الفراتية وأسرار الكون، وأرتقي في محبّة يسوع!

-أعرف أنكِ تحبينني. تتلفّتين كلما مررتُ من جانبك، مثل من ضيّع شيئًا.

يقول والدكِ، ويعقّب في ضحكة ممطوطة:

-أفكّر فيكِ ليل نهار، وأقول لمن حولي: سوف أتزوجها. يضحكون ويرثون لحالي أحيانًا!

كنتُ -يا مريم -لا أستطيع مقاومة عشقه، طارت سيرتنا في المزرعة من بيت إلى بيت، وعلى كل لسان:

«الأستاذ هاشم يحب الآنسة المحَرْداوِيّة المزيونة».

«عود الخيزران عشقان. الله لا يهنيها. أخذته منّا!»

«المحَرْداوِيّة المزيونة جنّنت مدير المزرعة. يلتقي بها في بيت أم حميدي».

- «لا، لا، يلتقي بها في بيت المهندس صبحي».

بعد ذلك اليوم الذي انتهى تحت شجرة الكينا طلبتُ منه أن يمشي معي أمام الناس لا أن يلتقي بي في بيوت الأصدقاء. وافق مباشرة! صرت لا أبالي وكل شيء في وضح النهار، وكأني أمشي في محَرْدة. ولكن الحاجز الديني كيف نتجاوزه؟

ذهبت إلى محَرْدة في نهاية ربيع 2004 لهذا الغرض خاصّةً، فبادرتُ بمفاتحة والدي وعمتي ليلى. يومها فجّرتُ قنبلة!

موضوعي تحوّل إلى قصّة نادرة مُستغرَبة في محَرْدة وريف حمص ووصل إلى طرطوس والشام. تحوّلت قصّتي إلى ما يشبه الفضيحة. طُرفة تتندَّر بها الأفواه وتردّدها ألسن الفضوليين. لم أتمكّن من إقناع والدي ولا عمتي ولا عمي ولا أحد من أهلي وناسي.

«سأعتبركِ ميّتة، وكأنّي ما خلّفتك.

أنت إذا تزوجتِ من هذا الرقّاوي فلن تراك عيني طيلة حياتي يا عمتي!

ستعيشين غريبة طول العمر.

العنوسة أفضل لك.

أولادك سيضيعون.

هذه سابقة خطيرة، ما في بنت فعلَتها من بناتنا!

يا سارة، الزواج من خارج الطائفة يعني أنك متّ. لن تعودي بيننا!

إذا قمتِ بهذا الفعل هجرتِ الطائفة وأهلك إلى الأبد!

سيأتي يوم وتندمين، انتبهي!

واو! أنت جريئة. هل ستفعلينها؟ أنا لا أتجرّأ!

احكي لي عن حبّه. يحبك كما تحبّينه؟».

أستشير صديقتي في فرنسا رنا شلهوب. تراوغ. لا تعطي إجابة واضحة! كم تمنيت لو كانت أمي حيّة لتساعدني! لماذا يا يسوع أعيش آلام الحيرة مع أب مدمن لا يصحو طول الوقت. يتيمة الأم. لماذا أرفض فإعود لأعيش في بيت بائس؟

أعود إلى مزرعة النجاة. يشدّني الرقّاوي. يدوّخني بكلماته. بأنفاسه وبعشقه! بقيت في دائرة الخوف والتردد طيلة الفصل الثاني. وأخيرًا توصلت إلى قراري: سأتزوّجه.

يوم الجمعة 16 تموز 2004 كان يوم زواجنا. تزوَّجنا بصمت، بعيدًا عن الأهل وبلا احتفالات. ذهبنا إلى المحكمة في طرطوس وكتبنا الكتاب، بعد أن رتّب المهندس صبحي الأسعد صديق والدكِ كل شيء. يومها فضّل هاشم بحر طرطوس، فضّل أن نتزوّج في الشاليه على الزواج في الرقة.

-سأكسر العادة. ليس في اختيار العروس فقط، بل حتى في طريقة العرس.

-أحب التعرّف إلى أهلك، يا هاشم.

-لاحقة.

تقول عمتي خديجة:

-لما قرّر الزواج كنا أنا ونوريّة وبشير على علم، وكنا نترقب شوفتك، يا سارة.

تزوّجنا. عشنا هانئين سعيدَين، أيامنا تمر كالأعراس، قصيرة ولذيذة. نبعٌ من نور وأحلام تغسلنا محبّةً.. لحظات شعرية تجعل للحياة طعمًا حلوًا جديدًا. لحظات من اللذة تمور في أجسادنا، وتموج

كالأنغام في أرواحنا. أذوب حنينًا إلى تلك اللحظات، لأبلّ الصدأ، يا مريم!

لما ذهبنا إلى أهله بعدما تزوجت، وعبرنا جسر الرّقّة وكان يضع أغنية «عيني على الغرّبو». أخذتني النشوة، أعجبني اللحن والصوت، وبدأت أهتزّ وأتمايل!

-تفهمين الكلام؟

-لا لكنّ اللحن حلو. ترجم لي!

يُترجم لي أبوك:

-فتاة عينها على جماعة اتجهوا غربًا، ولكنها في داخلها تراقب واحدًا منهم فقط، وهو عشيقها الذي يلبس القظاظة.

ونضحك.

-لكن نحن نتجه شرقًا.

ومدّ يده ونحن نعبر فوق الجسر، وقرصني. بادلته القرصة بقبلة، في حين كانت أسراب الحمام تلعب في السماء فوقنا من الرّقّة وإليها. ويهتزّ الفرات تحتنا كعاشق يحثّ السير نحو الشرق.

حياتي مع والدك كانت ممتعة جميلة، محبته لي مثل قطرات الندى حين تسكبها الغيوم على البراعم والزهور. تُجدّد شبابي كلّ يوم. حياتي معه أسراب فراشات ربيعية وعصافير. ظلال ونسيم. أغنية لم تكتمل. لحن سوريّ شقيّ، ابتدأ بلحظات العشق في مزرعة النجاة، واستمر يعزف طربًا وجنونًا حتى انقضى بمأساة. مأساة الله وحده يعلم متى وكيف تنتهي.

حين تزوجت من والدك تعلّمت العادات الفراتية، حتى أكلة «الكْلال» تعلمت صناعتها على يد عمتي خديجة، وظننت أن محَرْدة

تبدّدت من داخلي إلى الأبدّ. بدا لي أنها تتخفى وتتلوّن بثوب الرّقّة. الثوب الفراتي العذب! طبخت لهم الأكلة المشهورة بمحردة «الصّاجيّة» وقد أعجبتهم، فكنت أطبخها كل شهر تقريبًا، بطلب من عمتي خديجة!

-صرتِ محَرْداوِيّة بنكهة فراتيّة!

يعلّق والدكِ. وذات مرة سألتُه بعدما بدأت الاضطرابات في البلد:

-هل أنت نادم على الوظيفة الجديدة؟

فأجاب بارتخاء:

-لا أدري. تدرّجنا -يا حبيبتي- بالوظيفة، في زمن مخيف، قد يقودنا إلى الجحيم!

ضحكت الأيام لوالدك حين تزوّجنا. انتقل إلى مديريّة الزراعة في الرقة، وعُيّن بمنصبه الجديد. وحين صرتِ تمشين عام 2009 وتناغين وملأت البيت حياة وسعادة! اقترحتُ عليه.

-سنوصي على أخ لمريم.

-على مهل. على مهل!

هذا الوقت مخصّصٌ لمريومة. كان يغدق عليكِ -يا مريم- حبًا يجعلكِ أميرة البيت كله. كل طلباتك مستجابة. يضحك عندما تعترض عمّتي خديجة على ما تراه دلالاً مفرطًا. لا يغادر صباحًا إلى عمله من دون عناقٍ منكِ. وحين يعود والدك تتحرّك يداك. ترفرفان مثل جناحَيْ العصفور. ضاحكة مرحّبة ثم تتعلّقين به. يحضنك ويمضي إلى عمتي خديجة في المطبخ أو في المضافة. بقيتِ متعلّقة بساعة مجيئه إلى البيت حتى بعدما صرت تداومين في الروضة. ألا تذكرين؟

والدكِ كان عمود البيت. إنه رجلٌ مسؤول، وله مكانته واحترامه في المدينة كلّها.

في ظل العهد الجديد تغيّر كل شيء، يا مريم. حتى مفهوم الوجاهة تبدّل. لم يميّز الحكّام الجدد بين القوم. خلطوا عباس بدرباس، فهاجر الأعيان والأطباء والمحامون!

يطبّقون فهمهم الخاص، ويطوّعون الكبار قبل الصغار، يعتقدون أنهم بأفعالهم يفتحون باب الجنّة، وأنهم جاؤوا بمجد وخلاص من العبوديّة! كأنّهم ينوون أن يستعيدوا أمجاد الصحراء والزمن الأوّل. يتخيّلون الرّقّة في القرون الأولى، بحاجة إلى خيول وسيوف ولحى ودروع وعمائم! يتحدّثون عن انطلاقتهم من الرقّة إلى أماكن كثيرة. لا يقرّون بدُوَلٍ ولا حدود جغرافية.

بعض المتسكّعين كانوا فيما سبق كالحشرات التي تدبّ في الظلمة، وتخشى نور النهار كيلا تدوسها أقدام الأقوياء. مع الوقت أصبحوا من المطبّلين لهم، بل ومن المخلصين والحرّاس الأوفياء! تتعالى حناجرهم بهتافات حماسية دينية لا تناسب مع سيرتهم وتاريخهم، فيتحوّل ضجيجهم إلى مفارقات مضحكة. مفارقات تذكّرني بترداد الشعار الصباحي من طلبة جبناء خائفين!

ساد شعور لدى الرقّاويّين بأنّ الحكّام الجدد سيُغيِّرون كل شيء في المدينة. سلطتهم قد مَحَت من الوجود أمكنة الدولة المعهودة، وغيَّرَت الأسماء والمفاهيم، وقلَبَت المعايير، وكادت تُغيِّر حتى لون الشجر الأخضر!

شأني شأن كل امرأة في الرقة، حين أخرج ألبس عباءة فضفاضة مغلقة من الأمام، من دون إكسسوارات، كما يشترطون، تجنبًا للفتنة!

وأرتدي فوقها النقاب أو ما يسمّى بالدرع، وأنتعل حذاء بلا كعب. كان هذا الحذاء النسائي نادر الوجود، وبفضل معرفتنا بمحل محفوظ لتصليح الأحذية تمكّنا من الحصول عليه منذ البدايات، ثم شاع في كل المحلاّت، واختفت الموديلات الأخرى!

إذا أخطأت المرأة ورفعت العباءة، وبان البنطال فالويل لها من عقوبة الجلد، وكأن المرأة لا تصلح إلا للتخلص من الشهوات المحبوسة في داخلهم.

حين سيطروا أدهشوا الناس بأفعالهم. يتحرّكون بأوامر خفيّة، يربط بينهم حبل سرّي. يتغذّى بالقتل والدم والتكبير! حدثت تصفيات أرغمت السكان في بعض الأحياء والبيوت على الاختباء خوفًا على أرواحهم. كانت مراكز القوى الأخرى مستباحة. من هرب نجا، ومن قاوم قُتل وفجّروه بمركزه، أو أخذوه وقطعوا عنقه، أو أخفوه. الأرض ارتوت بالدماء، تتوالى الجثث في موكب دموي فظيع يفوق الخيال! دوّار النعيم تحوّل ساحةً لذبح البشر وقطع الرؤوس، حتى تصبّغت الأرض، وتغيّر لونها!

ينبشون تاريخ المجتمعات، يلبّون شكاوى لثأرات مضى عليها زمن، ليقيموا حدًّا يفرضونه بالسيف. هرب الكثير من عائلات الرقة! بدأ الشباب يختفون ولا أحد يعرف أين يذهبون! الأحاديث تدور في الظلمة:

«خائفون، أو التحقوا بتنظيمات سرّيّة أخرى ضد داعش، لم يحتملوا العيش تحت رايات سوداء، تذكّر بأساطير الأوّلين، وسموم الربع الخالي».

«جنّدتهم داعش، وأرسلتهم إلى جبهات أخرى بعيدة في العراق، أو في دولٍ أخرى».

«الكثير منهم يلتحقون بقوّات الجيش السوري».

في الليل وراء الجدران يحلم الناس باستعادة الحياة. يحاولون الغرق في بهجة افتقدوها. تتحرّك الشهوات وتعود مباهج الحياة مطمحًا إنسانيًا مشروعًا. تئزّ مغرية جارحة متفجّرة وراغبة في أن تفعل وتتفاعل. كل شيء في الرّقّة يحلم أن يستعيد الحياة، ويحاول أن يصنعها في الظلام بسرّيّة مطلقة!

مسكينات النساء، يا مريم. تستيقظ الحياة بداخلهن. تشتعل الغرائز النائمة المحرومة في الليالي، مثل النباتات العطشى حين تتهيّأ لندى الليل. يغالبْن الخوف، يتخيّلن، وتتكاثف الظُلمة فتسقيهنّ الرّعب مثل السمّ. تحتبس الآهات في الصدور بعيدًا عن الشمس، في الظلمة والهواجس تتأوّه الحياة في النفوس، ثم تختنق وتذوي وتذبل، لتموت بأنينها المكتوم!

تفجّر بعضهن الشهوة في العَلَن. وحتى لا تقع تحت عار الجلد تضع الشال الأبيض على الكتف، إشارةً إلى طلب العريس بحسب الشروط الجديدة!

ذات مرة شاهدت أم حسّان شخصيًّا وسمعت صوتها، كانت تمشي بصحبة نسوة وكان همس وغمز يدور حولي. هي امرأة طويلة صوتها يشبه صوت رجل عانس شاذّ! وهي معروفة في الرقة. حقودة معقّدة مشبوهة تحفر في صخرة قلبها أصغر الشتائم لتردّها بلؤم. كانت تنظر في النساء الجميلات وأطفالهن نظرات حاقدة لئيمة. لا كما تنظر كلبة جرباء إلى غزالة، وإنما كما تنظر كهلة قبيحة منبوذة جفت بداخلها ماء الحياة إلى عروس جميلة محترمة محبوبة!

وبينما انهمك الشعب يتصارع على ربطة الخبز ورمق العيش كان هؤلاء يتربّصون في الشوارع لعلهم يظفرون بعاصية سافرة، أو بعاص مدخّن، ليصفعوه بعار الجلد أمام العامة!

من أيّ عصر خرجَت كل هذه الكائنات الغريبة، ومن أيّ خرابة؟ السواد يطاردني ويحاصرني كيفما توجّهتُ. ضعُفت يا مريم. ما عدت قادرة على تحمّل الإهانة والذلّ. كانت الإهانات مضاعفة عليّ. أنا النصرانية. صارت فكرة الخلاص من هذا الجحيم تضغط عليّ. أريد الهروب. تبدّلت الرّقّة بنظري وأصبحت مليئة ببراميل الموت والرؤوس المقطّعة واللون الأسود.

صرنا أنا وعمتي خديجة امرأتين منسيّتين. مصاب الناس أكبر من الاهتمام بنا! في الليالي، حين يشتدّ بي الحنين في الوحشة، أقلّب الصُّوَر. أبحث عن شكلي بين الأوراق القديمة، كأني أبحث عن والدكِ، عن هاشم! أمنّي النفس بعودة الحياة إلى الرّقّة كما أسمع في الأخبار. أؤكّد تلك الشائعات، وأقول في نفسي: إن تصديق الشائعات يساعد على مقاومة الموت!

تثور الحياة في داخلي. لا جدوى من التردّد. هل وهبنا الله نعمة الكرامة لنتحمّل الذلّ والخوف؟ وهل منحنا الحريّة، لنرمي بها في جحيم القيد والظلام؟ لا يضحي بحريته عاقل. لا يضحّي بها مؤمن أليس كذلك يا هاشم؟ لا بدّ مِن الخروج من جحيم الظلم والذل والخوف. نعم لا بدّ من ذلك! بدأت فكرة الهجرة تطرق رأسي يا مريم، وليس أمامي إلا إقناع عمتي، ولكن كيف؟

-يا عمتي الوضع صعب كما ترين ماذا نفعل؟

نظرَت إليَّ وضمَّتْكِ -يا مريم- ووضعت يدها على رأسك:

-يا بنتي، هنا أرحم لي من الهروب والنزوح.

-يا عمتي الواقع سيّئ.

تجهّمت، ورفعت يدها اليمنى تضم كفها، وتمدّ سبابتها:

-لو موّتوني مخنوقة بالنهر، لو سحلوني ورموني على طرف الفرات وقطّعوني، لو قتلوني وتركوني عارية تنهشني الكلاب الضالّة مثل الفطيسة ما أنزح يا سارة، أبو هاشم بقبره ما يرضى. يعتبرها خيانة لا يا بنتي، لا

ثم غصَّت ومسحَت دموعها بمنديلها، فخجلتُ منها!

- 4 -

أخرج مع عمتي خديجة ووائل زوج عمتك نوريّة. نمشي مكبّلين بذلّنا. أتأمّل البشر. بوجوههم البائسة من حولي. تتلوّن الوجوه. لكني لا أحتاج لتخمين القصص التي تختفي وراءها، فكل وجه بنكبته يبوح!

يُرعبون الناس. يمارسون أقصى القسوة، ويطبّقون قوانين صارمة على الجميع، هل كانوا يدركون أنهم حوّلوا البشر إلى قطيع بائس؟

ينهض الناس إلى أعمالهم صباحًا، يتلصّصون خائفين، مثل قطعان خرجت من عفونة راكدة إلى الفلاحة!

ذات يوم من شتاء 2014 وكان يومًا ثقيلاً جاءت فيه قاصمة الظهر. طرقٌ على الباب منذ الصباح. طرقات رتيبة مدروسة. حين فتحت مختبئة وراء الباب:

-نعم؟

- السلام عليكم. أم هاشم الحسين هنا؟

وضعت الغطاء، ثم فتحت الباب. شاب بلحية خفيفة يرتدي الأسود، ويتحدّث بلهجة رقّاويّة، يغض بصره وينظر جانبًا وإلى أسفل.

-نعم؟

-أريد الحديث معها.

فجأة رأيت عمتي تدبّ حافية ورائي، وتضع النقاب على وجهها، كأنها تنوي الخروج:

-خير يا بني، أنا أم هاشم.

-هذا اللباس لابنكم أنا مؤتمن بأن أوصله لعندكم. كان في جيبه هذه الميدالية، وهي من ذهب.

تناولها الرجل ورفعها فبانت كاملة. كنت قد أهديتها له يوم الزواج! نبضات قلبي تدقّ في عروقي. يا يسوع ما هذا؟ عمتي خديجة تيبّست أصبح وجهها مثل بحر طرطوس عند الغروب يتموّج بألوان بين الأحمر والأزرق والأسود. فتحت فمها كأنها في كابوس. الرجل بقي جامدًا وكان هواء خفيف ناشف بارد يضرب الأشجار، ثم قال:

-هذا لهاشم، وأبلغوني أن أوصله لعندكم!

-وهاشم؟

-أبلغوني توصيل هذه الأشياء، وتسليمها لأم هاشم. خديجة خليل الشلاش. ليس عندي ما أضيفه!

بقينا على الباب مشدوهتين. كرّر الرجل كلامه، وهو يمد يده باتجاه عمتي.

مددتُ يدي وتناولتُها بيد راجفة! في حين كانت عمتي تستجدي عيون الرجل بأن يبوح بأشياء أخرى.

-يا بني، الله يوفقك. هاشم ابني؟ ميّت، طيّب؟

- قد يكون في السجن، أو... الله أعلم.

وحين أدار ظهره أمسكَت به، وجثَت المسكينة على ركبتيها:

-الله يخلي أهلك. أنت رقّاوي مثل ابني... أريدك تخبّرني عنه!

-يا حاجّة، تعليمات

-يا بني، الله يخلّيك بصحّتك ويخلّيك لأمّك، ويحميك!

-لا أعرف. قد يكون في الحبس إذا لم يَقتُل، أو يكفر، أو يتعامل مع الأعداء الكفرة.

-واللباس والميداليّة؟

خلّص الرجل نفسه، وبقيت عمتي جاثية على ركبتيها أمام الباب! تحوّل الصباح إلى مأتم. نثرت اللباس مع العويل. أبحث عن بصيص أمل. عن هاشم. ليس أمامي إلا لباسه وميدالية الذهب. والدموع تكوي عينيّ.

أتذكرين -يا مريم- حين رأيتِ الميدالية؟ ألا تذكرين حين شاهدتِها؟ كيف كنت تصارعينني عليها. وتكرّرين.

-بابا. بابا!

ثم تغيّر وجهك فجأة، وازرقّ لونك، وارتعدتِ وبكيتِ ورميتِ نفسكِ بحضني، وأخذت ترتجفين وتتشنّجين! هل تذكرين؟

عمّتي خديجة كانت تتشمّم اللباس وتشهق وتبكي. تنظر إلى اللباس، وكأنه هاشم تخاطبه وتشمّه. قالت كلامًا كثيرًا، بدأ بنشيج ثم تحوّل إلى نواحٍ وعويل. تبثّ أوجاعها المحبوسة! انضمّت لعمتي بعض الجارات، وبدأت تراتيل الموت في شارع المنصور، في بيت هاشم الحسين!

«مِنْ كُبُرْ بَاسِي أَلاشِي النّاسْ باحْسَاسي
أَجْمِي اِبْكَلْبِي الكدَرْ افْرَاكَ الْوَلَدْ جَاسِي»
وتُكمل وتعيد

صارت عمتي خديجة في كل مناسبة تُحوّل الجلسة إلى مأتم،

أحيانًا تستعرض الماضي، وأحيانًا تخلو لنفسها بغرفتها. أراقبها تستخرج صورًا. ملابس لأولادها. تسترسل وتغمغم. تبعث من قيود ذاكرتها مناسبات مجد راحل، تنظر كأنها تستعرض كل ذلك أمامها، وتبكي بصمت! أضع أمامها الشاي، وبعد فترة أجدها صامتة تتأمّل في الفراغ من دون أن تشرب رشفة واحدة.

صارت عمتي خديجة لا تفكّر إلا في الأشياء الحزينة، كأن لم يكن بداخلها ما يكفيها من الحزن. تمشي في البيت أحيانًا، أو تجلس على الأرض، وبين يديها ثياب أولادها، تشمّها، وتقلّبها. تنثرها أمامها، وتنفلت دموعها المحبوسة. تعبت عمتي في الفترة الأخيرة!

-يا نوريّة عمتي تبكي كثيرًا وساءت حالتها

-يا سارة صعب عليّ أن أجيء كل يوم. صعوبة الخروج ومشاغل البيت والأولاد.

-محتارة ماذا أفعل، يا نوريّة؟ عمتي خديجة الليلة الماضية ما نامت.

-ديري بالك عليها، الله يوفقك! وطمّنيني كل يوم.

*

للقدر أفعال خارج حساباتنا، في هذا الوضع المليء بالألم والظروف الصعبة الجديدة تعبت عمتي خديجة أكثر. في الماضي كانت تنظر نظرة شيخ أو حكيم، ترى في أعماق الأرواح ما لا يعرفه الناس. أما الآن فنخروا عقلها وزرعوه رعبًا ومخاوف. الخيالات الكئيبة تتصارع في رأسها. تبني صورًا مفزعة لأولادها. ظل واقع الرّقّة ينخر في قلبها وعقلها حتى سلبها مداركها!

تنظر إليكِ –يا مريم– إلى جدران البيت. إلى كل شيء. نظرة بطيئة فارغة خالية من المعنى! تغيّرت وفقدت رجاحة عقلها وحِكمتها. تخرج غير واعية فيبادر الجيران إلى تهدئتها وإدخالها الى بيوتهم، أو يدخلونها البيت، في الشارع تندب وتنوح.

تلهج بأسماء أولادها دائمًا. لم تعد تبالي، تمشي وتلعن الحكّام الجدد، ثم تكرّر:

-هاشم. هاشم يا بعد أمّك. بشير طوّلت يا بني!

وحين تتحرّك في البيت تسير في أرض الحوش كالمخبولة دون هدف! تدبّ على رجليها ببطء، كأنّها لا تمشي بل تزحف. جسدها عليل ينزف الحياة بسرعة فظيعة!

بدأت أشعر بخطورة وضعها. حركتها بطيئة متعثّرة إلى درجة أنها صارت تنام أحيانًا في المضافة! جسمها لا يساعدها على صعود الدرج إلى غرفة النوم!

تأتي عمّتكِ نوريّة، تبقى يومًا أو يومين، وتعود إلى بيتها. تأمّلتُ عمتي خديجة لمحتُ زُرْقة تتشكّل حول عينيها، واحمرارًا يغطّي البَياض في العينين، التصبّغات قويّة تُلفِت النظر!

أحيانًا تستعيد شيئًا من الحياة وتضحك. تجلس وحيدة في مكانها المعتاد، تتأمّل الباب، مثلما كانت تفعل حين كانت تنتظر هاشم أو بشير!

قمتُ صباح الخميس في نهاية شباط من العام 2014 وجدتُ عمتي، التي أحيت الليل كله تصلّي، وجدتها تضمّك– يا مريم– وقالت لي، وكانت متعَبة:

-سارة بنتي. أريد نوريّة.

-خير عمتي؟

-أريد نوريّة.. وانتبهي. هنا في هذا الجدار وراء خشب الباب خزنة صغيرة هذا مفتاحها فيها الذهب. هذا الذهب لأولادي. وإذا ما رجعوا فهو لكِ ولمريم!

أحسست بغصّة وخفت!

-الله يطوّل عمرك، يا عمتي! بعيد الشر!

بدَت عمتي واهنة متعَبة، كأنها تودّع. أخذَتْها حُمّى شديدة، وهي جالسة ثم اشتدّت الحُمّى عليها. استلقَت وبدأت تهذي:

-هاشم قلبي. نوريّة. بشير!

كانت تهذي وتهذي وتردّد:

-هاشم، يا قلبي يا هاشم!

كنتِ تنظرين في جدتك قلقة! وببراءة الأطفال حملتِ كيس الدواء وقرّبتِه منها! هل تذكرين، يا مريم؟

عند الغروب تعبَت عمتي خديجة، طلبَت ماءً وشربت، وكنتِ بجانبها على السرير، أشارت بيدها لكِ حتى تقتربي أكثر. وضعت يدها على وجهكِ وقالت:

-هاشم. يا بعد قلبي يا هاشم. يا بشير.

ثم دخلَت في إغفاءة أو غيبوبة! كنتُ خائفة، اتصلت بنوريّة:

-يا نوريّة، عمتي وضعها ما هو طبيعي. أنا خائفة!

-سارة -الله يوفقك- ديري بالك عليها، زوجي تعبان اليوم. بكرة الصبح أكون عندكم وأبقى، حتى يتحسّن وضعها.

سحبتكِ من حضنها. أراقب. أسمع عمتي خديجة تئنّ وهي نائمة، وكأنها تتكلّم أحيانًا، أو تبكي بصوت خافت واهن!

لحظات فظيعة مرّة قاسية بطعم الصخر! لا أعرف كيف سهوت بجانبها في غرفتها معكِ. وبعد غفوة يبدو أنّها امتدّت لأكثر من ساعة تحرّكتِ -يا مريم- في حضني. فتحتُ عيني. كانت الساعة الواحدة ليلاً. نظرتُ إليها. كانت تسند رأسها على طرف الوسادة، كأنّها تصلّي، وتميل قليلاً إلى جهة اليمين.

-عمتي خديجة. عمتي خديجة!

تبدو واهنة متعَبة، كأنها كانت تؤدّي أعمالاً شاقّة. تغمغم:

-هاشم. مريم. مريم. مريم.

كررّت اسمك ثلاث مرّات! وأخذت تردّد مقاطع مولية مبتورة اللحن.. ثم اختفى الصوت كأنّها نامت. انتظرتُ وانتظرتُ. تتنفس برتابة. وغالبني النوم، فقمتُ إلى غرفتي معكِ، يا مريم!

نمت ولم أسمع شيئًا. في الصباح تحركتِ بجانبي، فاستيقظتُ، وتفوَّهتِ- يا مريم- ببعض الألفاظ، كان صوتك فيه شيء من صوت عمتي خديجة! قمت من نومي، لم أستيقظ على حركة عمتي. قمتُ ونظرت في الساعة. كانت تشير إلى السابعة! يستحيل أن تبقى عمتي خديجة نائمة لهذا الوقت!

دخلت غرفتها. سكون عميق. عمتي تجلس في هدوء تعّبدي، عباءتها مَطْوِيّة عند رأسها. حملتُ العباءة وعلّقتُها. فاحت رائحة عطور العودِ والبخور. بين يديها قميص كحليّ لهاشم كان آخر قميص يلبسه!

وجدتُ عمتي ساكنة كأنّها مياه راكدة. صامتة صمتًا مطلقًا. خفتُ! شعور غريب رهيب جديد يطغى على المكان! الرهبة في نفسي تزداد! خفتُ واستبعدتُ المكروه! اقتربت، وخوفي يطبق على عزمي:

-عمتي خديجة. عمتي خديجة!

جسدها ساكن كالجماد. كانت القطة بجانبها تموء بحدّة! وصوت هديل الحمام فوق البيت كأنه نواح يشبه نواح عمتي خديجة! ناديت:

عمتي، عمتي، أم هاشم!

لم ترُدّ. القميص بين يديها! تجرّأت ومددتُ يدي، لمست وجهها، كان جامدًا باردًا. ولما رفعت يدها تفاجأتُ أنّها باردة، فارتعبت. عيناها مفتوحتان، وكأنها تحدّق إلى أولادها في جهة أجهلها! صرخت إذ عرفتُ أن عمتي خديجة قد ماتت!

واندفعتِ ورائي -يا مريم- تصرخين وتصرخين عبر المدى المفتوح. ترحل صرخاتنا ويتردّد صداها في سماء الرقة، قبل أن يبتلعها سكون الصباح!

التمّ الجيران وانتشر العويل في بيت أبو هاشم. وبكثير من الألم دفنوا عمتي خديجة بجوار قبر عمي أبو هاشم، ولما زرت القبر بعدما ذهب الرجال كنتِ معي -يا مريم- ألا تذكرين؟

يومها قرأت عليها قدّاسي، وقرأت سورة الفاتحة والمعوّذات وترحّمتُ عليها ودعوتُ لها، وكنت حفظتُ السور والأدعية، لكثرة ما سمعتها منها. وقلت لك يا مريم:

-قولي. يا ألله رحمتك.

وكررتِ ورائي: يا ألله رحمتك.

-قولي: يا محمد شفاعتك!

-يا محمّد شفاعتك!

-قولي: يا يسوع رحمتك.

-يا يسوع رحمتك.

ثم دعوت:

-اللهم أحسن إليها وسامحها وادخلها فسيح جنّتك!

وعدتُ إلى البيت، بعدما ابتلع الظلام بسواده الحالك آخر ضوء لي في محافظة الرقة! كانت -عليها الرحمة- مثل شجرة سرو عملاقة من أشجار الفرات!

اقتنعتُ -يا مريم- أنّ كل شيء له قيمة في حياتي يتبدّد من بين يديّ. ولم يعُد بإمكاني القدرة على المواجهة، فالقَدَر يسوق الأمور مَسَاقًا مختلفًا. أصبحتُ كصاحب محصول جَمَعه بعد الحصاد، ثم جرفه السيل من أمامه، ولا حول له سوى مراقبة السيل وهو يجرف ثروته وثمرة تعبه نحو المجهول.

- 5 -

عاودني مشروعي القديم لم يبقَ لي أحد. كل الذين أحبهم في هذا المكان ذهبوا! في الرّقّة لم يبق لي إلا الخوف، والفَقد يلاحقني. أخذ هاشم ثم عمتي خديجة. ومن يدري هل يلاحقني إلى ما هو أسوأ؟ أنظر فيك، وأتأمل وجهك المُتعَب، فتأخذني الوساوس الشريرة!

أتوّهم، أنتظر اتصالاً على رقمي الجديد. أحاول الاتصال بإيناس. أدّق على رقم بشير. على رقم هاشم. لا جدوى. ما الذي يربطني بهذا المكان بعد؟ لا بدّ من الهجرة. لكن قد يكون هاشم حيًّا ويعود!

أنصت إلى السكون في أواخر الليالي، سكون لا تخترقه إلا دَقّات قلبي وطنين أذني! هل أذهب إلى محَرْدة؟ وإذا ذهبت إلى محَرْدة فكيف يستقبلني والدي؟ وهل يقبلني المجتمع هناك وأعود بنت محَرْدة كما كنت؟

لم يتبقّ لي إلا بيت والدي. أستقر عنده. أجلس معه، وأنقل وظيفتي إلى مدرسة الشرقية بمحَرْدة. وإذا تعذر ذلك على عمي جورج أبحث عن عمل. أيّ عمل، لا يهمّ، لا بد من الخروج من هنا! هذا ما بدأتُ أخطّط له، وقد اشتقت إلى أبي، بعدما مضى زمن لم أسافر وأشاهده وأكلّمه. عادت سارة الطفلة تتململ بداخلي. عادت الشابّة تحن إلى محَرْدة. إنها محَرْدة!

حين رنّ الهاتف، وشاهدتُ اسم عمّي جورج لم أصدّق! رقمه بقي محفوظًا في هاتفي، ولم أحذفه مع أني اتصلت به مرارًا ولم يرد. ها هو يتصل بعد قرابة عشر سنوات من يوم زواجنا في تموز 2004. نحن في آذار 2014:

-يا سارة، البقيّة بحياتك. حصّلت رقمك الجديد بصعوبة!

-أنا عمّك جورج.

أهلاً ، عمي، رقمك مازال مخزّنًا بجَوّالي.

- سارة، غبت عن التواصل معك لأنّي غضبت حين خرجتِ على عاداتنا بزواجك، لكنّي في داخلي مطمئن. فأنت تزوجّتِ من رجلٍ محترم. وعرفت حديثًا من جماعتنا بالرقة ما جرى. عمّي هل تسمعيني؟

-عمّي -سارة- هل تسمعيني؟

...أسمعك عمّي!

أجبته بعدما تماسكت وبلعت دمعتي، فتابع:

-عمّي، أنتِ بنتنا. عندي أخباركم بالتفصيل. وعندي أخبار الوضع الخطير الذي يهدّد جماعتنا بالرقة.

-أنا فقدت كل شيء!

-أعرف يا سارة، أعرف، أنت بنتنا. وبعد موت حماتك وزوجك لا نقبل أن تبقى أموركِ هكذا. يا بنتي نخاف عليك!

-زوجي مات؟ من قال ذلك؟

-آسف، يقولون اختفى ولا أحد يعرف مصيره.

-يا بنتي، علينا بالحاضر. الآن الوضع أخطر من الجدَل حول هذه المسائل. عودي إلى محَرْدة والماضي ننساه وننتظر ما ستأتي به الأيام. أصلاً والدك يتمنّى عودتك، وعمتك ليلى كذلك!

- سأعود يا عمي سأعود. أبي تواصل معي. أكثر من مرة.

-عندي علم. احسمي أمرك وعودي لمحَرْدة، الوضع عندكم سيّئ.

*

الوحدة حوّلت كل حركة إلى هاجس مخيف. أنهض متكئة حابسة أنفاسي، أتنصّت على وقع خطى وهمي. أتوقّع شيئًا. أرتعد فور سماع الصوت وأصرخ خوفًا. أمطّ رأسي أتلصّص من النوافذ، من وراء الستائر. وكأنّ ثمة أشباحًا لهؤلاء تحت البيت! في الليالي لا أسمع غير صرير، كأنه صرير جنادب أو نقيق ضفادع، يختلط مع نباح كلاب من بعيد، وأحيانًا صوت عواءٍ مقيت.

أعيش في وحدة مرعبة. مثل طائر وقع في شباك مهجور. أحيانًا يتحرك عصفور على الشجرة فأقفز مرعوبة. ذات مرة رأيت الأكل فظننت أن عمتي خديجة أكلت منه. تذكرت أنها ماتت! من الذي أكل من صحن البيض؟ أعيش حالات بين الأحلام واليقظة!

أحيانًا أسمع طنين الذبابة في الغرفة. أظنّه صوت سيارة! وأظنّهم قادمين. شبح الملثّمين يطاردني. يقتربون وهم يكبّرون مثل أسراب وحوش برية!

حين يهبط الليل أشعر بخوف شديد. أتخيّل أشباحًا لملثّمين يمدّون رؤوسهم من مقابر وبِرك دماء. يلبسون الأسود. يصرخون ويريدون أن يغتصبوني! مرة فِي منامي شاهدتهم. كنت مع هاشم، وهم وراءنا يكبّرون ويصرخون ويكبّرون. أبعَدُوا عنّي هاشم. وكانت أم حسّان تركض ورائي، ولها قرون طويلة، وذَنَبٌ طويل تحرّكه وراءها. تتحكّم به، وجّهته ليمسكني من عنقي، فلوى عنقي وارتعدت واستيقظت!

يتكرّر المنام ويحوّلني إلى مخبولة ضائعة في جحيم من الرعب، لا مثيل له!

أجساد تتململ وتئنّ في الظلمة، أياد خفيّة تتحرّك في زوايا الحوش. وعواء مثل عواء وحوش مسعورة. غمغمات تعذّبني بغموضها ومقاصدها.

كانت الظلمة في الليل كثيفة مخيفة مثل طيف من الجيش الأسود المخيف. شبح أم حسّان والمتسللين في الظلام يفزعني. أرفع صوت التلفاز وأتابع الأخبار حتى أعرف ما الذي يجري؟ لم يبق لي إلا الهواجس. ظلام، ووحشة، وصمت، وأشباح. ولكيلا أفقد عقلي صرت أردّد آيات حفظتها من عمّتي خديجة، وأردّد أبانا الذي في السموات.

ذات يوم شاهدت هاشم بين الحلِم واليقظة! بعدما غادرتني جارتنا أم سالم، كنتُ جالسة أمام التلفاز أصغي إلى الأخبار. انقطعت الكهرباء واستبدّت الظلمة، وبدأت تعوي الرياح في النوافذ، وكأنها تنبئ بمصاب. يأتي نداؤه من بعيد؟ لا! نداء مثل الدويّ يخالطه صوت هاشم. وكيف أنسى صوته، يا مريم؟

-يا سارة، ارحلي.

يصرخ بي، وكأنني تائهة في ظلمة!

-يا سارة، ارحلي!

أسمع الريح تلطم الشجر في الحوش، ورشقات الرصاص تدوي في ظلمة الرقة! هل أنا في حلم أم حقيقة؟ طيف هاشم ينادي بقميصه الأزرق وبنطال الجينز:

-يا سارة، خذي مريم وارحلي!

خوف وتلعثم ورهبة تستبدّ بي، حتى أنت -يا مريم- كنت تصغين وتتلفّتين معي!

تشتدّ الرياح تلطم النوافذ مثل عويل عمتي خديجة. ومع عويل الريح يشتد صوته. يختفي ويجيء من جديد:

-خذي مريم، يا سارة.

يشير بيده. أفهم من إشارته أنه يطلب مني الرحيل! يضرب يدًا بيد كأنّه يتأسّف. يصرخ وعمتي خديجة تنوح مع عويل الريح، كأنّه يريد أن يقول الكثير. يذهب ثم يعود! أنادي، فلا تردّ عليّ إلا الظلمة والريح. يجمّدني الخوف. أصغي متيبّسة حتى اشتغل المولّد، وجاءت الكهرباء!

أيقصد هاشم ذلك أم إنها أوهام لأنني أفكّر بالرحيل؟ هل هو هاشم حقًا أم شبح؟ حاولت أن أقنع نوريّة وزوجها أن يعيشوا معنا، ولكني لم أفلح. خيّروني إمّا أن أبقى وحيدة أو أنضمّ إليهم. لم تقنعني فكرة أن أعيش معهم!

أنهكتْني الوحدة، وتعبَت نفسي من الترقّب والخوف والنظر إلى الجدران المسدودة! يحاصرني السأم والملل والخوف. أحصي شقوق الإسمنت في الحوش، وأوراق الشجر على الأغصان. أنظر في أشياء

تافهة لا تلفت إلا انتباه المجانين. ينتابني خوف من أن أكون قد جُننت، أيُعقل هذا يا رب؟

نظرتُ ذات يوم من النافذة أراقب الحياة قبل الغروب، وشاهدتُ أسراب الحمام تحلّق بعيدًا بعيدًا، وتختفي في الفضاء. أثّر فيّ المشهد، وحسدت الحمام على حركته وحرّيته أنّى شاء.

هؤلاء من المؤكد أنهم يعرفون أني مسيحية فماذا سيفعلون بي؟ هل يتركونني؟ وأم حسّان؟ لا بدّ أن دَوري قادم! هل أتعرض للسبي أم للاغتصاب؟ كل شيء وارد. نعم! ولكن الجارات يؤكدن أن هؤلاء لا يتعرّضون لأيّ امرأة محتشمة! وهل أنا أفضل من النساء في الموصل؟ ربما اغتصبوني أو باعوني! رحمتك يا يسوع! أيّة أفكار هذه؟

في يوم الأحد طُرق الباب. رسالة من أعيان الطائفة، من طرف بيت خال عمتي خديجةَ:

-عليكِ بالمغادرة من الرّقّة بأسرع ما يمكن!

زرعوا الخوف في الرّقّة فانتشر في قلوب الناس مثل وباء قاتل. خوف النساء من نوع خاص! تخاف المرأة من كل شيء، من البشر ومن صوت الهواء. وإذا كانت المرأة خائفة، فإنها تفزع حتى من هديل الحمام وحركة العصافير!

حين يتحدّث إليها الرجل تصاب بحالة من الإرباك والهلع. تخشى الفضيحة. وتتلفّت حولها كالمتّهمة، وتتلوّن وترتجف باستمرار، وكأنها تقوم بعمل فاحش فاضح!

تطاردني صورهم. وفي سكون الليل حلمت مرة برجل أسود، وجهه كلّه شعر وعيناه صُفر. كان يكبّر ويبكي. وحين شاهدني ما لبث

أن هجم عليّ، وأخذ يعاركني ويشدّ على جسدي. يكبّر ويعاركني بعنف. عوى وعضّني فصرختُ واستيقظت!

كنت حين أضطر إلى الخروج أسير بفزع، كأني مراقَبة، أتخيّل أم حسّان تلاحقني، تطاردني حتى ترغمني على الزواج من أحدهم!

لم يتوقّف تفكيري عن الهرب. أبحث عن طريقة تجنّبني مسألة المحْرَم، أشعر أني كمن يقف وسط رمال، ويغور كل ساعة أكثر. لا بد من الخروج باتجاه محَرْدة، وبعدها لكلّ حادث حديث!

أفكّر في محَرْدة. أستحضرها، أتذكّر كتف العاصي. تشدّني ذكريات طفولتي وصباي مثلما تقود الغريزة الطيور المهاجرة قبيل التغيّرات الجوّيّة.

كيف سأخرج إلى محَرْدة، وقد منعوا خروج النساء من دون مَحْرَم؟ يا رب، ماذا أفعل؟ فكّرتُ. ليس أمامي إلا بيت أبو سالم. نعم هؤلاء الشجعان أصحاب الشهامة لم يتخلفوا عن مساعدتي يومًا، وكأنّ القدر انتدبهم ليكونوا عونًا لي. لا بدّ من نهاية!

-يا نوريّة سأرحل إلى محَرْدة، والبيت أمانتك!

- وهاشم يا سارة؟

-هاشم يريد ذلك، وفي أيّ وقت يعود، أنا بانتظاره.

وبعدما حفرت في دماغي فكرة الرحيل، بدأت أرتّب أموري، وأخطّط للخروج!

الفصل الثالث:

كَتْف العاصي

1

الاستعداد للرحيل له صمت كئيب وحارق. في نهاية آذار 2014 -يا مريم- تحدّد موعد خروجي من الرقة. رتّبتُ كلّ شيء مع نوريّة. الذهب ثقيل والكمية ليست قليلة. ثلاث وعشرون أونصة مع أساور وقلادة. وزّعتُها كلها في لباسي الداخلي! سيارة جارنا سالم تنتظر في الخارج، وأمام البيت حقيبة كبيرة، وأخرى متوسطة الحجم. أخفيتُ الخبر عن الجيران خوفًا!

وبعدما نزلَت نوريّة للأسفل بقيتُ في غرفة النوم أُلملمُ بعض أشيائي. تأمّلت حقيبة المَاكياج في دُرج الخزانة. تركتُها بائسة حزينة تنظر وتتحسّر المرآة تلازمني، مثل كل النساء. حملتُها ووضعتها في المحفظة. رحت أنظر في صورتي مع هاشم في غرفة النوم. هممهَمَت ذكرياتي الغافية البعيدة تهمس بأسى عميق. تشكّلت غيمة بيضاء على عينيّ، وانسدّ حلقي! وقفتُ. تردّدتُ. ثمّ أخرجتُ المرآة ورميتها على الطاولة، وودّعتُها في غرفة نومي مع علبة المَاكياج. دفنتُ أنوثتي في غرفة النوم وخرجت!

غرفة عمتي خديجة كانت تناديني لأودّعها، نظرت إليها متردّدة ثم دخلتُها. فوق الطاولة بجانب السرير سجّادة الصلاة ونسخة من القرآن الكريم بجانبها مسبحة عمتي خديجة. لم أعد أرى أمامي إلا طيفها من

وراء غيمة بيضاء، كلما مسحتها تعود من جديد. بخشوع اقتربتُ من القرآن الكريم، وبيد مرتعشة حملتُه. قرّبته من فمي، قبّلته، ووضعته على رأسي، ثم أعدتُه إلى مكانه. أمسح الغيمة البيضاء، لكنها تعود من جديد. كنتِ -يا مريم- تنظرين إليّ. تقدّمتِ وأخذتِ المسبحة ومددتِها أمامي وقلتِ:

-حَبَّابتي خديجة!

وحين قرّبْتِها من وجهي، شممتُ رائحة عمتي خديجة، ورأيتُ من وراء الغيمة طيف هاشم يبتسم. ثم أخذتُها منكِ، ووضعتها بجانب القرآن الكريم.

اعترضتِ -يا مريم- تريدين المسبحة. تنادين:

-حَبَّابتي خديجة!

الحمَام بقي يهدل ويهدل. يطير، يرفرف، يدرج في فناء الحوش. يهدل محلِّقًا ثم يعود. ضجيجه ملأ الحوش. أنظر إلى حركته المضطربة الغاضبة. طار سرب منه. طار عاليًا. غيمة كثيفة سدّت الرؤية، واختنقتُ بدموعي. رأيت هاشم وعمتي خديجة في الغيمة فوق الحمام. صوته يختلط برفيف الحمام. يناديني. انفجر الغبش دمعًا ثقيلاً حارقًا، مثل النزيف يسيل على خدي، وتبدّد كل شيء إلا الاختناق. مسحتُ الغيمة أكثر من مرة. الجميع ينتظر نزولي معكِ. نوريّة وزوجها، وسالم وأمّه.

تركتُ مملكتي وجَنَّتي ونزلتُ بجسد مدمَّر أخطو خطواتي الأخيرة في الحوش باتجاه الباب! الأشجار حزينة تهتزّ بحفيف مكتوم! أغلقت البيت. وبعدما ضممت المفتاح بحرص وضعته في جيب خاص أسفل الضلوع بجوار القلب. صلّيتُ وقرأت لعمتي الفاتحة. كانت نوريّة تنوح وجارتنا العجوز أم سالم تهمهم. ضمّتني نورّية لحظة الوداع بنشيج مسموع!

حين ركبت السيارة أعطاني سالم هوية فاطمة أخته ودفتر عائلتها، سالم وأمّه ينظران إليّ نظرات متفحّصة. يتأكّدان هل وضعي مناسب للسفر في ظل القوانين الجديدة أم لا؟

-تصرّفي كأنك أختي أم حمزة أنت أم حمزة.

ويكرّر عليّ سالم:

- أنت أم حمزة فاطمة العلي بنت عبد الله. لا تنسي يا أختي.

كنت فيما مضى أتباهى باسمي وبنَسَبي وانتمائي، أمّا اليوم فأنا أزوّر. أنتحل اسمًا ليس لي، حتى أحمي نفسي!

قبل أن يتحرّك سالم بدأ يخفي بعض الأشياء: علبة الدخان، وأشرطة الكاسيت، ثم وضع شريطًا يتلو قرآنًا، وابتسم.

أنّت السيارة، وعَوَت كلاب من بعيد، كأنها دخلت الرّقّة حديثًا. صوتها يشبه صوت الجلبة يوم أخذوا هاشم! تحرّكت السيارة تقصد بيت أبو سلطان جنوب مَسْكَنَة. أومأت الأيادي وبقيت نوريّة وزوجها أمام البيت، وانفجر حزني بعويل أبكى أم سالم معي.

لم أصدّق أني ودّعتُ الرقّة. كنتُ أحضنكِ -يا مريم- وأتلمّسكِ وأغمض عيني. أتخيّل أيامي في الرّقّة، وأنا أخرج منها. أتحسّسها وأشمّها فيكِ، وأضمّها بين أجفاني وأهدهد عبرتي.

قبل أن نخرج من المدينة تجاوزتنا دوريّة فيها عناصر ملثّمون مسلّحون ثيابهم ووجوههم سود مثل الفحم، ويرفعون علمًا أسود. مرّت قطة هاربة تركض بسرعة، وفجأة اعترضَتْنا. ضغط سالم على المكابح، خضّتنا السيارة، ولكنه دهس القطة. صرختها انعجنت بصرير المكابح تحت السيارة، فتشاءمت!

فوق الجسر لاحظت أن الشّعارات القديمة مُسِحت، ووُضِعَت مكانها شعارات جديدة. إحساسي بالخمار على وجهي ثقيل. يكبّلني كأنّي مخنوقة! كنت أحترق ألمًا، وأنا أعبر الجسر. فقدت كل شيء، لم يبق من هاشم سواكِ، يا مريم!

صرت أهتز كأنّ رياحًا، من هاشم لا ترى، تهزني وتُبكيني. أتماسك. أخطف نظري إلى أم سالم، أراها تركّز في عالم آخر، تغرق في تأمل عميق!

يحضر هاشم كأنما ليهدّئني. أتذكّر لحظة دخولي الرّقّة مع والدكِ لأول مرة. عندما وضع أغنية «عيني على الغرّبو». وكان الهواء عذبًا كالماء الزلال. أذكر لما تجاوزنا الجسر لفتَت نظري الخضرة وجمال الفرات، وشدّني مشهد أسراب الحمام في سماء الرقة، من الفرات إلى المدينة، تبني خيمة مزركشة ملوّنة، تموج في زرقة السماء، وتختلط بغيوم خفيفة وتحتها الخضرة الفراتية الممتدّة.

-الحمام كثير في الرقة!

قلت له.

-لأننا لا نعرف إلا المحبة!

أجابني هاشم.

ثم التفت إليّ يبتسم، وأضاف:

-هذا جسر الرقّة!

شعرت يومها بنوع من الخدر اللذيذ، يتملّكني بنوع من الانتعاش الغامض. شعور عصيّ على التفسير. تتلألأ الشمس، كلّما انقشعت الغيوم، وعلى صفحة النهر تمتد خضرة وأشجار، وطيور متنوّعة تلعب فوق النهر!

أغصّ الآن بتلك الذكرى! هل يعرف هاشم أن سماء الرّقّة اليوم تعفرت برائحة الدم. ولا يعبرها إلا البراميل المتفجّرة والتكبير الدمويّ الأسود؟

عند الجسر كانت كتلة سوداء تحرس وتراقب. يتحرّك بشعر يغطي وجهه، مثل تيس أسود مبلول تحت المطر. ضاع حوارنا في جائحة خوف أخذتنا أمام الحاجز، وفجأة اقترب منا، ومدّ كفًّا بأصابع يابسة قاسية داكنة، مثل كفّ التّمساح. التصقت الأصابع بحافّة الشبّاك. يرشقُنا بنظرات متشكّكة تتّهم وتتوعّد. تنظر عيناه من وراء اللثام بحقد وشهوة مستعرة. تتسارع أنفاسي! قذف باتجاهي نظرة، ثم أرجعها. خفتُ. نظرة مشحونة بعقد جنسية مزمنة، كأنها تريد أن تبتلعني، أحسستُ أنها اخترقت عباءتي، وسرقت شيئًا من جسمي. شلّني رعب حبس النَّفَس في صدري!

يبرطم بعربية غريبة مع سالم. أمامنا سيارة فيها قطيع من الغنم. تنظر إلينا الحيوانات المسكينة، كأنها خائفة. تثغو وتشكو بنظرات مستغربة!

تحرّكت يده بإشارة الموافقة، وأعطى السيارة ظهره. كان سالم سعيدًا بسرعة الموافقة، وكأنّه يخفي فرخ دجاج من قطط متوحّشة خرجت جائعة. ابتعدنا، وبقيت الأغنام تثغو عندهم أمام الحاجز. تخفق المياه تحتنا وتلطم أعمدة الجسر. تتحرّك مضطربة مسرعة نحو الشرق، كعابر سبيل يهرب من الموت.

نبحَت علينا كلاب تحرسَ أغنامًا تعبر الطريق وأخافتكِ، يا مريم. كان واحد منها شرسًا أسود مبقعًا وشعره طويل. ينبح ويقترب يرفع رأسه إلى النافذة وينبح. هجم عليه الراعي بالعصا يصرخ فيه ليبتعد.

تناول الراعي حجرًا وضربه، فابتعد يعوي. وبمثل البرق كالسهم تجاوزتنا ثلاث سيارات، فيها عناصر بلباس أسود ومبرقع، تخفق فوقها رايات سود.

نسير كأننا في بلدة صغيرة، ولسنا على طريق عام. البيوت تتناثر على الطريق بكثرة، جعلتني أستغرب، وأسأل سالم:

-لماذا انتشرت الأبنية على طرفي الطريق؟

-ما في قانون يمنع.

-أليست مخالفات؟

- لا، لأنها لا تخالف الشرع!

قبل المنصورة سيارة معطوبة على طرف الطريق، تغوص في الوحل. لا نفكّر بمدّ يد المساعدة. الخوف يقتل المشاعر.حين اقتربنا من المنصورة أكثر بدأت تتشكل غيوم سوداء جهة الغرب. وعند المنصورة خيم متفرّقة بين البيوت. عدد كبير من الأولاد البائسين أمام الخيم المنصوبة. السيارة تعبر ببطء. يركض الأطفال حفاة في الوحل. أسمع نداءات النساء للأطفال. شيوخ يخرجون بلحى شقيّة مهزومة. برك مياه ضخمة. الدخان الأسود، يغطّي السماء، ويصعد عاليًا ليشكل غيومًا سامّة. وحين لاحظ سالم علامات الاستغراب في حديثي مع أمه وضّح.

-هذه مصافي النفط الجديدة!

-تغيّر شكل الرّقّة بعد هذي الغربان.

قالت أم سالم ونفضت يدها في الهواء، كأنها تتخلّص من كتلة قذرة عالقة بيدها.

الحاجز عند مفرق الطبقة كان محصّنًا وضخمًا وبداخله وأمامه

عناصر تبدو الخشونة على وجوههم وملابسهم السود، وأمامنا طابور من السيارات. حبسنا الأنفاس!

أحاديث سالم خفيفة معزّية تقوّي من عزيمتنا وتتسم بالذكاء. كل ما في الوجود ساكت يترقّب، كأنه يرسم نهاية للحياة.

يتحرّكون ملثّمين بالأسود. ملثّم نحيل يتحدّث مع آخرين. مُلثَّمان بيدهما بواريد، يرتديان الأسود أقرب من البقية، يشبهان كل المسلّحين في الرقة. تبدو حركتهما متهيّئة. علامات التهديد تظهر في عيونهما من وراء النقاب. حاولت أن أرسم صورة آدمية لوجهيهما فلم أستطع. لم أتخيل إلا أنيابًا سامة لوجوه وحشية!

أما نظراتي إليهم فكانت تتنقّل بفضول، وحين ينظرون إليّ ترتدّ نظراتي من وراء النّقاب مرعوبة، مخلّفة في نفسي شعورًا بالقرف والكراهية!

كان سالم مصعوقًا أمام الوجه العربي الأسمر عند الحاجز! تغيّر لون وجهه. امتدّت يد مخيفة من النافذة إلى سالم، أخذَت البطاقات، من وراء لثام خفيف يغطّي نصف الوجه. ينظر فيّ ثم في سالم:

-من هذه؟

-أختي!

نظر في وجه أم سالم، وكأنّه يعرفه!

-من هذه الصغيرة؟

-بنت أختي.

-أين تذهب؟

-زيارة إلى مَسْكَنَة!

-مَنْ لكم في مَسْكَنة.

-أختي متزوّجة هناك.

-كم يوم ستبقون هناك.

أسئلة وأسئلة. عسى أن يقع سالم في خطأ. كأنهم يبحثون عن سبب للقتل أو الاعتقال أو المنع. أخاف أن يتلعثم سالم، ويثير ظنونه. لكن سالم كان ذكيًا وحاضرًا، فانتهى التحقيق من دون مشكلة.

-مع السلامة!

لم نجرؤ على التذمّر أو التباطؤ، كان سالم يجيب، ونحن نبارك بِرَجَفان قلوبنا! وبعدما ابتعدنا التفت سالم إلى أمّه بألم:

-هل عرفتِ مَنْ الذي كان على الحاجز؟

-فوّاز بن خاتون؟

-إنه هو.

-أمه تقول: ابني يشتغل بورشة خياطة!

-كان.

-لحسن الحظّ لم يدقّق في الوجوه.

نسير والبناء يتكاثف على طرفي الطريق. قطعان أغنام وبشر وأطفال، وناقلات نفط، وجرّارات كثيرة جعلتنا نخفّفُ سرعتنا بعد المنصورة. طلبتِ وقتها طعامًا، يا مريم. حان موعد إفطارك. مددتُ يدي إلى فطيرة الجبنة وأسكتّك!

سالم يتحدث كثيرًا معنا، وكأنّه يريد تسليتنا، في حين كنتُ شاردة في المجهول الذي ينتظرني! من محَرْدة جئتُ لأعيش مع هاشم في الرقة، وقبلها في مزرعة النجاة بين الفلاحين.

كانت الحياة في المزرعة خشنة قاسية، لكنّها تحوّلت إلى ممتعة

ولذيذة، فأهل المزرعة طيّبون، كأنهم أطفال كبار. الابتسامة الفراتية المنبسطة لا تفارق وجوههم. تشجّع على التماهي والاندماج! الرهانات والأعراس والعشق والدبكة والغناء كلها تتمّ بمنتهى البساطة.

ذات مرة كنّا نسهر أنا وهاشم، في بيتنا بمزرعة النجاة، وسمعنا إطلاق عيارات ناريّة، وبعد قليل أضيئت الساحة، وانعقدت الدبكة. حمدون سائق هاشم كتب كتابه على زوجة ثانية!

يومها أصرّ السائق بتوسّلات لا تنتهي حتى لبّينا الدعوة وذهبنا. لأوّل مرّة أحضر عرسًا في مزرعة النجاة. يدور صاحب الناي في وسط حلقة الدبكة، ينغم بإيقاع موزون وتمايل الأجساد، ثم بين الحين والآخر يسرّع الإيقاع، فتتقافز الفتيات والفتيان قفزًا سريعًا طربًا، فيطيرون نشوةً!

غمز وهمس ووشوشة لا تنتهي من الفتيات. الشباب يتكاتفون مع الفتيات، يتمايلون، ويضحكون، ويهمسون، ويغنون، ويتفاعلون. لا أفهم أين يذهب تعب النهار؟

يقول لي هاشم.

-الشعب هنا يظهر رغبته في الحياة بكلّ أفعاله. لكن انتبهي هذه الزوجة الثانية!

أقول ضاحكة:

-لو عرفت ما كان حضرت. وأنت ما رأيك بالزوجة الثانية؟

هاشم يضحك مقهقهًا:

-وهل أتجرّأ؟

يومها فوجئت بما لم أعرفه عن والدكِ وشعرت بالغيرة! فقد دبك والدكِ وتفاعل وقفز بجنون، وتسارعت الفتيات على الدبكة معه، يشبكن بيديه على اليمين وعلى الشمال. والدكِ يدبك ببراعة. تضايقتُ

كثيرًا، وهو بين الفتيات، وكأنّه وجدها فرصة! يندمج ويقفز ويتلوّى ببراعة لا يتمكّن منها إلا خبير! وحين شبكَت بيده زينة العبد الله انقلبت سهرتي إلى نَكَد! ونهشتني الغيرة.

زينة فتاة بيضاء قصيرة عيناها صغيرتان كانت تلاحقه كما تروي لي أمّ حميدي، ولا تخجل من أحد، وأقسمت بأنها ستوقعه بحبّها، وتخطفه من المحَرْداوية!

أهالي المزرعة يلقّبونها بـ«البسَّة»، يقال: لقّبوها بالبسّة: لأن صوتها يشبه صوت القطة، وقيل: لأنها حين تقاتل تخمش بأظافرها مثل القطّة، وتقول أم حميدي: لأنّ عينيها مدوّرتان، تشبهان عيني القط! بقيَت تطارده، حتى تزوّجت من ابن عمّ لها يعمل بالخليج!

شبكت بيده اليمنى -يا مريم- وقد دلّكت وجهها بطبقة كثيفة من كريم أبيض، فبدت مثل قطة غطّست وجهها بصحن لبن!

أنزعج منها، يا مريم. تدبك بشهوة، وتلتصق بوالدكِ وتضحك. تقصدني بوقاحتها. تدبك وتضحك وتتغنج! حرقتني، وبصعوبة تماسكتُ إلى نهاية السهرة.

-أنت مدير مزرعة! فكيف تدبك مثل المراهقين، وتمسك بأيادي الفتيات؟

تفاجأ والدكِ:

-سارة! إكرامًا للرجل، والدبك شائع في المجتمع الفراتي، هل هذا ممنوع في بيئتك؟

-لا لكن بيئتي غير. يبدو أنك تشجّع الزواج الثاني!

- وهل هناك فراتي لا يدبك، يا سارة؟

-لماذا سمحت لهذه الفأرة أن تشبك بيدك؟

-أيّ فأرة؟ بنات كثيرات شبكن بيدي!

-الحقيرة الدنيئة. البِسَّة!

-أي بِسَّة؟

-وتتجاهل أيضًا؟ الحقيرة زينة العبد الله!

-يووو يا سارة ! وهل أطردها أمام الناس. وأهين نفسي؟

-كان الواجب أن تترك الدبكة وتخرج!

-سارة حبيبتي بلا غيرة. هذه العادات موجودة في معظم سوريا. ستتعلمين الدبك الفراتي مثلي، وتتحررين من هذه الأوهام.

حضرت بعدها أعراسًا مع والدكِ-يا مريم- ولكنّي لم أتعلم الدبك الفراتي!

آه -يا بنتي- أشكّ أن ما جرى حقيقة! أنظر إليه كحلم لا يمكن أن يحدث! أيّ خيبة وأيّ مصيبة أحمل إلى محَرْدة؟

بعد مفرق الطبقة تتناثر بيوت حديثة البناء على طرفَيْ الطريق، وثمّة سيارات بعيدة محترقة صدئة محطّمة، تبدو مثل جثث متفحّمة بصفائح معدنية على شكل سيّارات! وكأنّ أرواح الضحايا فيها لم تغادر. تتشبّث وتلعن.

نظر سالم:

-هنا قتلوا مجنّدين فارّين. ضربوهم بصواريخ فاحترقت السيارات.

- 2 -

حين انعطفت السيارة على طريق مزرعة النجاة، طغى عليّ الحنين. رائحة الربيع، مزرعة النجاة، مَسْكَنَة، أنتعش، أتنشّق الذكريات، أسبح وأطير، أشتاق إلى وجه الحياة هنا من جديد، إلى رائحة هاشم في الجوّ، إلى رائحة الخضرة والحَور والعنب والرمان. أشتاق إلى بيتنا الحكومي، بيت مدير المزرعة، وإلى رائحة التراب حين يرتوي بماء الفرات بعد الفلاحة.

المناظر تأخذني، تهرب بي بعيدًا عن هؤلاء، وكأنها تسخر من العابرين! تنتشلني من ذلّي وجحيمي. تقودني إلى أيام عشقي المجنون! تستحضر ليالي السمر، ووجه القمر، وحقول القمح القديمة مع هاشم. تشعرني أني في عالمي الخصب في روضة من الحياة اللذيذة!

هناك لحظات في حياة الإنسان تختلط فيها مشاعر الألم والمتعة، الحب والبغض، والاستسلام والتحدّي! تختلط الشهوة العنيفة للحياة بالشعور الحاد بالخيبة! غالبني البكاء-يا مريم-وتذكرت سيارة النيفا الروسيّة، حين كان يركبها أبوكِ ونخرج إلى الحقول، أو نذهب إلى الولائم في ديار أبو سلطان جنوب المزرعة!

ذهلتُ!معالم المزرعة غريبة عليّ. كأنّي أمرّ فيها لأول مرّة. لكن طبيعة الأرض، أقنية الري وتوزيعها، القرى المحيطة، طبيعة الهضاب

والطرقات كلّها تؤكّد لي أنّها دياري السابقة ديار العشق. مزرعة النجاة. أما الهدوء الذي يشبه الموت والوجوه البائسة ومشاهد التشرد، أما هذه، فتختلف عن الصورة التي في ذهني!

البيوت تغيّرت. الوجوه كابية مهزومة خاوية. حزنت، ما توقّعتُ أن أشاهد المنطقة بهذا البؤس! شعرت أن كل شيء ينقلب إلى الأسوأ! مصارف المياه في الحقول تحوّلت من تصريف المياه الزائدة إلى مجارير نفايات تنبت فيها نباتات خبيثة بغيضة، نباتات منظرها مثل الشعر المجعد الأسود في واحات طينية هشة سوداء آسنة!

الغربان تملأ الفضاء نعيقًا. كلاب تنبح وتهاجم السيارة. كلاب سود مبقّعة تخرج أفواجًا من الحقول. تعوي وتهجم جائعة ولعابها يسيل، لعلّها تبحث عن لحم اعتادت أكله وتشمّمت رائحتنا تتشهّى. تريد أن تفترس السيارة!

كنتِ تصرخين، يا مريم. وصراخك يدوّي في الطريق، وافترسَتكِ حالة الخوف الهستيري!

في الحقل المجاور للطريق شاهدت كتلاً سوداء تتحرّك. ظننتها طيورًا ترعى. اقتربنا أكثر. كبرت أحجامها. تتحرّك في الحقول جماعات. كلّها سوداء. تذكّرت البقر في الغاب. هل هذه بقر؟ إنها أصغر! أغنام؟ لماذا كلها سوداء، وتتحرك بانتظام؟ اقتربنا.

«إنهن نساء!»

همست: «يا ربّي».

قال سالم:

-عاملات في الحقول يلبسن عباءات سوداء مغلقة تغطي الوجوه. مسكينات!

-لكن لماذا؟

-للحشمة ودرء الفتنة في ظل الوضع الجديد!

-وكيف يقدرن على العمل، ويتحمّلن هذا اللباس وهنّ يعملن في الحقول؟

-ههههه!

- السواد ابتلع الخضرة والحياة في كل مكان من الفرات!

حين اقتربنا أكثر من مزرعة النجاة ظهرت أكواخ كثيفة أمامنا على الطرقات بين الأقنية. أكواخ بائسة، يتجمّع فيها بشر ينظرون في العابرين بعيون ملؤها الحرمان. لا يعيشون كالبشر! مناظرهم تكوي القلب، تنبع المصائب من كل شيء فيهم. في شفاههم المتشقّقة لعنة على مَن هجّروهم. ينفثونها بوجه كل المجرمين بحقّهم! الأطفال هنا ذبلت أحلامهم، وجفّ عودها. يتراكضون وسائل أصفر متجمّد يغطي نصف وجوههم. يلبسون أثوابًا مرقّعة قذرة، وأقدامهم حافية في الوحل، جلدها متشقّق بلون أسود قاس كأنه حذاء قديم. يلقون علينا نظرات، تنزف حزنًا وفضولاً! وكأنهم لم يعرفوا الغَسْلَ منذ دهر!

تمتد الخيم المتشابهة مثل دمامل مبعثرة في وجه الطبيعة الأخضر. بعدد هائل تنتشر على طول المصارف المائية، وحول الأقنية في الحقول الزراعية!

-كل هؤلاء نزحوا من الذبح. تركوا بيوتهم تحترق وتتهدّم وتنهَب حين اجتاح الجيش ريف حلب الجنوبي والشرقي.

يقول سالم، وهو يشير إلى الخيم:

-هربوا من المجازر؟

-نعم. لم ترحمهم الدولة. هربوا من الموت، بعدما حصد منهم أعدادًا كبيرة. صنفتهم الدولة مع المسلّحين. قتلت وجرحت المئات منهم، ورمت بعضهم في الآبار وعلى الطرقات!

-ماذا تقول؟ الدولة فعلت بهم هذا؟

-هكذا يؤكّدون.

-يا حيف!

للقدر أفعاله التي لا نفهمها. ونحن نسير، والكلاب تنبح، والأطفال تنتشر مثل أرانب هزيلة جائعة، تبحث عن عشب في التربة، بدأ صوت العجلة يدوّي على الإسفلت!

-سبحان الله! نفست العَجَلة. نحتاج لتغييرها!

وأوقف سالم السيارة على يمين الطريق!

يقترب منا بعض الناس للمساعدة أو من باب الفضول. يجرّون أجسادهم بوجوه تغطيها اللحى! لا يخلو وجه من لحية طويلة أو قصيرة! فكّرت وتأملت وقارنت مع مشهد العاملات بالسواد الذي يغطيهن، في الحقول، وأدركت السبب!

نظر حولنا. هناك قدور حول الخيم، ونساء غاطسات في الوحل، يخنقهن حطب مبتلّ بالرطوبة الموحلة، وغسيل منشور على الأقنية والحبال بين الخيم، ومصارف رفيعة، تؤدي إلى المصرف الأساسي، تنتشر على أطرافها بقايا أعشاب، حتى ليبدو أن الأعشاب التي كانت في كل مكان ويشكو منها الفلاحون، هي الأخرى تعرّضت للخراب والموت.

تجمّع بعضهم حول السيارة يدفعهم الفضول، فسأل سالم أحدهم:

-من سفِيرة؟

-لا من جنبها. أنا من تَل عَرَن. ذاك الجالس قرب المصرف من السفيرة، والآخر من خَناصِر.

امرأة تخرج من بين الخيم إلى الطريق وتصيح:

-مريم، مريم. الحقوها لا تصدمها سيارة!

نظرتُ إليكِ بدهشة، يا مريم! ثم نظرت باتجاه الناس فإذا بفتاة بائسة حافية، ترتدي ثوبًا متشقّقًا قصيرًا عليها، وعلى وجهها تراب الشقاء. تركض بجانب الإسفلت! يتراكض وراءها أطفال وينادون:

-هربت مريم المقطوعة، هربت!

كانت تركض مثل الممسوسة، ويتراكضون وراءها. عمرها بين الثامنة والعاشرة. تصرخ وتركض فقط، ولا تتكلّم. تنظر وراءها، وتركض مرعوبة!

وحين رأى أحد الواقفين الفضول في عيوننا، ونحن ننظر في الطفلة متأثرين بادر:

-هذه بنت من خَناصر، قتلوا أهلها بحجّة موالاتهم للمعارضة، ومن حسن حظها أنها كانت تلعب عند الجيران!

-أهلها مدنيون؟

-نعم مدنيون. قتلوا والدها وأعمامها وأمها، وكل من كان في البيت، ورموهم في البئر بجانب الطريق!

-ميليشيات تابعة للحكومة؟

-نعم.

-يقولون إنّهم أعدَموا المتورطين فقط.

-يقولون!

-أيّ عاقل يثأر من الأهالي؟

عقّب سالم، في حين أشار الرجل إلى عدد كبير، من المنازل الصغيرة، المبنية جنوب شرق المزرعة:

-وهؤلاء من مَسْكَنَة هربوا من المعارضة.

ثم أشار بيده إلى الخيم التي تملأ الحقول، حول الأقنية، وعلى طول المصارف:

-وهؤلاء من قرى حلب المحيطة شرقها وجنوبها، هربوا من قصف الطيران السوري والبراميل!

*

حين دخلنا مزرعة النجاة أخذني الحنين إلى بيتي القديم، يا مريم. تمنيت أن أمرّ عليه، لأرى طيف هاشم وذكرياتي هناك. خجلت من سالم فلم أطلب. تأمّلته من بعيد. شكله مختلف، والمعالم حوله تغيّرت. انفعلتُ. صار سرابًا. ضاع في الدمعة. بكيت، يا مريم. انفجرت عبرتي، وأم سالم تواسيني.

سألنا حتى نستهدي إلى بيت فيصل العوّاد أبو سلطان في البادية، قادونا إلى بيت أحد أقاربه، وشدّني الماضي من جديد، فقريب أبو سلطان كان يسكن بجانب بيت المعلّمة أم حميدي المحاذي لبيت الآنسات قديمًا.

-ممكن أسلّم على صاحبة هذا البيت لدقائق من فضلك!

-أبشري. انتظري حتى أقف أمام الباب.

حين ضغط سالم على بوق السيارة خرج شخص بلحية كثّة متناثرة لا أعرفه. تفاجأت. هل أنا مخطئة؟ كلا، هذا بيتها أمام المديرية، وهذا الجامع، وهذه مديرية المزرعة.

سألت الرجل:

-هذا بيت المعلّمة مريم أم حميدي؟

- كان لها واشتريناه منها.

-وأين أم حميدي؟

-أم حميدي نزحت صارت في تركيا!

-سمعت أنها هنا. متى نزحت؟

-منذ شهر فقط. كانت تخرج سافرة. تخالف الشرع. جلدوها فخجلت من الناس ونزحت!

ركب معنا قريب أبو سلطان، خلّوف العوّاد، وكانت أمامنا شاحنة صغيرة، في صندوقها نساء محبوسات بالسواد، لا يُشاهَد منهن شيء! وكان يحكي لنا عن الحياة الجديدة وعن تغير الأوضاع وتفاصيل عقوبة أم حميدي، ومواقف مخيفة عن قطع الرؤوس في عهد الحكومة الجديدة!

عادت الخضرة لتظهر على مدّ البصر ونحن نتجه نحو بيت أبو سلطان! وتذكّرت -يا مريم- حين دعانا أبو سلطان لحضور عرس ولده نايف، كان ذلك في فصل الربيع وكانت سنة خصبة.

دعا أبو سلطان مدير المزرعة والمهندسين مع أسرهم.جلسنا نحن الضيوف في المضافة معًا. النساء في قسم من المجلس، وفي القسم المقابل جلس الرجال.

قبيلة أبو سلطان وأقاربه في البادية يشتهرون بالمروءة والكرم والشجاعة، لكنهم يختلفون في عاداتهم عن سكان الفرات. يبدون حذرين واجمين قليلي الكلام كالجالسين في عزاء. وجوههم قاسية، فيها قسوة الزمن الذي ملأها بالغضون والأوجاع! ينظرون بتمعّن وبهدوء. تعلو وجوههم صرامة ثقيلة. حياتهم جافّة قاسية معزولة. نظراتهم حذرة حزينة.

يراقبون كل شيء في الغريب. ويحرصون على استعمال كلمات ثقيلة، خلافًا لبساطة أهل الفرات وحيويتهم. الكلمة عندهم لها وقع غريب، وكل شيء محسوب، وعلى الإنسان أن يعرف كيف يتكلّم معهم؟ وكيف يعاملهم؟ وكيف يجلس؟ وكيف يقوم؟ ومتى يضحك؟ ومتى يصمت؟ ومتى ينظر؟ كل شيء محسوب بدقّة إلى درجة مزعجة مربكة. وأيّ خطأ يرتكب فقد يجلب لصاحبه مصائب من لا شيء! وقد يتحوّل الخطأ إلى عار يلازمه مدى الحياة!

حين دعانا أبو سلطان قدّموا المناسف بكميات هائلة: خرفان مطبوخة مع أرز وبرغل على السمن العربي. كانوا يدورون حولنا، ينتظرون طلبًا، ليلبّوا الأوامر. يبالغون في التواضع. لم يأكلوا حتى انتهى الضيوف من الأكل، وكأنهم خدم للضيوف!

بعد الغروب، على ضوء القمر ورائحة الربيع، وعلى ضوء النار توزع القهوة ويشدو صوت الربابة وتشتعل الحياة في النفوس! أثار الوجد في قلوبهم شخص يسمّونه هوّاش العذاب.

قعد هوّاش متربّعًا بجانب أبو سلطان، أمام موقد القهوة، ووضع آلة الرّبابة بين يديه، ركّزها وقبض على طرفها بيده اليسرى، وبيده اليمنى يمرّر القوس على الربابة. يمرّره على الأوتار ذهابًا وإيابًا، وينقّل أصابع يده اليسرى على الأوتار، مع تمرير القوس خرج صوت موسيقى حنونة! يزداد تأثيرها في هذا الجو من الصمت المطلق! العيون تتحرّك والأجساد تتفاعل. أيّ حنان هذا الذي يتسرّب من غنائه! وأي انفعالات يثيرها هذا المغنّي هوّاش بفعل الربابةَ؟ يعزف ويغني لحنًا ذكّرنِي بإيقاع حركة الجمال في الصحراء، كما شاهدتها في التلفاز. انفعلت وجوه الرجال. حتّى هاشم كان يهز رأسه ويتمايل!

انفجر حنين مكتوم في نفوسهم، تراكم فيها منذ زمن! كانت آهات الرجال وكأنها رغاء جمال عذّبَتها صحراء. أخذهم الطرب وبدا في النظرات والحسرات والتمايل والدخان! أيّ مشاعر وأوجاع تكمن في نفوس هؤلاء؟ أيّ وجع كامن في صمتهم؟ إن قلوبهم تفيض بالوجد، ومشاعرهم تتدفّق كالسيل الجارف! لا أعرف كيف يفجّر هوّاش كل هذا الألم في صدور هؤلاء القساة؟

يومها نظرت في وجه هاشم من دون قصد، فسلّم علي بغمزة مبتسمة أثارت الحياة في داخلي!

مصرف المياه الضخم يمتد جنوب المزرعة، يقطع الحقول مثل أفعى عملاقة تَتلوّى وتتجه غربًا! أذهلني مشهد الخيم الكثيرة المتراصفة حوله. سابقًا كنا نقطعه في طريقنا إلى بيت أبو سلطان، ولا نشاهد بيتًا واحدًا. من أين خرجت بوجهنا كل هذه الخيم؟ سألت خلّوف العوّاد:

-من هؤلاء؟

-نازحون!

-من أين جاؤوا؟

-من ريف حلب.

-من أين يشربون ويأكلون؟

-خلّها على ربك. يأكلون من رحمة الله. يغسلون من المصرف، ويشربون من المصرف، ويعيشون على المصرف!

- يعيشون على المصرف؟ ألا يمرضون؟

– غسيلهم وشربهم وحياتهم على هذا المصرف. أقسم بالله! الله يكون بالعون. أوووف أوف. شَوْف العين غير السَمَع.

حين وصلنا إلى بيت أبو سلطان شعرت أننا حققّنا معجزة. كفّت الكلاب عن النّباح وراحت تدور حولنا، تلهث وتدلق ألسنتها، وتهز ذيولها فرِحَةً، وكأننا من أصحاب البيت!

عندما شاهدت أم سلطان أحسست بقلبي ينتفض للحياة. بتأثّر عميق أتأملها. لم تنتبه. وبعدما وقعت عيناها عليّ شهَقَت كمن يصحو من كابوس! توجّهت نحوي مسرعة، وبوجهها مشاعر فرح، ودهشة، وشوق، تَتدفَّق متداخلة! ضمّتني بمحبّة صادقة. خرج صوتها مرحّبًا.تقدّمت النساء مبتسمات مع أم سالم، وتوجّهنا جميعًا إلى المجلس.

أمشي صامتة مرتبكة. مصائب ثقيلة تحالفت عليّ، وبدّدت قدرتي على الفرح. وجعي أقوى من الرغبة في الحياة. وجعي أقوى من كلّ حزن. فما كادوا يسألونني عن مصير هاشم، حتى طفرت الدموع من عيني، وانفجر حزني ببكاء ونشيج، وكأنّني بين أهلي في محَرْدة!

كنا نغمض أعيننا، ونغوص في رحلة مؤثرة طويلة، مع الذكريات النائمة. الذكريات مع الغالي هاشم أيام المديريّة. وكأن لقاءنا بعد الفاجعة جعل لتلك الذكريات نكهة مختلفة مؤلمة، نكهة تشبه طعمًا كاويًا، كالملح عندما يلمس جرحًا عميقًا نازفًا.

دار أبو سلطان في جلسته إلى جهة الخلف، واستخرج الهيل من كيس بجانب الوسادة. ثم سحب الوعاء النحاسي، وهو ما يُعرف عندهم بـ»النِّجر». وضع فيه الهيل، وعدّل جلسته، وبدأ يدقّ دقات بإيقاع

معين، أظهرت براعته. يدقّ الهيل في النّجر بعزم مدروس وتسديد دقيق صائب. أخذتني أصوات النجر النحاسي الشجيّة، وأذهلتنا طريقته وخفّة يده في دقّ الهيل! شعر بإعجابنا، فحرّضه ذلك، ليظهر لنا المزيد من البراعة والمهارة والتفنن في دق الهيل ودويّ النِّجر!

وبعد دقائق انتهى، ثم عدّل جلسته نحو القهوة على الموقد، ووضع الهيل في الدلّة، وكان يمازح سالم ليغيّر مجرى الحديث، ويبدّد فكرة المغادرة قبل الغذاء. يمدّ يده بالمِلقاط. يحرّك الجمر تحت الدلّة! يحرّك الجمر بالملقاط فيتوّهج الجمر. تغلي القهوة. تنعشنا رائحة الهيل.

ضحك سالم مع أبو سلطان، وشجّعه الضحك على التهكّم، وعلى المزيد من التبسّط في الحديث، وكأنهما اتفقا على جعل الجلسة تمتصّ الحزن والقهر. انشرح سالم كمن هرب من سجن، فروى قصصًا ومواقف بحرارة زائدة! ارتاح واستأمن، ولم يكترث بالعواقب، مع أنه يدرك أن لكل تنظيم في سوريا آذانًا طويلة، تمتد إلى كلّ مكان.

كنتِ-يا مريم- قد نمتِ على الطريق بعد المزرعة، ثم استيقظتِ، وقد تراجعت الحرارة في جسمك. تتلفّتين بين الأطفال والخراف الصغيرة. حرّكتك نوازع الطفولة، وكأنكِ نسيت أشباحك، ثم بدأت تتفاعلين، تضحكين وتلعبين، تطيرين وتطيرين إلى الأعلى، كطائر تحرر للتوّ من قفص مقيت!

تندفع أم سلطان بقوة رغم تقدّم سنّها. تركض وتُلبّي النداءات في كل الاتجاهات مثل شابّة في العشرين، لعلّها تستطيع أن تدخل السعادة إلى قلوب ضيوفها، فبدت تلك المرأة الطيّبة، الرائعة متحفزة مثل فرس مروّضة.

يواجهنا في الجلسة أفق أخضر يمتدّ على طول النظر، وقد ظهرت البادية مغسولة ملوّنة منتعشة، وتفرّع بيننا الحديث كجداول تنساب في طبيعة دافئة، ومع حرارة المشاعر وحركة الحياة انداحت الذكريات الماضية مرّة أخرى تنبع من قلوبنا دون قصد من أحد! واستيقظت التفاصيل الصغيرة اللذيذة المنسية النائمة في خفايا الذاكرة، الغارقة في ثنايا النسيان. استيقظت تتوهّج بشكل مفاجئ، وكأنها تحدث الآن، وانفجرت في قلوبنا أحلام الخلاص، مع أن مخاوفنا تقطعها وتسمّمها كريح السموم المقيتة. أنصت لهمس الطبيعة، لثغاء الحملان وضجيج الحياة، وحركة الأغنام المتمادية في الأفق عند الظهر، إلى الرعاة وحَلْب الأغنام. نسينا الخوف للحظات، فمشهد البادية في الربيع يصرفنا عنه، أو يجعل له وقعًا خفيفًا على النفس.

حين نوى سالم وأمه بعد الغذاء أن يعودوا إلى الرّقّة التفت إليّ بابتسامة:

-تحتاجين الثبوتيات، أختي أم مريم؟

قالها سالم أمام أبو سلطان! تذكّرت فسحبت المحفظة وأخرجت الأوراق:

-آسفة، والله نسيتها معي.

-لكنك تحتاجين لأوراق أخرى على الطريق، مازلنا في ديار خطرة!

التفت أبو سلطان يسأل، ولمّا فهم الموضوع قال:

-هذي محلولة، يا سالم، عندنا الكثير من دفاتر العائلة والهويات، ولا يهمّك، نقدر عليها.

طقطقت الأخشاب الرطبة، وتصاعد دخان الموقد! وكان يتحدث وهو يتلذذ بفنجان القهوة، يرتشف ثم يغبّ من السيجارة! وسرعان ما

شرد وتجهّم. نظر بعيدًا وتلوّن وجهه. استبدت به موجة حزن أخذته إلى رحلة بعيدة عزيزة، فبدا منفعلاً يعزف على نغم الذكريات العذبة من جديد! يروي قصصًا ومواقف لهاشم حين كانوا يرعون أغنامهم في مزرعة النجاة. سرت في داخلي عذوبة شجيّة عجيبة لكلماته!

أبو سلطان أكرم سالم وأمه، ومشى معهما إلى سيارتهما يودّعهما.

ثلاثة أيام أمضيتها في بيت أبو سلطان، أعيش مثل البدو. كنت أخرج مع أم سلطان ووجهها يتهلّل فرحًا وسعادة. مازالت تعاملني على أني زوجة المهندس هاشم مدير المزرعة! تحاول أن تنسّيني أنني هاربة مشرّدة لاجئة، تطلب العون في طريق نزوحها نحو المجهول!

كنتِ -يا مريم- فرحة مَرِحة. ينغصك في الليل نباحِ الكلاب فقط، أما في النهار فمشكلتكَ مع الَخروف المربوط، حين يفكّونه من الرباط يقترب منا، وتخافين وتصرخين. ينظر إلينا. يثغو كأنه يتحدّث. ينظر إليك يشمّكِ فتصرخين. أم سلطان تضحك وتسرع لتتلافى الأمر.

في مساء اليوم الثالث قررنا السير صباحًا. توتّرت ولم أنم. الهواء يشتد من الغرب، وحبات بَرَد قبيل الفجر لطمت بيت الشعر وطَقْطَقَت، ذكّرتني برشقات الرصاص في الرقة. ومع شعاع الشمس الأول نهضت أم سلطان تناديني وكنت مستيقظة أنتظر. بعد الإفطار أفصحت لي عن الخطة:

-يقول أبو سلطان: سنذهب إلى محَرْدة على طريق السَّلَمِيّة ثم حماه ثم محَرْدة!

-الله يحميكم ويكرمكم، أوصلوني إلى حماه فقط!

لوَّحَت أم سلطان بيدها مستنكرة:

-أبو سلطان مُصرّ على توصيلك لمحَرْدة.

- نصل حماه ونتّفق. الله يحفظكم من كلّ شرّ.

-الوضع غير آمن، قد يحتاج الأمر إلى ثبوتيات، بعيدًا عن انتمائك إلى محَرْدة. أنتِ اسمك مالكة أنت مالكة فيصل العوّاد!

-إذًا أنا بنتك.

-نعم.

-ومالكة، أين هي؟

- لا تشغلي بالك. هذي محلولة. مالكة في بيتها.

- وما الحاجة إلى ذلك ؟ كنت أتوقّع أن الخطر بقي ورائي!

-سوريا الآن كلها خطر، يقول أبو سلطان.

ومدّت أم سلطان يدها:

-دفتر العائلة، واللهجة ما هي غريبة عليك! أنت بنتي مالكة.

وأشارت إلى مريم:

-وهذي بنتك أميرة. تعبانة، والآن نأخذها لطبيب مختصّ!

كنّا جاهزين، ننتظر أبو سلطان ليأتي، وحين جاء تحدّث بكثير من الوقار والحماسة! يتأمّل أمامه في العشب الأخضر على السفح، ووجهه يفصح عن كثير من الألم:

-اليوم نتوكل على الله. نرافقك أنا وأم سلطان.

قالها وبيده السيجارة، ويسري من عينيه وميض أَنَفَة وكبرياء، وعيناه تقدحان شررًا. ينظر في الأفق نظرات أسى محتجّة:

-اليوم أخذوا الشيخ بحجّة ثأر قديم.

جمدت أم سلطان، وضربت على صدرها:

-شيخنا؟

-نعم.

-وما علاقته؟

-تهون إن شاء الله، تهون.

- يا أبو سلطان، الوضع عندكم أسهل، المصيبة وقعت على رأس المدن والبلدات، مثل ما صار بالرقة عندنا!

-ما هو أسهل. البلاء عام، يا أم مريم. ثم أضاف وهو يرمي عقب السيجارة:

-كنا بألف نعيم. وكل واحد له وزنه وله حدوده. اليوم طلعت لنا وجوه ما أحد يعرف أصلها ولا فصلها!

- 3 -

كم كنت مشتاقة إلى الرحيل! لعلّ السبب أنّي متوجهة إلى ملاعب طفولتي وصباي، إلى محَرْدة. سيارة أبو سلطان بيك آب تويوتا وأنتِ في حضني، يا مريم. ركبت في المقعد الخلفي، في حين ركبت أم سلطان في المقعد الأمامي بجوار أبو سلطان. وانطلقت السيارة!

-السير بالنهار آمن.

يقول أبو سلطان.

في الطريق لم يشغّل الراديو، وكأنّه لا يستعمله! كنّا نغتسل بهواء الربيع رغم كل أوجاعنا. نبتسم ونطرد القلق بالأحاديث الجانبية. يتحدّث أبو سلطان معي ومع أم سلطان ولا يسكت. يحدّثني عن أوجاعهم ومشاغلهم. عرفت أن قريبهم، ابن عمه قُتل خطأ مع عائلته بكاملها نتيجة قصف متبادل على طريق خناصر بين الدولة ومعارضيها.

سرنا في البداية عبر «المِتْياهَة» وأبو سلطان يتحدّث:

-سنة 2010 أنت وأبو مريم جئتم إلينا، الله يرجّعه بالخير، وهناك عند تلك الظهرة أكلنا الكما.. سنة الخَصْبَة!

- أنا ما نسيت هذه الأماكن يا أبو سلطان، ولا ممكن أن أنسى تلك الأيام.

تتحدّث أم سلطان معي. أشاركهم في الحديث أحيانًا. لكن عقلي واهتمامي في دنيا بعيدة. يشرح أبو سلطان:

-هذا «كَنْب الحَباري». وبهذا الاتجاه «أورْتُوازيّة العَمَّالة» وبهذه الجهة «فكّة الضِّلْعَة» وبعد الفكّة في نفس الاتجاه يقع «الحَماد». نحن على الطريق العام، طريق الرّقّة - السَّلَمِيّة. نحن نمشي باتجاه «إسِرْيَة» و«السّعِن» ثم «الشيخ هلال» و«السَّلَمِيّة» وبعدها حَماه!

كنت أعرف الطريق بين «السَّلَمِيّة» و«الرقّة»، ولكن ما يحدثني عنه أبو سلطان من أماكن كنت أجهله. كل ما أعرف أن هذه البادية في الربيع خضراء جميلة، وفي الصيف جرداء مفزعة!

يشير بيده، ويتحدّث، وينتقل بحديثه من أم سلطان إليّ، أو العكس. تسير بنا السيارة، وحشرات الربيع ترتطم بالزجاج الأمامي، وقد اجتزنا وديانًا خضراء بعد «كَنْب الحَباري» و«دَلْبُوح» باتجاه «السَّلَمِيّة». يجتاحنا عطر الطبيعة، ونعبر قطعانًا من المواشي تسرح في الأُفق الأخضر على مد البصر فوقنا زرقة جميلة تسقف السماء، وتعبرها غيوم مبعثرة وأحيانًا أسراب من الطيور!

سيارة مَدَنيّة على يمين الطريق مصابة بقذيفة وبجانبها حفرة. ومجموعة من الكلاب المتوحشة ترقد، وتعبث في الحفرة بالقرب من السيارة مثل حرس البادية!

روائح قاسية، قاتلة، سدّت أنوفنا كأنها روائح جيف متفسخة! تسرّب إلى نفسي شعور بغيض.

-هل تأتي الرائحة من السيارة المعطوبة؟

-يمكن من حيوانات ميتة حولها.

-الله أعلم.

قلت، وأنا أفكّر في تلك الجائحة التي أصابت بلادنا الآمنة!

صعدت الشمس بين زخات المطر والغيوم الربيعية المتفرّقة. تسلّل من ضيائها نور دافئ غمرنا في السيارة. فاحت رائحة الربيع بعد المطر. ابتلّ قلبي برائحة الندى فانتعشت ونسيت قليلًا الروائح التي كنّا نشمّها قبل قليل.

المدّ الأخضر على يمين الطريق وشماله في كل اتجاه. السنابل ترتفع وتهتز على نسمات الهواء. تهتز وتتمايل. وتطير الطيور فوقنا وحولنا. دفء الشمس وعطور الطبيعة السورية في الربيع دبّت في رأسك -يا مريم- هدَّأتك، فغفوتِ على كتفي، في نومٍ عميق.

أبو سلطان لا يتوقف عن الشرح:

-هناك «إسِرْيَة» وهناك في هذا الاتجاه «السّعِن»!

بدأت طبيعة الأرض تتغيّر. أصبحت أكثر صلابة، وملأى بالحجارة. مرّت الغيمة التي أمطرت، وغزت الشمس الطبيعة، فباتت تسطع قوية ناصعة تبدّد بعض الغيوم المتناثرة. رائحة الخضرة تعبق، وفي الأفق بدت قطعان من الأغنام. كنّا نقطع وديانًا وهضابًا. بلغنا أماكن تتناثر فيها البيوت، فتكاثرت المزروعات حول الطريق. نرى جماعات من نسوة ورجال، في المد الأخضر نساء يحملن قدورًا على رؤوسهنّ وأخريات يحملن الحطب. أغنام ترعى في السفوح، وأولاد يلعبون بكرة.

-اقتربنا من ضواحي «إسِرْيَة»!

قال أبو سلطان.

كنت أعرف المنطقة سابقًا، ولكن لم أعرف لماذا غابت معالمها! صرت أتفحّص المعالم، وتأكدت أنها فعلا «إسِرْية»!

قبل أن نصل إلى البلدة، رأينا حاجزًا ضخمًا. عناصر ينتشرون بتأهّب يصوّبون بنادقهم نحونا من وراء أكياس متراكمة. موقع الحاجز كان استراحة يقف فيها المسافرون. ويرودها بعض الساكنين في المنطقة. كنت أنا وهاشم في أسفارنا نرتاح هنا، فنشرب الماء البارد والقهوة والعصائر. لها ذكريات عزيزة، يا مريم.

العلم السوري يخفق. صورة الرئيس السوري السابق حافظ الأسد. صورة الرئيس السوري الحالي بشار الأسد.

عسكري يدخّن، ويدلّك لحيته الكثّة. أدخل رأسه في نافذة السيارة ففاحت رائحة عفنة مقيتة. يبرطم بلغة جديدة عليّ، ويشير بيده إلى داخل السيارة، وكأنه يشير إلينا، ويلتفت إلى المترجم! أبو سلطان لم ينزِّل يديه عن المقود، ولم يطفئ المحرك. ينتظر.

أفهمنا المترجم أنهم يريدون تفتيشنا. نزلنا، وفتّشوا السيارة، وأمطرونا بسيل من الأسئلة:

-من أين جئتم؟ إلى أين تذهبون؟ لماذا؟ إلى من؟ متى تعودون؟ ماذا رأيتم على الطريق؟ متى سرتم من البيت؟ كيف الحياة هناك؟

فتّشوا الحقائب، وعبثوا بمحتوياتها. انهمك أبو سلطان بالحديث معهم، وهم يدقّقون في الهويات، وكأننا على بوّابة دخول إلى دولة ثانية!

انفجرتِ-يا مريم- بالبكاء والتصقتِ بي أكثر. ترتجفين خائفة حين شاهدتِ الأسلحة والعناصر، وكأنك تذكرتِ مأساة والدكِ. ترتعشين وقد ارتفع بكاؤك مزعجًا مربكًا، فكنتِ السبب في تعجيل خلاصنا من التقصّي والتحقيق!

تعلّق أم سلطان بعدما تجاوزنا الحاجز:

-البليّة يرطن بكلام أجنبي ورائحته عفن. ذبحنا، الله يكرثه!

كان أبو سلطان يدمدم بألفاظ قاسية غاضبة:

-هذا من إيران. كثرت البرطمة في بلدنا، يا أم مريم!

-مصيبتنا كبيرة، يا أبو سلطان.

- خرجت من حدود داعش طلع بوجهي الإيراني. اللعنة عليه وعلى داعش!

كانت أم سلطان تهدّئه، تحاول أن تُطفئ انفعاله، وتطلب منه ألّا يثور إذا تعرضنا لحالة مشابهة. في «إسِرْية» توقفنا للتزوّد بالوقود واشترينا من حانوت بعض المشروبات والسكاكر.

تجاوزنا جرّارًا، في صندوقه الحديدي بعض الأغنام مع بعض النسوة. عبرناه والسائق يتشبّث بالمقود ويلف الشماغ على رأسه بإحكام بوجه الهواء كي لا يطير! في الطريق كثرت الحفر. تخضنا السّيارة خضًّا مزعجًا. استغربتُ! من أين جاءت كل هذه الحفر القاسية؟

تسير بنا السيارة، ونتحدث أحاديث متنوّعة. تعود بي الذاكرة إلى هاشم، إلى الماضي العذب، حين كنا نمر على هذا الطريق بالحافلة التابعة للشركة الأهلية، أو بسيارة المزرعة «النيفا».

أسير باتجاه محَرْدة وقلبي خائف! والدي شيخ مُسنّ. أقاربي قِلّة فقد هاجر معظمهم. خسرتُ أمّي، ثم عمتي خديجة. لا أعرف مصير هاشم ولا بشير. لو ترك لي القدر واحدًا ممَّن يخافون عليّ! لو ترك لي عمتي خديجة. عمتي خديجة فقط من أجلكِ، يا مريم! ترى هل أنت حيّ، يا هاشم؟ هل أراك من جديد؟

كنت أغزل أحلامي بحسب ما أشتهي. أمنّي النفس بمستقبل ورديّ بعد زواجي من والدكِ. رسمته بطريقتي لا كما يرسمه لي القدر! أختنق من وضعي! لماذا؟ لماذا وُجدَت؟ لماذا أعاني؟ ما ذنب صغيرتي؟ أتوقّف عن هذه الأفكار، وأطلبُ المغفرة!

عادت زخات مطر تهمي من جديد. طارت مجموعة من الطيور العابرة وحلّقت عاليًا، ثم هوت منحدرة نحو أشجار صغيرة متناثرة، تبحث عن ملجأ من المطر. بومة تقف على صخرة عالية هربت منا، ونشرت الكآبة في المشهد الربيعي! لم يعد حول الطريق بيوت. لا شيء سوى بعض قطعان نشاهدها من بعيد.

كنا نسير باتجاه السَّلَمِيّة، وقد تجاوزنا السّعن، والوقت بعد الظهر. لحقت بنا ثلاث سيارات مسرعة من جهة الشرق، وقد أشعلت الأضواء. كنا في مسافة لا تبتعد كثيرًا عن نقطة للجيش النظامي. قال أبو سلطان:

-أمرهم هيّن. بسيطة بسيطة، إن شاء الله.

انعطف قليلاً إلى اليمين ووقف. ينظر بإمعان متوجّس، كأنه يخشى أن يفصح عن خوفه أمام نساء! توقّفت السيارات، وحين ترجّلوا واقتربوا تذكرت التكبير الأسود الدموي! اللِّحى متشابهة. الخوف يبتلع العزيمة. أغنام تسرح ورعاة من بعيد كأنهم ينظرون مستطلعين. أدرتُ وجهك -يا مريم- باتجاه صدري. تيبّس حلقي.

يحيطون بنا ويرتدون الأسود. وجوههم ضاعت ملامحها بعدما التهمتها غابة من الشعر والهزال. تشبه تلك الوجوه في الرّقّة. طوّقونا وأمرونا أن ننزل عن الطريق العام إلى طريق ترابية في الأسفل،

ضربت بطن السيارة في الإسفلت حين أنزلها أبو سلطان على منحدر الطريق الترابية بمحاذاته. يمطروننا بالأسئلة ويتفحّصوننا تحت مطر خفيف يهطل. فجأة باغتنا إطلاق رصاص. نظرتِ -يا مريم- مذعورة وحرّكتِ رأسك كالعصفور، وتشنّجت بلمح البصر. أبو سلطان يتلفّت بوجه غريب. تتسارع حركاتهم ويتّخذون مواقع دفاعيّة، ومنهم من يبحث عن ملجأ.

أحدهم اتخذ من السيارة متراسًا. الرصاص يرتطم بالتراب والحجارة وصراخكِ -يا مريم- يدوّي فأبكي معكِ وركبتاي ترتعشان. يصيح أبو سلطان:

-الأرض الأرض!

بلمح البصر نزلنا وانبطحنا على الأرض بانت رجلي مع البنطال من تحت العباءة. خفت منهم، وجلست لأغطّي البنطال. يصرخ أبو سلطان:

-الأرض الأرض، يا أم مريم انبطحي!

كنت أضغط رأسك -يا مريم- على الأرض، وأنت تبكين وترتجفين. أم سلطان بجانبي وترتجف مثلي. تكبير فوقنا على الطريق. سقط ملثّم كان يسدّد وهو يركض ويهتف «الله أكبر». ارتطمت جثته بالأرض بالقرب منّا، وجهه تجاهنا، دمه يسيل وتجحظ عيناه كأنهما تحدّقان بنا، أو تبحثان عن حياة! رفاقه ينتشرون أسفل الطريق وفوقه وبين السيارات. يصرخون ويطلقون النار. أجسادنا تلتصق بالأرض ننتظر النهاية. تعالى صراخ التكبير، والرصاص يطقطق. يطنّ طنينًا قويًا مفزعًا يعبر الأفق من فوقنا، له صوت مثل صفير الجن. يصطدم بالأرض أو بالسيارات. على يميني كان أحد الملثّمين يتّكئ فوق صندوق السيارة. يسدّد ويطلق رشقات من الرصاص. صوت الرصاص يرتطم

بالصندوق كأنّه وَقْعُ برَدٍ على خيمة. أصاب الرصاص جسده. تهاوى يميل على طرفه، وتشبث بطرف السيارة، حاول أن ينهض ولم يتمكّن. وقعت البارودة من يده، وارتمى على الأرض بذراعين ممدودتين على جانبيه، كأنّه تعب من قيادة جرّار في مزرعة النجاة. انفكّ لثامه فبدت ذقنه كأنها ملوّثة بحنّاء وينزل منها الدم الأحمر. ارتعد جسمه وخفقت يداه مثل جناحي طائر علق بفخ. ارتعش رعشة قوية، ثم جمد بجانب السيارة بلا حراك. أخذت البقعة الداكنة تتسع حوله، ومن جسده يخرج بخار. بدا لي من انكماش كفّيه، ومن التقلّصات حول عينيه، أنه كان يتعذّب ويستجدي الحياة!

يا مريم، بقيتِ تصرخين، جاحظة العينين، حتى اختفى صوتك وتيبّستِ كالعمود. كأنك قطعة خشب. اضطربتُ بين خوفي على حياتي وخوفي عليك. أبو سلطان منبطح يراقبنا بعين قلقة، ويصرخ:

-الأرض... ابقوا منبطحين.

أم سلطان تتشبث بيدي ملتصقة بالأرض، تحبس أنفاسها مثلي. تغمغم بدعاء، وتردّد مفردات تذكّرني بعمّتي خديجة ولا أفهم منها شيئًا في هذا الجحيم.

أشاهد الرؤوس الملثّمة تكبّر وتكبّر وتتحرّك كالخفافيش بين السيارات وتسدّد. الرصاص المتبادل ملأ المكان. صرخات وتكبير. صرخة من وراء السيارة الأخيرة. مقاتل ارتمى متدحرجًا بالقرب منّا وانقلب على ظهره ووجهه ناحيتنا كأنه يستنجد بنا. سال الدم من جسده، وانحدر عبر ميلان الأرض! كان جَوّاله يرنّ. يرنّ الجوال، والحمرة تعبر المنحدر باتجاهنا. يرفع يده، كأنّه يريد أن يتناول شيئًا. يرفعها في الهواء لكنها لا تطيعه. ثم يكرّر المحاولة ويرتجف! رأيت وجهه، بدا لي وجه فتى، حتى لحيته لم تنبت بعد.

غلبتني الشفقة عليه. أقول في نفسي: ربما كان أحد الذين شاركوا في تلك الهجمة البربرية علينا! لا أدري! ومع ذلك أتمنى لو أساعده فهو فتى لم يعرف الحياة، وقد غُرِّر به. يمرّ بعض رفاقه من فوقه، ولا أحد يهتم بإسعافه. تقطع أفكاري عنه رجفة ضعيفة من جسده تبدو لي الرجفة الأخيرة.

زخّات الرصاص وارتجاف أم سلطان بقربي تعيدني إلى التفكير بالخطر الذي حولي. أنكمش وأضغط عليكِ -يا مريم- وأنت ترتجفين وتئنّين. المطر يعجن التراب بالدم. تعالى تكبير جديد. تكبير وتكبير. تراجع صوت الرصاص. أصبح بعيدًا. لحظات وتوقفت الأصوات.

هل هي دقائق؟ ساعات؟ أيام؟ زمن دام أطول من عمري بأكمله؟

حين انتهت المعركة رفع أبو سلطان رأسه وقال بصوت واهن يابس مبحوح:

-مجزرة مروّعة.

راح يتفقدنا. كنتُ شبه غائبة عن الدنيا. أم سلطان حين نظرت إليّ أخذت تبكي:

-ما صدّقت! معقول طلعنا منها؟

- بضع رصاصات في الصندوق وهذا الثقب في الزجاج فقط. الحمد لله العجلات بخير.

يطمئننا أبو سلطان.

ننظر إليهم يجرّون قتلاهم إلى شاحنة هونداي وصلت للتو. لم ينشغلوا بنا. نسوا السيارة ومَنْ فيها، ونقلوا جثثهم إلى سيارات أخرى، وصرنا نسمع أصوات رصاص بعيدة عنا:

-يقومون بتغطية حتى ينقلوا الجثث!

بهذه الكلمات يهمس أبو سلطان.

رفعت رأسي، فشعرت أن الأرض تتمايل وتهتز كأن زلزالًا يقع. تماسكت، وساعدني أبو سلطان بحملكِ إلى السيارة. كنا مبتلين بالمطر والوحل والموت، وكأننا قادمون من وادي جهنم! الحياة غالية! ركبنا بالسيارة وانطلقنا.

كان قد بقي ثلاثة منهم لحراسة السيارات المعطوبة. لم يهتموا بنا، وكأننا طالع شرّ يريدون التخلص منه!

آه، يا مريم. حين شاهدتهم يكبّرون متوجّهين نحو الموت تذكّرت في تلك اللحظات فلسفة والدكِ في الدين، وتزداد قناعتي أن تلك الآراء بعيدة المنال، وأنها وهم له بريق كاذب لا يتناسب مع الواقع أبدًا.

- «يا سارة سنتزوج. لا تقلقي. الدين مشكلته بسيطة! الدين نتوارثه، فنقوم أحيانًا ببعض الممارسات الدينية، نتظاهر بالإيمان بها، ونحن ندرك في خفايا نفوسنا أننا نمارس طقوسًا لا نفهمها، ولو تأملنا السبب الذي يدفعنا لوجدناه لا يعدو أن يكون خوفًا من خسارة مجهول نخشاه، فنحاول أن نؤمن به، أو خوفًا من خسارة تصغرنا بنظر المجتمع!»

آه -يا مريم- لو كان والدك يرى الآن واقع بلده سوريا التي كان يعتبرها دليلًا على تعايش الأديان! آه. ترى هل سيبقى على تلك الآراء؟ إنه الواقع المر، يا بنتي. الواقع الذي أدخل التعصب في الدين وأدخله في السياسة، ليحوّله إلى مأساة. إلى مرض فَتّاك مثل الطاعون، يحرق الأخضر واليابس.

يا مريم، في واقع الحروب يصبح القتل مشروعًا، والقتلة في نظر جماعتهم يوصفون بالأبطال، وللأسف كل فريق يعتزّ بوجود مثل

هؤلاء في صفه. وإذا قُتل أحدهم يتحوّل إلى شهيد، تُقام له الاحتفالات ويدوَّن اسمه بين الأبطال الشهداء. كل فريق يعتبر أنه ينفذ حكم الله، والنتيجة فِتنٌ وذبحٌ! هذا هو الواقع ، يا بنتي.

بعدما خرجنا من تلك المحرقة الجهنمية انطلقنا من جديد، وصارت الغيوم تسير وتتكاثف فوقنا منذرةً بمطر سيّال، لا مزنة عابرة.

تجاوزنا العديد من القرى كالهاربين من الموت. وكلما اقتربنا من «السَّلمِيّة» يزداد خوفي.

يعود أبو سلطان ليشرح كأنما يريد بذلك أن يطمئننا:

-هذه مناطق يتنازع عليها الطرفان الثوار والدولة.

تأثرت وارتبكت حين قال لأم سلطان:

-إذا أخذوني اهتمي بعائلة الأستاذ هاشم!

-لماذا يأخذونك يا أبو سلطان؟

تسأله.

-ومن يدري؟ قد تخرج علينا جماعة مسلحة بأي لحظة. قُطّاع طرق ميليشيات. ثوّار. مسلّحون. جيش الدولة. جيش الإسلام. جيش الله. ويطلبون فدية!

لما اقتربنا من بلدة «الشيخ هلال» من دون أن ننتبه فاجأتنا مجموعة سيارات من الغرب تتجه نحونا مسرعة! شاهدَتهم في البداية أم سلطان!

تنظر إليّ أم سلطان كأنها تخاطبني، وتطلب مني التماسك، في حين أرى القلق والخوف في وجهها! أقول في نفسي: «ما هذه المصيبة؟ أما من نهاية لهذه المصائب؟»

ملثّمون ثلاثة، نزلوا من سيارة. والبقية طوَّقونا! الخوف يجعلني أخفي رجفتي!

الهويات، كالمعتاد، كانت جاهزة. صرت قريبة من حماه أخشى أنهم يعرفونني. ماذا لو كان بينهم زميل سابق في الجامعة؟ الكل قد يمارس الجريمة هذه الأيّام! ممكن، كل شيء ممكن! ماذا لو اكتشفوا الذهب؟ هل يتركوننا أحياء؟ أفكّر: «لو حقّقوا معي ما تمكنت من تقديم إجابات متماسكة ومقنعة، من المؤكّد أني سأنهار!»

ينتشرون حول السيارة مصوّبين بنادق حربية. يصوّبونها نحونا. يرتدون لباسًا مختلفًا يغلب عليه لباس المنطقة. البنطال والجاكيت! صوّبوا على رأس أبو سلطان، الاضطراب في قلب أم سلطان انتقل إليّ.

ينظر فينا أحدهم. كانت رائحة ضحاياه تنتشر من جسده، والعنف بادٍ في عينيه، وفي نظراته وحركته. كل ما في منظره يصرخ، ويشير إليه:

-قاتل!

بعثروا أشيائي الخاصة في المحفظتين. صرت ضعيفة. ما عدت قادرة على تحمّل هذا الرعب، فرحلت في دوامة من ظلام. لم أعد إلى صحوي إلا على رشقات الماء من أم سالم، وصراخكِ، يا مريم! للمرة الثانية نخرج أحياءً من دوّامة جهنمية!

-قطّاع طرق من هذه المنطقة بمظهر شبّيحة، لا يعرفون الحلال من الحرام. مثل هؤلاء كانوا في الأساس مجرمين، والآن وقتهم. موسمهم! فالفوضى قوّت شوكتهم، وسهّلت لهم ارتكاب الجرائم والقتل.

هكذا أوضح أبو سلطان، في حين كانت حركة السيارة تهزّنا بقسوة، بعد أن ارتطمت بحفرة لم يتنبّه لها أبو سلطان.

وصلنا حاجزًا للجيش بعد «الشيخ هلال» باتجاه «السَّلَمِيّة»، فقال أبو سلطان:

-هنا بدأت المنطقة الآمنة! اخلعوا القيود.

وبسرعة خلعت العباءة والغطاء عن رأسي، وشعرت كأنني خرجت من مغارة ضباع! في حين خلعت أم سلطان العباءة السوداء وأزالت النقاب عن وجهها، وعلّقت:

-الله يسوّد أيامهم. سوّدوا حياتنا.

أخجل وأشفق على أبو سلطان لكثرة ما واجهنا، وبرغم كل ما حدث لم تفارقه العزيمة ولا التفاؤل! يشعرني أنه المسؤول عن أماني، وعن حياتي، فقال ليطمئنني:

-يتهمون قبيلتنا أنها مع الدولة، وتُصَدّر شبّيحة. يحاولون أن يجدوا حُجَّة علينا، ولكن نأينا بأنفسنا. وَسَخ -يا بنتي- وَسَخ. البُعد حكمة بمثل هذه الظروف! الحمد لله أنك وصلتِ بخير مع ابنتكِ. هذه حماه اقتربت.

وحين شاهدت المدينة من بعيد أخذتني الصدمة! كأني كنت أسيرة، ولم أزرها منذ سنوات. كررت بلهفة:

-حماه. إنها حماه!

حاولت إقناع أبو سلطان أن ينزلني في حماه ويعود إلى بيته، لكنه أصرّ أن يكمل الطريق إلى محَرْدة واشترط الاعتذار عن تلبية الضيافة، حتى لا يتأخر في ظل هذه الأوضاع الصعبة، يريد العودة إلى بيته وحلاله سريعًا. طال جدالنا ونحن واقفون في حماه، حتى تمكّنتُ من إقناعه بأن آخذ سيارة إلى محَرْدة.

-الحافلات أفضل من سيارة الأجرة في هذه الظروف.

-أقبل بتوصيلي إلى كراج الحافلات إذن.

ولم يتحرّكوا حتى أوصلوني إلى كراج الحافلات، ثم أعطيتهم دفتر العائلة الخاص بمالكة. ودّعوني وافترقنا وأنا أشكرهم. لكن أيّ شكرٍ يكفي ليعادل هذا الخطر الذي تعرّضوا له بسببي؟ إنّها طيبة أهل تلك المنطقة وشهامتهم.

- 4 -

تخيلتُ نفسي -يا مريم- أسيرًا خسر المعركة، فقد يده أو نظره أو سمعه، وعاد إلى أهله مُهانًا!

رائحة زهر الليمون، والياسمين والحبق، والجوري أشعرتني أني نبتة عادت إلى تربتها. كأنّي طفل عذّبه أولاد أشقياء ورجع إلى أمه يبكي! صوت فيروز.. جورج وسوف.. جوني رحال. وائل كفوري.. سامر جمعة.. إنّها محَرْدة. في الشارع الفرعي الضيّق دخلت أجرُّ المحفظتين، وكنتِ تسيرين بجانبي، هل تذكرين- يا مريم؟

همس الجارات، القهقهات، صراخ الأطفال، قدّاس الأحد، نهر العاصي، أشياء بدأت تستفيق في الذاكرة، فتتحرّك وتصحو من جديد في داخلي. لمّا وصلت المنزل شعرت أني وصلت مستراحًا أبديًا، مثل رحّالة غامر في مسافات موحشة طويلة، وأضناه التعب والسير ثم وصل أخيرًا.

عصفٌ من الحنين حرّك الدموع في قلبي، وسال الوجع على خدي ليغسلني في حضن محَرْدة! تُرى هل أجد سارة الطفلة، المراهقة، الشابّة؟ هل أجد رائحة أمي، وألمس جدران غرفتي وأدور في فضاء الحوش بين زهر الليمون والدالية والبرتقال والجوري؟

من حسنات والدي أنه يحب المزروعات، يعتني بالياسمين والجوري والليمون والبرتقال والعنب! لا يصرفه شيء عن الاهتمام بها! حين شاهدت أشجار الليمون والبرتقال تعلو فوق سور الحوش توقعت أن والدي مازال قويًا. كنت مثل أبناء محَرْدة المغتربين حين يأتون بعد سنين طويلة. يأتي أحدهم إلى البيت، ويبحث عن مشاعر وعواطف تركها يافعة حارّة، فإذا بها جفَّت وذبلَت ويبست منذ سنين. يرى أن بيته ليس بيته. الحارة ليست الحارة، ولا الأصدقاء. أقترب من بيتنا وكأنه ليس بيتنا. الجدران شاخت والبابِ تشقق والأشجار ارتفعت معمّرة. لكن الرّب كان معي.

طرقت الباب فلم يردّ أحد. دوّرت يد الباب، ودفعته بيدي كما كنت أفعل أيام زمان، حين أعود من الجامعة، فانفتح. وسرعان ما استيقظت سارة بنت محَرْدة وانتفضت جذوري حيّة، فأورقتُ في تربتي، بلمح البصر!

كانت أمي تتركني ألهو مع أترابي طيلة السّهر في الصيف، وعندما تناديني خوفًا عليّ تُبدِّد مخاوفي، وهي تقول:

-ماما سارة، تعالي كلي وارجعي.

-سارة إلى النوم!

-سارة لا تتأخري.

في محَرْدة نشأت، يا بنتي، يا مريم. وهنا عاشت جدتكِ والدة أمك المدرّسة المشهورة صباح القاضي. تركَتني برعمًا ضعيفًا في الثامنة من عمري، ورحلَت. تركتني للوحدة مع أبي المدمن، وتحت رحمة عمّتي ليلى!

نداءات أمي أسمعها في الجدران. في الأشجار. في رائحة الحجارة القديمة بالبيت.

حين دخلت غرفة الجلوس وجدت والدي، بيده جهاز التلفاز وأمامه كأس الخمر!

-ادخلي يا ليلى!

يظنّني عمتي ليلى!

ذهلت من تغيّره! أنظر إليه، وجهاز التلفاز يهتزّ بيده التي ترتعش. كان متكوّرًا أكل الزمن شحمه ولحمه. لم يبق إلا الجلد وبقايا عظام هشة. الشيخوخة نخرته نخرًا، والزمن قَهَرَه مبكّرًا، حين أخذ والدتي وتركه وحيدًا يصارع الحياة ببؤس الشقاء!

لم يكترث لوجودي. يرتشف ويقلّب المحطات بيدين مرتعشتين. كنت أنظر إلى ارتعاش يديه، والشيب في رأسه، وتقوّس ظهره، وتكوّر جسده، وهو جالس! حالة حنان، وغفران، ورقّة، وألم. مشاعر سامية نبيلة متألّمة أذابت كل أخطاء والدي بنظري. يعلم الله وحده ما الأسباب التي دفعته إلى ما انتهى إليه!

كان منهكًا مهزومًا مثل قطعة قماش، تهزّها رياح على شرفة منسية أكلها الغبار. يعيش عجزًا ورتابة وفراغًا ووحدة موحشة! نزفت جروحي وزادت أوجاعي فوق مصيبتي!

نظر إليّ بعينين بائستين كأنه يبحث عن نجدة تنشله من بؤسه، وقد ضعفت حاله. يسحب نَفَسه بضعف شديد. يتفحّص بنظراته. الإنارة ضئيلة، ونور الشمس كان ضعيفًا حين دخلت عليه!

-سارة! يا ربي! بنتي سارة؟

قالها بوهن حين شاهدني، وتأمل فيكِ -يا مريم- مبتسمًا، ثم بدأ فكّه يرتجف مع الابتسامة، وينظر فيّ:

-يا بنتي، يا سارة، صدّقتِ أنني لا أريد أن أراكِ؟

أحبس دمعتي وأكابر. يسألني كيف وصلت ويعبّر عن فرحه بوصولي سالمة مع ابنتي. وما إن سألني عن أخبار هاشم، حتى انهار تماسكي، وانخرطت في بكاء حادّ!

مسح على رأسكِ يا مريم، وبكى معي. أنا سارة التي كانت تهتمّ به، والتي لم تغضبه طيلة عمرها، إلاّ بزواجها. لكنه في الوقت نفسه لم يكن معارضًا بحدة، فقد قال لعمتي ليلى:

-أنا غير موافق، لكنها حياتها!

ولما اعترض عمي جورج على زواجي واتصل من الشام ردّ والدي عليه.

-نعم. إنّ الشاب من غير الطائفة، أنا غاضب وسأقاطعها، لكن ماذا أفعل؟ هي حرّة في خيارها. وهل من عاداتنا أن نجبر بناتنا؟ ثم إنّي أثق بها!

اقتربت منه وقبلته بروح الطفلة سارة. أبحث عن أبوّته وعن الأمان. عن قوة رجل تحميني، ولكن أين هو ذاك الرجل؟ فأبي يحتاج إلى حمايتي! أسأله:

-من يزورك!

-الجيران والأقارب وعمتك ليلى.

-من يسقي الشجر والمزروعات؟

-أنا. عزمي قوي، يا بنتي! وعمتك ما قطعَتني. تنظف البيت، تمر عليّ هي أو بنتها روعة أو ابنها زياد.

-ماذا عن بيت أبو يعقوب؟

-بخير يا بنتي!

-وجارتنا ماريا أم ميشيل؟

-لا بأس. تمشّي حالها.

-وبيت إلياس جارنا؟

-بعد هجرة ولدهم تغيّروا.

-والجيران؟ وأبو حنّا؟ وخالتي؟

لا أجد عنده كل الأجوبة، فهو يكاد لا يخرج، وبعض الذين أسأل عنهم لا يزورونه.

أصمت وألتصق به وأقول:

-تسامحني يا بابا؟

مدّ يده من جديد إلى وجهي، تهزّه عبرات الشيخوخة:

-وهل أستطيع أن أغضب عليكِ يا سارة؟

يمشي والدي بصعوبة. يتوكّأ على الجدار، ويدبّ دبيبًا، ثم سرعان ما يتعب ويتهالك على أقرب مكان. صبرت كثيرًا بعد وصولي وأنا أتعايش مع الوضع الجديد.

كنت أبحث عن صديقتي رنا شلهوب، صديقة الروح. ولمّا سألت والدي أكّد لي أنّها استقرّت في فرنسا.

لقد هاجرت رنا! ورحت أبحث عن طريقة أتصل بها من جديد. وعبر الفيس لقطتها وتواصلتُ معها، وأخبرتها أني في محَرْدة.

ذات مساء رنّ الهاتف. عرفت الصوت:

-رنا؟ أهلاً أهلاً.

-اتصلت حتى أسمع صوتك وأطمئن. الحمد لله على سلامتك!

-الله يسلمك.

دار بيننا حديث طويل تقصّت فيه أخباري، وتحدثنا عن ذكريات الحافلة والجامعة والمشاوير. وبعد الحديث عن الجحيم الذي يجتاحنا في سوريا قالت:

-أنا أنصحك بالهجرة يا سارة!

أصمت. الهجرة ليست مجرّد كلمة! تضيف:

-الهجرة تجعلك تجددين حياتك من جديد!

-كيف؟

-قرّري وسأشرح لك.

يستمر الحديث لدقائق أخرى. هي تشجّعني وأنا أردّ بكلمات قليلة!

صديقتي رنا، المغتربة، جريئة وتحبّ المغامرة. حين كنا في الإعدادية والثانوية والجامعة كنت أغار من جرأتها مع الشباب. تقف معهم، وتحاورهم، تستدرجهم لتقوم بمقالب فتوقعهم بمواقف لا يُحْسَدون عليها! أما أنا فكنت أرتجف خوفًا من ردّة فعلهم.

تميّزها جرأتها وأحاديثها المجنونة منذ أن كنا في مدرسة الشرقية في الإعدادي. ثم ازدادت جرأتها مع الأيام في الجامعة. بقينا أصدقاء مع أني التحقتُ بقسم اللغة الإنكليزية، والتحقت هي بقسم اللغة الفرنسية. تقوم بمقالب جريئة حتى مع الأساتذة. تخرّجَت وتعيَّنَت معيدة وبقيَت كما هي! نتسكّع في العطل وبعد قدّاس الأحد، نذهب في نزهات على «كتف العاصي». في «دير محَرْدة» ننتظر الشباب. كنت أندهش وأضحك كثيرًا من مقالب رنا!

ازداد التواصل بيني وبينها، صرت أتخيّلها بمجرّد أن أفتح الفيس بوك. كانت تعني لي، من دون أن أشعر، ملاذًا قويًا ألجأ إليه! لماذا تغريني رفيقتي بالهجرة؟ هل هي قلقة ومتعَبة وتريدني بجانبها؟ أم إنها وجدت دنيا من السعادة، تريدني أعيشها معها؟ لماذا يا رنا تلحّين علي؟ أمور كثيرة تربك حساباتي! هاشم أين أنت يا هاشم؟

الرعب الذي عشته في الرّقّة عشّش واستقرّ في دمي، وأخذ يفرّخ هنا في محَرْدة. أعيش أحيانًا كوابيس فظيعة. أشاهد رجالاً ملثّمين يطاردونني في الظلام، أركض في الظلام، ولا أعرف كيف أسير؟ وإلى أين؟ أخاف من صوت خطاهم شهيق أنفاسهم خلفي. فوق رأسي. أركض خائفة. أختبئ في زاوية جدار ترابي قديم بائس بجانب سيارة. إنهم يبحثون عني وفي أيديهم سكاكين وبنادق. أحاول أن أكتم أنفاسي لأنجو. أنبطح على الأرض بجانب الجدار. هم في الظلام يبحثون عنّي، وأنا صامتة مرعوبة لا أتحرّك! يدورون حولي! هل ينوون قتلي؟ أحدهم يحرك السيف في الظلام بصوت يقطع الهواء فأصمت وأقطع نَفَسي. أمنع نفسي من البكاء. أرتجف. يرتفع السيف مع التكبير، وعندما يهوي السيف ويدوّي التكبير أصرخ وأصحو!

أملًا بمساعدة الرّب بدأت أتردّد على الكنيسة، أذهب مع عمتي ليلى وجارتنا أم ميشيل إلى قدّاس الأحد. ليس في البيت من يؤنس والدي إلا أنا، وأحيانًا تكون عمتي معي!

الوحدة تحاصرني بسور شَبَحيّ مخيف! أتساءل لماذا تتّجه سلالتنا نحو الانقراض؟ أقاربي هاجروا، وعمّي جورج بالشام لم ينجب إلا بنتًا واحدة، وأبي لم ينجب سواي. تمتد شجرتنا في التربة

السورية متجذرة قويّة في الحجارة، والتربة والماء والهواء! وكلّما تقدّم بها الزمن ضعُفت وتهاوَت. لم يبقَ منها إلا فروع قليلة، أخشى أن تتضاءل ولا تقاوم ريح السموم! عمتي ليلى توفي زوجها، لديها ولد وبنت! خالتي هاجرت إلى نيجيريا مع زوجها، واستقرا هناك، حتى رفيقة الطفولة والمراهقة والشباب رنا هاجرت! هل هي الأقدار؟

حين ترتفع الشمس في الصباح أخرج قليلاً. لا أشاهد سوى بعض العجائز، وقبل الغروب، حين تصفو السماء في أيار، وعبق الربيع يفوح من محَرْدة، أخرج كل يوم وأتمشى معكِ -يا مريم- في جنة محَرْدة. وعندما تبدأ نُذُر العتمة أحسّ بشيء يخنقني ويجثم فوق صدري! أفكّر بكوابيسي!

في بيتنا أتلفّت وحيدة في وحشتي، كطائر في قفص ينتظر الخلاص. كنت أنتظر قرارًا مصيريًا ينضج في رأسي، بعدما هدّني التردّد!

لم أعلّق على اقتراح الهجرة ولم أرفض. تؤثّر رنا في تفكيري وقراراتي بسبب قوّة شخصيتها، وذكريات الماضي الذي أهرب إليه، فليس لي ملجأ غيره. أترقّب التواصل معها. تأتي من عملها في الجامعة بمدينة ليون الفرنسية. بعد المحاضرات ووجبة الغذاء وأحيانًا في السهرة أستمع بنهم. أسأل وأسأل. يبدو أنها أدركت مدى تأثيرها فتلحّ. أطلب منها إيضاحات فتستفيض باندفاع وتفاصيل كثيرة!

مغرية كلماتها وخططها! جعلتني أرى عالم الغرب مثل حلم. جنّة الدنيا المفقودة. أقارن تلك الحياة مع جحيمي، وأهرب إلى كلماتها وإلى دفء ذكرياتها.

أتأمّل الصور الجميلة التي ترسلها لي. قلت لها:

-أريني بيتك!

تتجوّل وبيدها الجوّال، لتريني البيت عبر الكاميرا. أتأمل بيتها عبر الصور شقّة جميلة مرتّبة، لكنها صغيرة. غرفة صغيرة، فيها طاولة مكتبية وأريكة مع كرسي، وغرفة نومٍ حُشر فيها بصعوبة سرير وخزانة ألبسة، ومطبخ لا يتجاوز المتر طولاً وعرضًا.

ذات يوم كنت أجلس أمام والدي، وكنتِ تعبثين بالشوكة، وتطرقين على الصحن أمام جدّك، كأنك تكرّرين نغمًا في دمك من ذكريات عمتي خديجة، قررتُ أن أفاتح والدي بمسألة الهجرة:

-بابا، ما رأيك بالهجرة؟

من دون اهتمام هزّ رأسه مرارًا، وكأنّه لم يسمع ما قلته له! وبعد فترة صمت امتدَّت دقائق، نظر إليّ بتركيز:

-تزوّجتِ على كيفك. والآن، وقد تجاوز عمرك الثلاثين، بإمكانك أن تقرّري ما تشائين!

أهو الضياع أم الخوف؟ لم أناقشه، تكفيه أيامه الصعبة وأوجاع الشيخوخة.

صحة جدّك -يا مريم- بدأت تتدهور. وكأنّ القدر جلبني، لأكون بجانبه. ألازمه معظم الوقت وأقوم بكل ما يطلب. لكن هاجس الهجرة يلحّ علي.

ذات مرة صارحت عمتي ليلى برغبتي في الهجرة، بناءً على اقتراح صديقتي رنا. ظنّت عمتي أنّي أمزح:

-وأبوكِ! هل يوافق؟

-لا يعترض. ولكنّي بالي مشغول عليه وأشعر بتأنيب ضمير!

-نحن لم نكن ننتظر مجيئك. أنا موجودة. لكن الهجرة؟ الهجرة أخذت أولادنا كلهم، يا سارة. هذا قرار خاطئ.

- المشكلة أني أفكّر بطريقة الهجرة، إذ ليس أمامي إلا طريق المهرّبين!

-كيف؟ ماذا تقولين؟

قطّبت، وجحظت عيناها مستنكرة:

لا مستحيل هذا يا سارة. وبنتك؟ كيف تغامرين؟ اصرفي نظرك عن الموضوع.

-المشكلة أنها أفكار تراودني، وما عادت تغادر رأسي، وأبحث عن الطريق إلى التطبيق.

-ابعديها عن فكرك.

ضحكت. أيّدتُها بحركة من رأسي، وغيّرتُ الموضوع. ولكن رغبتي بالهجرة تزداد!

تأتي الأخبار من ريف حماه، أخبار سيّئة تفرّخ شائعات مرعبة. أصحاب التكبير الدموي يحاصرونني. ينخر ضجيجهم كالدّاء في جَسَدي ويبعثر قواي. تحاول عمتي ليلى أن تخفّف من رعبي ووساوسي. تؤكّد لي أن البلد أمان، وأن محَرْدة بخير. لكني أسمع أصوات القذائف، تدوّي من بعيد في الريف. أتذكر الصاروخ الذي دَمّر الفرن السياحي وتسبّب بمجزرة في الرقة. أتخيل البراميل المتفجرة، وصراخ النساء من الرعب!

اعتدت الذهاب إلى الكنيسة، وقوّيت علاقتي بها.أطيل في

الصلاة، وأنا أنظر إلى السيدة العذراء، فأرتوي روحيًّا وتملؤني السكينة!

زياراتي للكنيسة تذكّرني بعمتي خديجة حين كانت تأخذني معها إلى الجامع في الرقّة بعد أن تعلّمتُ الصلاة منها، وأعلنت إسلامي على طريقة هاشم. عندما كنت أصلّي كانت تنتابني مشاعر جليلة مطمئنة، وأشعر بالارتواء الروحي كما في الكنيسة!

أقارن بين صلاتي كمسلمة، وصلاتي في الكنيسة. أراهما تختلفان في الظاهر، كالاختلاف بين الجامع والكنيسة، لكنهما تتوجّهان إلى الله من بيتين مختلفين لله! شعرت بأن خشوعي مع عمتي خديجة في الجامع يشبه خشوعي أمام العذراء والمسيح! الصفاء الروحي نفسه. السموّ نفسه. يختلف عامة البشر في مناشدة الله في الظاهر، أما النوايا، أما المشاعر، أما الغاية الروحية، فإنها واحدة!

ذات مرّة انتظرت أبانا ليبارك تصرّفي! شيخ في الستّينات. عريض ضخم طويل القامة جادّ الملامح، في عينيه زهد طافح. حاجباه الكَثّان المتقوّسان يشبهان ميزان العدالة في المحاكم.لحيته بيضاء طويلة. وجهه مدوّر ممتلئ، وبشرته بيضاء ويداه ضخمتان. يطوّق خاصرته بالحزام ويستند على العكّاز المبارك. يرحّب بي ويتلمّس العكاز بيده كأنه يتفحّصه. أحسست أنّ فيه طيف عمتي خديجة.

شعرت بسكينة. رحّب بي بقلب يفيض بالمحبة، كأن لديه حاسّة عميقة بما أشعر به، فيحاول أن يزيل قلقي وخوفي من دون أن يجرحني حياءً واحترامًا. ارتبكت لخجله، وأوشكت أن أبكي أمام عباراته الصافية الصادقة! أصغي بانفعال لذيذ شديد، وقلبي يفيض بسعادة عذبة.

تكرّرت زياراتي لأبينا الخوري. ذات مرة شكوت له وضعي وأخبرته برغبتي في السفر، فقال:

-الإنسان المعاصر يجهد في سبيل أن يتذوّق الحياة كاملة مبتعدًا عن واجباته وأهله، ساعيًا إلى السعادة الفردية!

-لكن والدي عنده عمّتي!

أمسَك بالصليب الذي يتدلّى على صدره بيده، وراح يحرّكه بين إصبعيه، وأضاف:

-قد يكون الظمأ الروحي مبعث قلق الإنسان. إنه بحاجة إلى مثل أخلاقي روحي يستمدّ منه القوة!

-والفوضى في البلد وفقدان الأمن، يا أبانا؟ فهؤلاء قتلَة قد يحوّلوننا إلى عبيد في أوطان أجدادنا!

ارتجفت يده فوق الصليب، وشدّ عليه. وبعد صمت قال:

-الأمن الحقيقي في الحياة لا يتحقّق بالهجرة، ولا بجمع الأموال. الهروب ليس حلاً. ولدتِ في محَرْدة وعليك العيش في محَرْدة. هذه بلاد المسيح الجميلة مثلما هي بلاد الأنبياء جميعًا. وقبل ذلك بلاد أجدادك منذ آلاف السنين! أجدادك الذين حفروا بعروقهم في الحجارة. انبشي الأرض سوف تجدين عرقهم يسقي الشجر ويرطّب التربة. كل الأديان تعايشت في تاريخ أجدادك!

أصمت، فيُكمل:

-الهجرة تعني الهروب، تعني الموت. أنت تقعين في خطأ نتيجة مبالغات وأوهام!

يلذّ للمرء أن يستمع إلى رجل حكيم. أصغي لتدفّق كلماته وقد اجتاحت الفرحة نفسي:

-لقد خرجنا من أرحام أمهاتنا عراة، وسنعود إلى التراب عراة. وهب الله لنا ما أراد، وهو الذي سيستردّه متى شاء. أقدارنا مكتوبة هكذا هي تعليمات الرّب.

صلّب وقرأ عبارات من الإنجيل. بثّ السكينة في نفسي. أنعشتني رائحة البخور وهي تندفع وتتكاثف، كأنها خيوط من نور، تتشابك في فضاء الكنيسة، فتنثر الحكمة والسكينة!

الفصل الرابع:

أسماك القرش

1 -

أقدار الرّبّ أكبر منا!

كنت قرّرتُ في محَرْدة أن أكون سارة جديدة. أن أستعيد الطفلة الكامنة في أعماقي. طلبت مساعدة عمي جورج لنقل عملي، ولأدرّس في محَرْدة.

لكنّ الشرّ يزحف كأنه يُلاحقني! أيقظني دويّ أصوات تخيَّلتُه في شارع المنصور. أفتَحُ عيني. إنه بالقرب من محَرْدة! تتسرّب الذِّكريات كريهة. كأنّ دم هاشم يسيل ببخاره أمامي من جديد! الأصوات في ريف حماه القريب من محَرْدة. دويّ القذائف يزلزل البيت! يا يسوع، الرحمة! لماذا كل هذا؟ صغيرة فقدتُ أمي، وعشتُ مع والدي المدمن. ذهبت إلى الرقة وهناك رحت أبني حياتي، لكن سرعان ما خسرتها! لماذا؟

أهرب من خوف يحاصرني، ولا أعرف كيف أزيحه عن صدري؟ في منامي أرحل إلى فرنسا عند رنا. أشاركها في مشروع، وأرسلكِ -يا مريم- إلى مدرسة فرنسية بلا خوف. تلعبين في حدائق مدارس ليون آمنة حرّة.

ولكن والدي! هل أتهرّب من المسؤولية؟ كنت أتمنى أن ينقشع الضباب من رأسي، وأتبيّن القرار الصحيح الذي عليّ أن أتّخذه.

الوَسْوَسَة أربكتْني -يا مريم- جعلتْني كثيرة التردّد والعُزلة والشرود. أهاجر. لا أهاجر. ما أبشع التردّد في اللحظات العصيبة! يقف المرء أعمى في دوّامة تفكير مُظلمة. يتعب ويجاهد ويواجه محاولًا الوصول إلى شاطئ لا يصل إليه. أخيرًا حسمت أمري: لأبحث عن الطريق، وبعدها أقرّر.

ماريا أم ميشيل تعرف شخصًا له علاقة بطرق الهجرة. ذهبت إليها:

-هل تنوين الهجرة فعلاً، يا سارة؟

-محتَمل.

-تهاجرين مع مريم؟

-طبعًا؟

-هذي مغامرة يا سارة. أنت لا تعرفين المُهرِّبين.

* *

لم يتحسّن وضعكِ كثيرًا، يا مريم. ولما كلّمتُ عمّي جورج اقترح علي أن أذهب إلى الطبيب عُمران لطفي في حماه، لأجري لكِ تخطيطا للدماغ وتحليلات. كانت المرة الأولى التي أخرج فيها من محردة منذ مجيئي إليها. أغنية «الهوى سلطان» لجورج وسُّوف في الحافلة أرجعَتْني إلى أيام الجامعة مع رنا. أتأمّل الوجوه فأرى عيونًا تتقلّب، وكأنها تبحث عن خلاص. يأسرها الخوف والضياع. كلّ شيءٍ باهت مملّ. الصمت يحاصر الناس مثل شعور الموت والوداع. تلفّت وحسرات ووُجُوم. شباب وشابات في مؤخرة الحافلة، لكن لا تتفاعل النفوس مع الأغنية مثل أيام زمان. الكل صامت، وكأنه يرحل إلى المجهول، مع أننا نذهب إلى حماه. هل غيّرتني الرّقّة أم إن كل شيء تغيّر؟

تهتزُّ الحافلة. وحين تهدّئ فجأةً لتتوقف تتجاوب لها الأجساد مستسلمة تائهة. بعض الركاب ينزلون بصمت كأنّهم في عزاء. يتحوّل جمودهم إلى إحساس ثقيل ينتقل إليّ بالعدوى. جورج وسّوف يغني وحيدًا. يتمدّد وجع. ويتراكم وجع فوق وجع طبقات طبقات. تئنُّ الحافلة بعصبية غاضبة. أتأمّل الوجوه البائسة والنّظرات الخرساء التائهة. القرَف في العيون والملامح. إنه واقع موجع مقيت.

وصلنا حماه وركبنا حافلة نقل داخلي. في الشوارع أتفحّص المحلاّت والأماكن. اصطبغ كلّ شيء بلون الموت. الناس بائسة مهزومة. شيوخ يسعلون وشباب متبطلون تائهون. حواجز وسواتر ترابية. جنود بكامل الأهبة على الحواجز. المحلّات ساكنة في الأسواق. أصحاب المحلات يمضون الوقت جالسين، وكأنهم يعدّون المارّة. نظراتهم شاحبة تستجدي الزبائن. المشرَّدون من خارج المدينة يملؤون الطرقات. نساء جاثمات على الأرصفة، أمام الجوامع! أطفال وجوههم متشقّقة يستعطفون مع أمهاتهم. بكاء، شكوى. النزوح لا ينحصر في الرّقّة، ولا في مزرعة النجاة. إنه في سوريا كلها والمحظوظ من استطاع اللجوء إلى الخارج.

بين أحلام الهجرة والواقع كنت كمن يتأرجح بين عالَمين: عالم الأحلام برائحة الحياة، وعالم الحاضر برائحة الموت والدم!

يسوقني القدر. بلدي أسير في نفق مخيف لا أدري ما نهايته؟ وأصارع من أجلكِ، يا مريم. تتزاحم في رأسي الأفكار مثل خليّة نحل. هاشم يعيش في رأسي، والرايات السود تخيّم فوقي. يطوّقني الوجع وتبتعد الضحكات، وطفلتي تتشرّد! يصرخ هاشم ويحتجّ. أرتعد وأعود إلى حيرتي! أيّ مصير ينتظرنا، يا مريم؟

الحواجز تتكاثر في حماه، لكلّ حاجز إيديولوجيا ومعايير في الولاء والانتماء. تتردّد أسماء الحواجز: حاجز طيّار للشبّيحة. حواجز لأبناء البلدة. حاجز للإسلاميين. حاجز للدولة. تمزّقت سوريا وسيطرت عليها مجموعات من القتلة والعصابات. الكل ملعون. ملوّث بالعار. تلطّخت يده بدماء الأطفال والأبرياء إلى الأبدّ. إن مَسَحَ الدمَ يومًا عن يده فكيف سيمسح اللّعنة من ضميره؟

* * *

في نهايات صيف العام 2014 قدتُ والدي بصعوبة إلى كنيسة مارْ جُرْجس بحارتنا الشرقية لنحضر قُدّاس الأحد، وكنت اتفقت مع عمتي ليلى وجارتنا أم ميشيل أن نخرج بسيارة على كتف العاصي بعدما أعود من الصلاة.

وبينما وقف الخوري يتلو علينا فقرات من الإنجيل، تعب والدي جدًا، قبل أن تنتهي الصلاة. كنتِ -يا مريم- بجانبي، أراد والدي أن ينهض فلم يتمكّن وبقي جالسًا ويدعو. عدنا إلى البيت بعد جهد، وألغينا النزهة!

بعد وفاة والدتي صار عمّي جورج يرسل إلى والدي بعض النقود شهريًا، وعمّتي تتكفّل به. والدي كسرت ظهره المصائب. مرضت والدتي وهي شابّة وماتت. عذبته الحياة. لم يكن محظوظًا. لم يفلح في تعليمه. توظّف وظيفة بسيطة في دائرة النفوس. كثرة المصائب هدّته وجعلت تصرّفاته خشنة. ينفعل لأبسط الأمور ويتحوّل إلى عصبيّ، يقذف بكل ما تقع يده عليه. وقد يرمي به بوجه من استفزّه!

جرّته عادة الخمر إلى الإدمان، ففقد صحته، وشاخ مبكّرًا، وبقي بعد زواجي وحيدًا. ولما كبر واحتاج إلى مساعدة الناس لم يعد لبيته حُرْمة. يترك بابه مفتوحًا حتى تدخل الناس وتساعده!

يشرب الخمر بكَثرة. في لحظات الصحو يتلفّت وراءه نحو الماضي فيأخذه البكاء. يلهج بأسماء نساء مجهولات، وأحيانًا باسم أمّه جدتي وِداد. يتلعثم وهو يتحدّث، يهمهم متأثرًا، وينسى أن يأخذ أدويته.

تقول عمتي ليلى التي لم تقطع صلتها به:

-والدك عندما شاهد سقوط الرقة، وسمع بأخبارك بكى بشدة، وقال: حسرة، يا بنتي! حظّك مثل حَظّي. حياتك تعيسة.

تعبتُ مع والدي وزاد من تعبي وضعكِ، يا مريم. كنتِ حين تسمعين أصوات القذائف تضطربين ويتلوّن وجهك وتتلفّتين مرعوبة. وحين تسمعين انفجارًا قويًا تصرخين وتتجمّدين لحظات وعيناك شاخصتان في الفراغ. تنكمشين وتلوذين بي.

وضعك الصحّي لم يتحسّن، وبقي الشحوب في وجهك! والطبيب في حماه لم يستطع تحديد العلة!

- 2 -

على وقع الموت والبرد والخواء أعيش أيامي. طوال الوقت مشغولة بوالدي وبكِ، وأنتظر إجراءات التعيين في مدرسة الحارة الشرقية في محَرْدة، بمساعدة عمي جورج.

أعدّ الإفطار: زيتون وشنكليش ومحمَّرة وزعتر ولبنة. أطبخ، أجلس أمام التلفاز لأتابع المصائب اليومية! طبخي تحسن بعد الزواج كثيرًا، صرت أطبخ الصاجيّة بمهارة عند عمتي خديجة. أطبخ لوالدي وعمتي ليلى «الكْلال» كما تعلّمتها في الرقّة. أحاول أن أعيش لحظات من الحياة. يكبر في داخلي هاجس الهجرة هَرَبًا من واقعي المقيت، لكن يخطفني من أفكاري هاجس أقوى: «قد يكون حيًّا».

في نهاية صيف العام 2014 تراجعَت صحّة والدي كثيرًا، صار غير قادر على مغادرة البيت، كما تدهورَت قواه العقلية. يقوم متكوّرًا، كومة عظّام مرتعشة، ويتحدّث عن أمور لا أفهمها. يضحك أحيانًا، أو يتحدث مع أشباح، يتخيّلهم، ويحاور شخوصًا لا أراهم!

ينظر إلى الباب وينادي والدتي! أو عمتي ليلى. وأحيانًا ينادي عمّي جورج. يناديه ويبكي بعصبية مثل طفل. يعاتبه لأنّه استقرّ في العاصمة. هجره وتركه وحده!

يسألني أحيانًا:

-هل جاء عمّك؟

-لا

-منذ قليل كان هنا، هل خرج؟ متى يعود؟

وأحيانًا يهَمْهم ثم يلتفت إليّ:

- هل قطفت أمّك الليمون؟

يقول كلمات غير مفهومة. ينسى تكملة الجملة! يناديني باسم أمي. ذات مرّة أخذتُ يده وهززتها صامتةً. ربَّتَ على ظهري، وهو يهمهم ويناجي يسوع ويئنّ. أحسستُ بقطرات الدموع الساخنة تتساقط على يدي، ثمّ أجهش بنشيج مسموع، فارتعشتُ خوفًا وألمًا، وشعرتُ نحوه بعاطفة بَنَويّة عذبة محزنة تتحرّك بين ضلوعي، وتتصاعد بشهقات إلى شفتي، ثم تعود بِغَصّات إلى أعماق قلبي.

يا مريم، إنّ دموع الشيوخ عزيزة، يحبسونها لفترات طويلة، وتنهمر فجأة في آخر العمر، لتنزف بقايا الحياة. تشبه نَفَس الحياة الأخير وأوراق الخريف التي اصفرّت وبدأت تتهاوى إلى التراب، إنها بقية الأنفاس الآدمية في العظام المنخورة والقلوب المتعبة.

كنت أشعر بألم كبير وشفقة، وأدعو الربّ أن يخفف عنه. بين طلبات والدي في النهار، وخوفي على صحّتكِ وصرخاتك المفاجئة وشحوبكِ -يا مريم- وبرودة البيت في الليل يزداد بؤسي.

في الليل تبدو الأصوات المُتقطّعة للقذائف مخيفة، تُفرّخ في رأسي تكهُّنات لاحتمالات أسوأ من تلك التي عشتها في الرقة. ماذا لو رفض أهل محَرْدة أن ينصاعوا لأصحاب اللحى والتكبير الدموي؟ ألا يحدث لهم ما حدث في الموصل؟ ماذا لو وافقوا ودفعوا الجزية؟ وهل يبقى شيء اسمه وطن وكرامة؟ أيّ واقع هذا؟ أية أوحال هذه، يا يسوع؟

* *

بعد أن راجعت الطبيب في حماه عدت مرات، ولم تفلح جهوده، أكّد لي أن علاجكِ يحتاج إلى مخابر متطورة لتشخيص الحالة.

في وقتٍ متأخّرٍ من ليل السبت فتحت الفيس، رسالة من رنا:

-تحيّاتي سارة. سألت كل من له صلة بطرق الهجرة، وتأكدتُ أن الهجرة النظامية إلى فرنسا مستحيلة، ولا أنصحك بالتعامل مع المهرّبين. ولكن اللجوء سهل. عليك أن تحاولي وتتقدّمي بطلبات لجوء إلى الدول الأوروبية وإلى كندا وأستراليا.

كنت في حيرة، هل أغامر بالهجرة؟ قدّمتُ طلب لجوء عبر البريد الإلكتروني إلى كندا ولم يردّوا، قدمتُ طلبًا للهجرة إلى أستراليا، وإلى النرويج، وإلى السّويد، والدانمارك، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا. أبذل جهودًا في التواصل مع السفارات. وفي أيلول عام 2014 قدمت طلب هجرة إلى أمريكا. لم يردّ عليّ أحد! أكتب لهم عمّا أصابني وعن اختطاف أو مقتل زوجي وعن ابنتي المريضة التي تحتاج لعناية طبّية غير متوفرة في سوريا. أقول لرنا:

-لا أحد يهمّه مساعدتنا. في العالم أشخاص طيّبون كالذين ساعدوكِ أو ساعدوا غيركِ. لكن ليس فيه دول طيّبة! مصالح فقط. وهل ضاقت تلك الدول على مساعدة امرأة تعاني من خوفها على ابنتها المريضة؟

أنام وأنا أهجس بوالدي. أيقظني أنينه. هرعت إليه. شعرت أنه يودّع وروحه تغادر. كانت الكهرباء مقطوعة. قرّبتُ ضوء «الشّاحن». عيناه مفتوحتان نصف فتحة. ينظر في الفراغ نظرات تائهة! إنه لا يراني!

أشعلتُ الشموع ورحت أدعو يسوع. أرى جسد والدي يهمد وآثار الزمن بادية على وجهه مثل لطمات وجروح عميقة! أتأمل في

«لَبّاسة القَبْعة» بلونها الرمادي الغامق مُعلَّقة في غرفة النوم. تولّدت في نفسي مشاعر تشبه اليوم الأخير من حياة عمتي خديجة!

كان يئنّ أنينًا جافًا تحوّل إلى حَشْرَجَة. يصارع النّوبة. لكن النوبات تتوالى. يهمهم كأنّه يكلّم نفسه. يُحَشرِج. فقد القدرة على الأنين. وسكن والدي إلى الأبد!

على الرغم من عجزه شعرت أني بموت والدي فقدت آخر جدار ألوذ به من وحشة الأيام! في منزلنا تجمّع الناس. عمّي جورج والخوري والجيران وبعض الأقارب وآخرون جاؤوا من العاصمة ومن طرطوس. يجلس الرجال في خيمة العزاء أمام الحوش، أمّا النساء فيجلسن معي ومع عمّتي والأقارب عند جسد والدي المسجّى داخل البيت. تتلو النساء الصلوات بقرب التابوت الذي سُجّي فيه والدي، وفوقه وضعَت عمتي ليلى قماشًا أبيض، يظهر منه وجه والدي. نضع عند رأسه زهورًا، ونبكي.

عمّي جورج يجلس مع الرجال، ويشرف على إجراءات الدفن. حين دخل الخوري والرجال لحمل جثمان والدي ونقله إلى الكنيسة تذكّرت يوم وفاة والدتي، وتذكّرت وفاة عمتي خديجة. لحظات حزن فظيعة.

الرجال أصرّوا ألّا يذهب مع الجثمان أيّ امرأة. لكن أنا وعمتي ليلى تمكّنّا بعد إلحاح من مرافقته إلى الكنيسة.

الجيران ينتظرون أمام المنزل. على سيارة الجنازة الكثير من الزهور. يُحمل جثمان والدي إلى الكنيسة، لتقام له الصلاة، قبل أن يُدفن في مقبرة البلدة، حيث تُدفَن أمي.

خرج الرجال بالتابوت يتقدمهم الخوري وبكاء النساء يتردد في جدران المنزل!

في الكنيسة يمسح الخوري على جبينه. يرتّل ويصلي ويمسح! بعد الصلاة خرجنا نحو المقبرة.قبل الدّفن يودّعه الجيران والمعارف شخصًا شخصًا. وأطال عمّي جورج في الوداع ثم عمتي ليلى، ثم وقفت أخيرًا فوق جثمان والدي أودّعه. كان وجهه مضيئًا شفّافًا، كأنه تحرر من إدمان الخمرة. صلّيت له ودعوت وابتهلت، ثم صلّبت وخرجت.

أصرّ عمّي أن يقدم وجبة طعام بعد الدفن عصرًا، وجبة تُعرف عندنا بـ«لُقْمَة الرّحمة»، وتُقدَّم في خيمة العزاء. وأصرّ أيضًا أن يستدعي فرقة الكشّافة، وكأنّه يكفّر عن بعده عن أخيه. يومها قامت الفرقة بالتراتيل الجنائزية التي هزّت محَرْدة. استمرّ العزاء ثلاثة أيام. حركة دخول وخروج في بيتنا لم تنقطع. انتهى الأمر، وغاب والدي.

لم يبق لي أحد يؤنسني. ننام في البيت وحدنا بمحَرْدة، يا مريم. يتفقّدني الجيران وعمتي ليلى. الخوري يطمئنّ عليّ بين حين وآخر، ويوصيني بالتواصل معه إذا احتجت أي شيء. شكرني لأنني عدت إلى رشدي:

-الرب كريم يسامح.

جملة صريحة ذات دلالة هادئة هدوءًا ضاعف من جرعة الألم فيها.

لم يعرف أنّ ديني على دين هاشم.

- «يا سارة.. الدين نتوارثه ثم ندافع عنه. لا نتخلى عنه لسببين: لأننا نشأنا عليه واعتدنا، ولأننا نحن البشر لا يمكننا أن نعيش بلا إيمان ومعتقدات نواجه بها ما هو أكبر من قدرتنا على الفهم».

- «ودينك؟»

- «ديني الإسلام، لأني نشأتُ في بيت مسلم. ولو نشأتِ في بيت مثله لكنتِ مسلمة مثلي، والعكس صحيح».

أتسلّح بديني الخاص -يا مريم- دين والدك ودين غالبية السوريين. كنت أجامل الجميع، وأبحث في أعماقي عن وسيلة تنتشلني من جحيمي.

يزداد شحوبك. ويحيّرني مرضك! تستبدّ بي خيالات مرعبة. أتوهّم، وأعرف أني أتوهّم، ولكن لا أستطيع مقاومة خوفي. أخذوا الرّقّة وقد يأتي دَوْر محَرْدة! أقرّر أن أبدأ البحث وبعدها نرى ما تأتي به الأيام!

أوصلتني جارتي أم ميشيل برقم شخص من حمص اسمه حنّا أبو الزّيْن. عندما اتصلتُ به رحّب، واستطرد يُغريني، ويحدّثني عن سهولة المسألة وضمان الوصول، وأكّد أن المهاجر، حين يصل إلى بلاد أوروبا، يطلب اللجوء، ومباشرة يحصل على إقامة وراتب وضمان صحّي.

أختار فرنسا، لأذهب إلى ليون، إلى صديقتي رفيقة العمر رنا، الأستاذة الجامعية. صديقتي التي أكّدت لي أنها ستبذل كلّ ما تستطيع لتأمين عمل.

- «فرص العمل قليلة، ولكن لي معارف كثيرة بدور نشر ومدارس بحكم مهنتي، ومعرفتكِ باللغة الإنكليزية ستساعدكِ».

يا مريم، إنّ المستقبل مجهول، ولحماقتنا نصوغه بخيالنا وعواطفنا كما نريد، فنراه كالضوء في ظلام موحش! نزيّنه حتى يبدو لنا خلاصًا، طاردين الاحتمالات السيّئة رغم قوّتها. نصوّره جنّةً تهفو إليها قلوبنا فنقع في الخديعة من دون أن نحسّ.

اتصلت بالسمسار حنّا أبو الزّيْن، أكد لي أنه يعيش الآن في دمشق، وأن الترتيبات سهلة، والأمر متوقّفٌ على قرار مني.

على الرغم من كل ما سمعت عن قصص الهجرة المرعبة لم أتراجع. أنسى النَّصْب والاحتيال. أنسى قصص غرق المراكب في البحر، وأهوال الموت، ومافيات الهجرة، وكأنها وَهم لا أصدّقه! أرى رنا قريبة، قريبة. أرى الهجرة في خيالي كحبل خلاص لمغادرة الجحيم!

لم يتمكّن أحد من ثنيي عن القرار، لا عمّي جورج ولا عمتي ليلى ولا الخوري ولا أحد! هجرني النوم، وضعُك -يا مريم- يستعجلني ويُربِكُني، فقدانك للشهية، وشحوبك يتفاقمان ويشغلان بالي ويستعجلان قراري.

-يا سارة، يا عمي، هاتِي مريم وتعالي نعالجها بالشام في أشهر المشافي.

-يا عمّي، حضرتك فحصت حالتها ورأيتها.

-وإن كان.

-سآتي للكشف عليها وسأبحث إمكانية الهجرة.

-المهم تعالي.

في بديات تشرين الثاني 2014 قررتُ السفر إلى دمشق، لأقوم بالفحوصات اللازمة لكِ، ولألتقي حنّا أبو الزّيْن، من أجل الهجرة.

أتعبنا طول الرحلة، وأربكتنا وقفات الحافلة المتكرّرة. السفر شاقّ هذه الأيام. الطريق كان ثقيلاً ذكّرني بكوابيس نزوحي من الرقة، ولولا مرافقة عمتي ليلى لتعبت أكثر.

في بيت عمي جورج بقيت أسبوعًا. احتفت بنا زوجته وابنته يارا، ولم يقصّروا معنا. أخذناك -يا مريم- إلى الطبيب عمر سلامة صديق عمّي، لديه مخبر طبي جيّد، ولكن لم تُظهر التحاليل أيًّا من الاحتمالات التي افترضوها.

قبل رجوعنا إلى محَرْدة بيوم توجّهت صباحًا إلى الموعد! لم يتمكّن عمي من تغيير رأيي، وحين يئس أوصاني:

-انتبهي لهؤلاء، اشترطي أن يكون الدفع بعد الهجرة!

-طبعًا -يا عمي- هو أكّد ذلك على الهاتف.

-اسأليه عن كل التفاصيل. طريق الهجرة، محطّات الطريق، نسبة الأمان، الطعام، الضمانات، مقدار المبلغ النهائي، كل شيء. قولي له: سيتواصل معك عمّي الدكتور جورج جبّور، والخوري لويس.

-الخوري لويس؟ من هو؟

-لا بدّ أنه يعرف الخوري لويس. فهو يتواصل مع المهرّبين، ليضمن الأمان للمهاجرين.

-على خير يا عمي.

تركتك -يا مريم- مع عمتي ليلى في بيت عمّي جورج، وذهبت إلى مقهى الهافانا على الموعد .بحثت عن رجل بمواصفات أبو الزّين. من بعيد أتفحّص الداخلين. فيروز تغنّي وأجواء الهافانا مريحة. عدد قليل من الأشخاص، ليس بينهم السيّد حنّا!

-خدمة يا آنسة؟

-انتظر قليلاً لو سمحت!

بعد دقائق دخل رجل خمسيني يرتدي المانطو الرصاصي واللفّاحة الزرقاء، وبيده غليون. عرفته بحسب المواصفات ونهضت، فأقبل يبادلني التعارف. وبحدسي بعد المصافحة شعرت أنه غير مريح، بل شعرت أني بحاجة لأن أغسل يدي!

-أنت السيّد أبو الزين.

-نعم هو.

-تشرّفنا.

أخرج القدّاحة، وأشعل الغليون. سحب نَفَسًا ثم وضعه على حافّة المنفضة، ودلّك يديه بعضهما ببعض.

فيروز تغنّي، وأمامي حنّا أبو الزّيْن. رجل خمسيني نحيل طويل قليل الشعر، ناعم الصوت، يكثر من حركات العينين والابتسامة، كثعلب يتحايل على فريسة.

كان المطر يضرب النافذة عندما قال للنادل:

- «اثنان قهوة سادة».

ونظر إليّ. هززت رأسي موافقة.

كلّمني عمّي جورج على الجوّال، وأكّدتُ له أن الأمور بخير ولن أتأخّر.

أغنية فيروز الأولى «نسّم علينا الهوى» انتهت، وبدأت الثانية «يا راعي القصب.» يمعن أبو الزين النظر فيّ. غضضت بصري منشغلة بالجوّال!

بدأت الحديث:

-كم محطّة في الطريق؟

-حسب المبلغ. الطريق والخَدَمات بحسب الدفع.

-كيف؟

- الطرق عديدة: بريّة وبحريّة وجويّة!

-وأيّها الأفضل؟

-لكل طريق حسناته!

سحب نَفَسًا من الغليون ونظر في النافذة:

-الأفضل لك الطريق الجوي، لوجود البنت معك، ولكنها طريقة ليست مضمونة. كشفها سهل، وقد تتعرّضين للسجن.

-استبعدها، أريد طريقًا آمنًا.

-هناك طرق برية وبحرية متنوّعة. الطريق المضمون عبر تركيا فاليونان ثم المتابعة من هناك.

-برًّا أم بحرًا؟

-لا تستعجلي. برًا وبحرًا. عند الدفع أخبرك بالتفاصيل.

-لا بأس، مبدئيًا أنا موافقة.

-وهو كذلك!

-كيف سيكون الدفع!

جلّس ظهره، ونظر فيّ:

-دفعات. تسلّم الدفعة الأولى في البداية، والدفعة الثانية بعد الوصول إلى اليونان، والدفعة النهائية، وهي الأكبر تسلّم عند الوصول إلى الهدف النهائي.

لم يكن مريحًا، كان يراوغ في عينيه ويتحدّث ويتحرك كثيرًا. ودائمًا يسلّط عليّ نظرات أحسّ أنها تعرّيني. حين أسأله عن مخاطر

الهجرة يراوغ. وعندما يلاحظ تردّدي يسهّل الأمر بكلمات يحاول عبرها استعادة الثقة. كنت مدركة أنه يخفي عني شيئًا. ولكن رغبتي بالهجرة كانت أقوى من تلك المخاوف، فالاحتمال الوحيد الذي يخيفني استبعدته، لأني رأيته غير معقول! فأنا امرأة متزوّجة، وقد أفهمته ذلك، وترافقني طفلتي المريضة! وهذا ما سهّل الاتفاق!

بعد الغذاء كرّر عمي جورج:

-عمّي أنا لست مع الهجرة، ومريم علاجها نفسي. البنت تعيش حالات نفسية، لا أتوقّع أنها تعاني من مشكلة جسديّة، ومع الأيام ستتخلّص من مشاكلها!

-أحيانًا تبقى يومًا كاملاً بعد الكابوس لا تأكل شيئًا!

-ستتحسّن!

-والشحوب؟ وذوبان جسمها؟

عقّبت عمتي:

-يا سارة، يا عمتي، اسمعي كلامنا! مريم تتحسّن عندنا في محردة. وتشاؤمك ومخاوفك مبالَغٌ فيها. كلّ أبناء طائفتك يعيشون هنا وسيبقون. هذه بلدنا، والأمور ليست بهذه الخطورة. أنت تتوهّمين!

-يا بنتي أنا عمّك. لا تتوهَّمي وتهربي من خوف مبالغ فيه. أرجوك اصرفي نظرك عن الهجرة. تعالي عندي هنا في الشام، قرار نقلك إلى مدرسة الشرقية بمحَرْدة جاهز تقريبًا، بعد أسبوع يكون بيدي، وبإمكاني أن أنقلك إلى العاصمة إذا أردتِ.

كانت عمتي تهز رأسها مؤيّدة. شعرت أنّي محاصرة مُحْرَجة فسكتُّ، وانقطع الحديث في الموضوع.

- 3 -

تتكاثر الخيالات والإحباطات، وتتنامى أوجاعي مثل مرض خطير. أحسّ أن كل شيء يقول لي: هاجري! صرت لا أفكّر إلا في اليوم الذي أصل فيه إلى رنا، وأرتاح من أصوات القذائف والانفجارات وأنام بلا خوف ولا كوابيس. هل يتحقّق حلمي؟

-أنا سأهاجر، يا رنا، سأهاجر إليك إلى فرنسا!

-كيف؟

-تهريب!

-تهريب؟

-نعم تهريب! هل غيرتِ رأيك وصرت تكرهين مجيئي؟

-الله يسامحك يا سارة. لكن تهريب؟ إنها مغامرة كبيرة!

-وليكن.

إنها الأقدار يا مريم. يبدو أنها رَسَمت لي الطريق! للقاء الأول أثر كبير في النفس، ينطبع في العقل، وينحفر في الذاكرة بطريقة لا تتكرّر. طريقة عجيبة لها تأثير السحر. ومهما تكررت اللقاءات وتطورت العلاقة سلبًا أو إيجابًا فإن شيئًا مبهمًا يمتد بخفاء، ويفعل في النفس ما يفعل! يقرّب ويبعّد، يريّح ويوتّر، يمتد بخفاء بجذور حَيّة تنبض بالدم، يمتد إلى أسرار اللقاء الأول.

أسترجع لقائي مع حنّا أبو الزّيْن. كل ما في اللقاء يدفعني إلى الحذر: الحركات، والنظرات، والجلسة، وطريقة وضع اليدين على الطاولة. أما الصورة الحقيقية التي توصّلت إليها فإن الرجل شديد الدهاء. يعرف أشياء كثيرة، كما أنه شديد المراوغة والغموض. نظرته أقرب إلى نظرة المجرمين المهرّبين بحسب ما أقرأ وأسمع عنهم، وفي عينيه أسرار مربكة غير مريحة. تطلق شحنات مقيته. ولكن كما يقال: «لا يدفعك إلى المرّ إلا الأمرّ».

أقول له:

-يا معلّم أنا موافقة على الطريق الأفضل، وإن كان يكلف أكثر كما ذكرت!

- إذًا طريق بيروت تركيا اليونان ثم المتابعة وصولاً إلى فرنسا!

-كم ساعة؟

-لننظر أولاً كم محطّة عندنا؟ وبعد ذلك نسأل عن عدد الأيام، وليس عدد الساعات.

صمتُّ أنتظر:

-عندنا المحطة الأولى في بيروت، ثم المحطة الثانية في تركيا، ثم الثالثة في اليونان. وبعدها يصبح الأمر سهلًا. ننتقل إلى فرنسا جوًّا. نحن نتكفل بكل شيء، والرحلة من محطة إلى أخرى تؤمّن عن طريق جماعاتنا، عبر رحلات آمنة وغير مُتعِبة.

-يا معلّم أنا لا أدفع مقدمًا!

-نحن لا نأخذ مقدمًا لدينا جهات تتابع التفاصيل، هناك طرف ثالث كفيل، وهو من يتوَلّى تسليمنا المبلغ.

-كيف سيكون الدفع إذًا؟

- على دفعات كما ذكرتُ لكِ، والدفعة الأكبر عند الوصول إلى الهدف النهائي!

في البداية فقط ربع المبلغ، وفي اليونان ربع آخر، والباقي عند الوصول إلى فرنسا! أو الوجهة التي يختارها الشخص! فهناك مَنْ يغيّرون وجهتهم. وأنا شخص معروف في أوساط محَرْدة من المهاجرين، اسألي عمّكِ الدكتور جورج، ولا تبعدي اسألي جاركم أبو حليم، أستاذ الرياضيات!

يبدو أن النَّصب في عمليات معقدة خطيرة كهذه مهنة تحتاج إلى خبرة طويلة! يخاف أبو الزّيْن من ملاحقة القانون، فيصرّ على أن تكون الاتفاقات سرّيّة، يُشعرني كأنه مراقب بحذر، وكأنه بذلك يُعلي من شأن عمله ويزيد الثقة.

طلب أن يُسلَّم المبلغ المطلوب في المكان نفسه مقهى الهافانا، فأرسلت المبلغ إلى عمي جورج لتسليمه له.

ذهبت إلى محَرْدة بانتظار يوم السفر. اتفقنا مع أبو الزّيْن أن يُبلّغني قبل أسبوع حتى أرتّب أموري، وفهمت أننا ننطلق من دمشق، مجموعة من المهاجرين، وفي بيروت نتجمَّع.

- 4 -

بدأت -يا مريم- بترتيب أمور الهجرة. فكّرت هل أبيع الذهب كاملاً أم أترك جزءًا منه؟ قررت بيع جزء وترك الباقي، فلا أحد يعلم ماذا تخبّئ له الأيام. تركته عند عمتي ليلى. وكسجين ينتظر خروجه بعد انتهاء المدة ليلتحق بأسرته كنت أنتظر إشارة الهجرة. أنتظر إشارة الخلاص التي تعتقني من هذا الرعب.

وتتصل رنا:

-يا سارة، مافيات التهريب والهجرة ما لك قدرة على التعامل معها.

-يا رنا، الأمور مضمونة، والشخص معروف.

-يا سارة، هؤلاء لصوص، احترفوا النصب في هذا المجال، ولديهم ألف طريق لسلبك ونهبك. قد يقبض عليك خفر السواحل.

-خفر السواحل؟ أين المشكلة؟ هل سأكون في وضع أسوأ من هذا الوضع يا رنا؟

-إذا قبضوا عليكِ يشتمونك ويضربونكِ، يعاملونك كما يعاملون المجرمين أو الحيوانات، وتصوّرك وسائل الإعلام، كأنك متسوّلة أو مجرمة! ثم يرحّلونك.

-كل هذا أرحم من واقعي! أرحم من الموت خوفًا يا رنا. هل جرّبتِ العيش في ذلك السجن الذي اسمه الخوف، ومعكِ طفلتكِ المريضة، ولا تعرفين شيئًا عن مصير زوجكِ؟

كنتِ -يا مريم- تسمعين الحديث، وبيدك لعبة من عمتي ليلى. وأوقعت السماعة من يدي، هل تذكرين؟

*

اتصل حنّا أبو الزّيْن، وحين عرفت صوته وقفت على الفور! أكّد أنه يجب أن أكون في دمشق مقابل فندق الفورسيزن، أمام المكتبة عند الساعة العاشرة صباحًا من بعد يوم غد الأربعاء، وأنه سيكون هناك.

نَوَيت ولن أتراجع. لم يكن في محَرْدة، ولا في سوريا كلّها ما يقنعني بالبقاء. كل الأشياء الجميلة ذهبت. صارالتحرّر من الخوف غايتي، مهما كان الثمن. سامحني يا هاشم، فأنا الآن عاجزة عن البقاء في هذا الجوّ المرعب، ومريم تحتاج إلى علاج.وقد خسرت كل شيء جميل بغيابك. ماتت أحلامي كلها بعدك. وإذا عدت فأنا بانتظارك لا تبعدني كلّ مسافات الأرض. سامحني على كمية الذهب التي صرفتها. أما الباقي فهو مؤتمن عند عمتي، وسيعود لبيتنا فور عودتك. هل تعود؟ آه يا حبيبي، ليتني أعرف مصيرك، أنت أمنيتي، وعذابي!

في صبيحة السفر إلى دمشق كانت عمتي بانتظاري في البيت. انهارت! تدفعني إلى الداخل غير مصدّقة! كأنها تريد أن تبعدني عن السيارة التي تنتظر في الخارج!

أحمل بيدي نسخة من مفاتيح بيتنا بمحَرْدة، لأسلِّمها إلى عمتي بالأمانة. أمّا النسخة الأخرى ومفاتيح بيتنا بالرقة فكانت مثل الكتاب المقدس أحملها بإجلال، لأتبرّك بها، كانت في مخبأ قريب من القلب.

يا مريم، نحن في سوريا لا نبيع البيوت عندما نهاجر. نتركها للذاكرة وللحنين، ونحتفظ بصورتها. قد تموت بعدنا، وقد تحيا بعودتنا إليها. كنت أحسّ كأيّ مهاجر أننا سنعود إلى وطننا.

صوت السيارة ينتظر. الهواء يصفر في الحوش، والشجر له حفيف يشبه النشيج. كنتِ -يا مريم- تمدّين يدك باتجاه الجدار وكأنك تخاطبين شخصًا عزيزًا! أتلمّس وجهك وأتلمّس الجدار. أصابعي ترتجف على الجدار، وقواي تتراخى، ولكن التصميم يشدّني.

جارتنا أم ميشيل اقتحمت البيت قبل أن أدعوها، وعمتي ليلى ملأت البيت بالعويل. مشهد يوهن العزيمة. الجارات، كل الجارات يبكين بألم. أبناء عمتي روعة وزياد، صديقاتي. لكنّ التصميم يشدّني والخوف يطردني من وطني. ولا جدوى من الانتظار. توجّهتُ معكِ إلى الباب والسيارة تنتظر!

-أرجوك يا سارة لا تفعليها.

-يا عمتي، سنعود.

-قبلك قالوها، وما رجعوا.

-يا عمتي.

-يا سارة، انقطعْت! عمك جورج سكن بالشام، وأبوكِ مات. وكل الأقارب هاجروا!

صمتُّ، وأدرت وجهي.

راحت عمتي تنشج وتردّد أسماء مهاجرين عزيزين على قلبها، تلهج باسم جول ابن عمها، تذكّرته، ذاك الذي كان يَعِدها بأحلام وردية لا تموت. يخطفها عبر المتوسط، على حصان أبيض يدور فيها كل الدنيا. ولكنه غاب إلى الأبد. تُكرّر اسم هند صديقة الطفولة التي هاجرت إلى نيجيريا... حنا، موريس، إلياس، نبيل. تردّد أسماء كثيرة لأحبة غائبين وراء البحار! تنظر في مكان والدي المعتاد. تنظر وتتفقّد المنزل. تبحث عن شيء منها، عن أمها، عن إخوتها، عن زوجها، عن نفسها.

تصرّفَت عمتّي كأني آخذ معي كل ما يتصل بها. تحوّلت مَحَرِدْة إلى سارة بنت طوني، والآن ستهاجر!

دموع عمتي أثارت أشجانًا في نفوس الجارات. العويل ملأ البيت. الكل يحن إلى مهاجر، يبحث عنه في زوايا الذاكرة. يتذكّر الماضي ويبكي لا يريد أن يخسر المزيد!

لحظات الترقّب والفراق بطيئة لزجة مقيتة، مثل نار كاوية ملعونة! أكرّر بداخلي، وأنا أجرّ المحفظة باتجاه الباب:

-استعنّا فيك يا ألله!

مددت يدي إلى عمتي من جديد، لأعطيها المفاتيح ومحفظة النقود مع الذهب!

-بأمانتك يا عمتي.

-رجاء يا سارة أجّلي الأمر!

أصمت.

الجيران يتوافدون!

-يا سارة فاجأتِنا!

-كلنا بجانبك. الله يخليك لا تهاجري!

-تيسّري. الله يسعدك. خلصت من هذا الجحيم.

ركبتُ السيارة ولوَّحَت الأيادي، وغصّت الدموع، وابتلعني طريق الهجرة!

طيلة الطريق أتذكر دعاء هاشم كلّما سافرنا من مزرعة النجاة إلى الرقة:

-يا ميسّر لا تعسِّر. يا ألله يسّر أمرنا، توكلنا عليك يا رب العالمين.

ثم أتذكر صلاة والدتي في الكنيسة، لكنني أدعو بطريقتي:

أبانا وأنت في ملكوتك، يا من في السماء ترعى المظلومين والضعفاء، تقدَّس اسمك. يا رب، أعطنا خبزنا كفاف يومنا، وكن معنا، واجعل خطوتنا مباركة. يا رب احمِنا من الشرّير واشفِ صغيرتي. يا ربّ أطمع في نصرتك، نجّنا من المخاطر، لك القوة والملك إلى الأبد. يا رب آمين. يا رب آمين.

أصلّب ثم أتابع:

يا رب، إني مهاجرة إليك بصغيرتي. لا أهل ولا وطن. مهاجرة بصغيرتي خوفًا من الموت والذل والسبي. مهاجرة إلى مصير مجهول عبر البحر. يا رب، أطلب نصرتك. يا رب، بارك ونجِّ مريم، بحق المسيح، وبحق العذراء، يا رب.

- 5 -

يا مريم، الدنيا حَظّ! إذا أقبل أقبلت الدنيا، وإذا أدبر أدبرت معه. في بيروت انقلب كل شيء. تغيّرت بشرتي ونظافتي وأصابني الشحوب معك. وتضاعف شعور الخوف!

رُمينا في بيت مظلم مهجور. مكان يشبه القبو. غرفة ضيّقة معتمة رطبة ليس فيها سوى حمّامٌ كريه. حشرونا في غرفة لدى امرأة مزعجة، وكأننا قطاع طرق نختبئ من جريمة ارتكبناها! لم أستطع تحديد مكاننا. خبرتي في بيروت قليلة، ولكن من المؤكد أن المكان بقرب البحر، فقد شاهدت الساحل قبل وصولي، وسمعت صوت البواخر وأصوات النوارس، وشممت رائحة البحر. تشبه رائحة بحر طرطوس.

معنا امرأة عراقية من الموصل، عيناها مدوّرتان مزعجتان، نظراتها ذكّرَتْني بنظرات البِسّة الحقيرة، زينة العبد الله، عندما تغضب! تبدو المرأة مفجوعة، فهي طيلة الليل تدعو لمخطوفات، ومغتَصَبات، وتبكي! تنظر إليّ بغضب وحقد حتى خفت منها! تورّطت ودافعت أمامها عن الإسلام كدين سَماحة، كما فهمته وعرفته في هاشم وعمتي خديجة. شعرت أني أثرت وحشًا مفترسًا يريد قتلي! حمدتُ الربّ، لأني لم أكشف لها زواجي بمسلم ولا كشفت هُويّة ابنتي.

أخاطب يسوع وأدعو:

يا يسوع، عشت غربة، وتعذبت وخفت. هل كتب علينا أن نعاني مثلك؟ أنت الرب تتحمّل، أما نحن فبشر، ليست لدينا قدراتك. رحمتك، يا يسوع!

بكاؤكِ المتواصل أرهقني. يأتي طعام ويوضع وكأننا في معتقل! شعري تلبَّد وأصبح لزجًا كأنه مطليّ بالزيت. رمونا في هذا البؤس اللعين!

لا أستطيع النوم أو الأكل إلا مكرَهةً. وكنتِ -يا مريم- تبكين وتتذمرين، وازداد وضعك الصحي سوءًا. أما الأكل فكان مثل عقوبة. حين نفتح المعلبات نتعذب، وكأنّنا في معسكر. لم يكن عندنا الأدوات اللازمة للمائدة. الوضع يجعل النفوس تأبى الأكل وتمرّ ساعات نبقى جائعين.

يتسلّل البرد حتى ينخر العظام، ويخدّر الأطراف. أطلب أغطية إضافية. أحتضنك وألفّكِ معي، وتتكورين طيلة الوقت بحضني! حوضي يتململ، ألم في الساقين والركبتين. أحسّ أنّنا خائفون جائعون، وأشعر بعطش. أدركت أنني في ورطة!

في اليوم الثاني انفتح الباب، فدخل وهج نور حادّ وكتلة آدمية:

-سارة جبّور. تعالي.

رفعت رأسي وعركت عينيّ. وحين انفتح الباب على مصراعيه بان الضوء أكثر. شبح عملاق بالباب. وقفت بعدما جاهدت. رجلاي متيبستان، وأنت تلتصقين بي!

ينظر الآدمي فيّ من الأعلى إلى الأسفل بتمعّن. غضضتُ بصري

ثم رفعته. كان يركّز على جسدي بنظرات مريبة! هل ينظر إليّ نظرات شهوانيّة في هذا الموقف البائس؟ توجّست!

لمعت عيناه حمراوين تبحثان عن شيء تحسّه الأنثى. ارتبكتُ وخفتُ ونظرتُ إلى الأسفل. حذاؤه أسود بعنق طويل.

-هيا تعالي.

-إلى أين؟

-هناك أمر ضروري.

-ابنتي مريضة.

-أنت الآن تنفذين الأوامر.

أحلامي وآمالي تأكلها المخاوف! أنظر فيكِ، يا مريم. أتردّد في الموافقة. لكنّ خوف الأنثى يسوقني! تنساق الفريسة تستسلم بسبب خوفها. تنقاد إلى المخالب التي تتهيأ لتمزيقها.

خرجت أحملك، يا مريم. نسير وراءه في مكان غريب على بيروت التي طالما سمعت عن جمالها، أشاهد حذاءه كيف يغوص في الوحل والقذارات المتراكمة في الطريق.وأنا أسير في الوحل خلفه، أحمل ابنتي مثل السَّبيّة!

هل يتخيّلني هاشم الآن في البيت أنتظره؟ عمتي خديجة ظلت حتى موتها لا تتخيّل نزوحي أو هجرتي!

أيّ مصيبة تجرفني إلى الهاوية؟ شرفي! كبريائي، يا يسوع! هل سيحوّلني هذا الوحش إلى حيوان؟

وصلنا إلى شقّة في طرف الحيّ. عندما دخلنا أمرني:

-ادخلي وخذي حمّامًا.

-لماذا؟

-أوامر.

حاول أن يأخذك مني، فرفضت. صرت تبكين بخوف هستيري.

دخلت الحمام. الإنارة خافتة، وكنتِ بجانبي مثل الطائر الهزيل. نزّلت لباسك وأجلستك على المرحاض، واستجبتِ، يا مريم.

كرهت حياتي. صراع في نفسي عجيب. حين تشعر المرأة الحرّة أنها تُسلَب كرامتها وشرفها وأنوثتها، أنها تُنتهَك وتُعرّى كالبهيمة، تتحول إلى ذئبة قاسية شرسة، قد تحرق كل ما تطاله يدها.

لماذا لا أفعلها؟ هذا من مريم. من مريم التي خرجت من أحشائي. سيزول بالغسيل. أما قذارته فلن تزول إذا فعل فعلته. ستبقى عالقة في دمي كلعنة إلى يوم القيامة!

قمتُ بما أريد على الصدر والبطن والفخذين! وبقيت بلباسي الداخلي، ولففتُ نفسي بالمنشفة، وخرجنا من الحمّام.

اشتعلت إنارة قوية. لم أشاهد شيئًا في البداية، بسبب قوّة الضوء في عيني! كنت أفكر فيك يا مريم. أُطفئت الإنارة، وبقي ضوء خافت.

يقف في الزاوية، وصوته يرتجف، كأنه مشوّش الذهن، تتنازعه غرائز ورغبات وَحْشيّة. يبستم بنظرات جائعة، تنزّ منها الوضاعة، وتُبيّت شيئًا مخيفًا. تخرج كلماته من حنجرته مبحوحة! وكأنها تزحف بخوف. أحسست بخوفي يزداد.

أَحسَّ بذعري. تجرّأ في نظراته أكثر. يقترب مني بوجه يتلوّن. يخطو نحوي. أنظر فيك -يا مريم- وأرفع نظري. وحشيته تنغرز في خلايا جسمي مثل الإبر. يقترب ويبتسم دون أن يتكلّم.

عيناه حمراوان متوحشّتان. قالتا الكثير! تراجعتُ حتى استندت على الجدار. يقترب مني وضعت يدي على صدري وتكوّرت، وقلت بصوتٍ متضرَّع:

-لا. أرجوك!

هجم عليَّ مثل الوحش بسرعة! انفْجرَت وحشيّته بكلّ بشاعتها دون أيّ رادع، في حين أخذك صراخ مجنون. كنت تصرخين منزوية وتنظرين!

لم تكن قوّتي تساعدني، فوقعت بين قبضتيه مثل فرخ صغير بين فكّي كلب. وقعَت المنشفة. يداه تنزلقان على البقع فوق صدري. انكمش وذهل. تراجع!

لطمة على وجهي ثم رفسة قطعَت أنفاسي!

-وسّختِني يا كلبة.

لطمة أخرى على فمي. حريق يمتد باتجاه العينين والرأس. لزوجة تنزل.رفسة أخرى قوية بين فخذيّ، ظننت أن العظم تحت الجلد الرقيق انكسر.

أكتم صراخي حتى لا أرعبكِ. أبصق الدم كأني أنتقم منه. استولت عليّ أوجاع لا حدود لها، وصراخك -يا مريم- كان يرتفع. ابتعد وهو يشتم. حملتُك. انشغل عقلي بك ونسيتُ جسدي!

-مريم!

أصرخ

-مريم. مريم.

دوار غثيان. انقبضت معدتي. سكاكين تقطع أحشائي. أتهوّع. اندلق السائل الحامض الحارّ من فمي فوق جسمي، واختلط ببقع

البراز. تكوّرتُ كالكلبة البائسة، والعرق ينز من جسمي.تذكّرت ذلك اليوم متكوّرة على الرصيف قرب الفرن! هل قدري أن أموت على صليب العذاب يا يسوع؟

حين عدت إلى غرفتي البائسة أزلتُ القذارات، ونظّفتُ جسمي بمرحاض الغرفة ببرودة شديدة.

في الليل خيّم سكون يخترقه تنفسك المنتظم وأنينك المتكرّر. كانت ليلة ثقيلة، كأنني محبوسة مع جثّة! هل آخر الرحلة هنا؟ ليلة باردة جافّة بردها قاس أخرس. يبدو غيمها من النافذة أحمر كثيفًا لم ينزل فيها مطر.تذكّرت التحذيرات، ولكن الندم لا ينفع.

- «يا سارة، المهرِّبون قَتَلَة».

- «يا سارة، إنهم دجّالون قد يقتلون الزّبُون، لأتفه الأسباب. إنهم شبكات من المافيات».

- «لا تغرّكِ وعودهم. والله حياة الإنسان عندهم أرخص من حياة الكلب».

نظرت يومها فيك، واجتاحتني مشاعر قاسية، تجلد روحي، وقلت لك وأنت نائمة:

-إنني لأعترف أمامك -يا بنتي- وأنا بائسة ذليلة، جاهلة كل الجهل، أعترف بعجزي.

- 6 -

رحلة بيروت إسطنبول رحلة عجيبة، يا مريم. هل يُصدِّق أحد أنها كانت برًّا عبر سوريا؟ جمعونا، حوالي عشرين، نساءً ورجالًا وكنتِ الطفلة الوحيدة.

سفرونا من بيروت باتجاه إسطنبول. كانت التعليمات أن نستعد لسفرة طويلة وأننا لن نقف في الطريق. سفرة قد تمتد إلى عشرين ساعة. وكانت الإجابة عن الأسئلة المتنوّعة سريعة جاهزة مستعجلة. يجيب أحدهم من منخريه من دون أن يلتفت عن كل سؤال:

-وكيف نقضي الحاجة؟

-الحافلة فيها كل شيء.

-المرضى قد لا يحتملون!

-هذه ليست مسؤوليتنا.

-والطعام؟

-قلت: الحافلة فيها كل شيء.

-وإذا تعب أحدنا فماذا سيفعل؟

صمت ثم أطلق من شدقيه ضحكة ساخرة مُدَوّية، لا تتناسب مع السؤال ومشى.

الحافلة مزدحمة معتمة. نوافذها مغطاة بالستائر. فيها دورة مياه ممنوع فيها التدخين. دخّن أحدهم فضربوه أمامنا. وحين أراد أن يقاوم جاء شخص ثان، وتعاملا على ضربه. بعد تلك الحادثة ساد صمتٌ ثقيل. أنين الناس اختفى. مطبّات وضغط مفاجئ متكرّر على مكابح الحافلة. الأرجل تخدّرت. وقفت الحافلة مرتين دون أن يفتحوا الأبواب. نمتِ -يا مريم- معظم الطريق بسبب الصمت وهزهزة الحافلة.

بعد قرابة يوم كامل وصلنا إلى إسطنبول. أنزلونا ووزّعونا على حافلتين صغيرتين، كانت إسطنبول باردة تلك الأيام. غيوم سوداء تملأ الوجود، وتلتحم بالبحر والأشجار والأبنية. جسور وشبكات من الطرق لأول مرة أرى مثلها. المناظر أدهشتني. خرجنا من المدينة. لم نعرف أين نتجه؟ انضمّ إلينا ركّاب جدد في سيارة ثالثة. وصلنا مكانًا منعزلاً، كأنّه غابة خارج المدينة. بعدما دخلوا بنا طريقًا فرعيًا ملتويًا، وتوالى الرعد والمطر، وجرت المياه في الغابة، وزّعونا في بيت كبير، ووزّعوا علينا علب سردين وخبزًا.أحدهم يتذمر ينظر في زعيم المهربين:

-أين نحن؟ ما هذه الأساليب الغامضة الملتوية؟

تقبّض وجهه غضبًا:

-نحن في تركيا، في إسطنبول.

-لكن هذا كأنه ريف، وهذه غابة!

-إسطنبول كبيرة.

-إلى متى نبقى هنا؟

لا يجيب

يخترقنا الضباب ويخترق الأشجار، يبتلعها بغطاء أبيض كثيف، ويرتفع ليسدّ الأفق!

أتساءل:

-هل نحن في إسطنبول حقًا؟ هل سيتكرر ما حصل في بيروت؟

الأوامر تأتي دائمًا مفاجئة، ويعقبها منا همهمة وهمس. التعليمات أن نترك كل شيء قبل الانطلاق.

- «سننطلق إلى أزمير. ممنوع أن يبقى معنا سوى ما نضعه على أجسادنا ولباس داخلي واحد، وبعض الأغراض الشخصية».

أُلبسكِ ما أستطيع من اللباس.

كنا خليطًا، بحدود ثمانية وعشرين شخصًا من الأكراد والعرب والسريان. سوريين وفلسطينيين وعراقيين.. يزيديين ومسلمين ومسيحيين.. نحتجّ بهمهمة هامسة أمام كل مفاجئ سيّئ. يقمعون احتجاجنا ليتبدد في الهواء.

كنّا كأننا حيوانات مربوطة بحبل واحد، واهنة بليدة بطيئة الحركة، ولا تكترث بمن حولها. اللغة والرطانة والوجوه، برودة الجو، كل ذلك أربكني.

نُساق كالسبايا والأسرى رجالاً ونساء، ممنوع أن نعترض. نُعامَل بخشونة راحت تشتدّ شيئًا فشيئًا. أوصلونا إلى مكان صغير مثل مستودع، حشرونا فيه، لم يكن أفضل من مكاننا السابق، ولا من المكان الذي حُشرنا فيه في بيروت، بل يتفوق عليه بالبرودة والقرف!

ملامح الوجوه تشير إلى انتماءات مختلفة. تغلب عليها السمرة واللون الحنطي. كان الجو باردًا والمكان مزدحمًا، لم نتمكّن من الحركة. ولا نستطيع أن نخالف التعليمات!

برد أزمير في الشتاء يجمّد ماء السماء والطبيعة، وتتحجّر أرواح الناس وقلوبهم! كنتِ -يا مريم- تتقوقعين، وتدفنين رأسكِ بحضني بآلامك وخوفك.

ومع أننا نلبس طبقات من الألبسة صرنا نرتجف! يجثم فوقنا همٌّ يشبه الماء الكثيف المتكاثر!

المهرِّبون حذرون لا يحتكّون بنا. نظراتهم متلصّصة. يتفحّصون كثيرًا وتبوح عيونهم بدلالات مخيفة! كلامهم مزيج من ألغاز غامضة. يشكّون في كلّ حركة.

-يقولون إنهم يأخذون منا الهويات والجوازات.

-وحتى الجوّالات يأخذونها.

بدأت أخشى على الجوال من الفقدان. إنّنا أسرى لهؤلاء. الصّوَر هي ما يهمّني، صوري مع هاشم وأهلي وعمتي خديجة. كل تاريخي وضعته في جوّال السامسونج الذي اشتريته لهذا الغرض، وأخاف أن أفقده!

وزعونا على شقق صغيرة في غابة موحشة. أحدهم يقترب بخطى ثقيلة حيوانيّة كالوحش. ينظر إلينا ويضحك. يدرك ما يجول في رؤوسنا من مخاوف. يضحك بانشراح فيدوّي ضحكه، وهو يبتعد عن الشقة مختلطًا بأصوات الوحوش والحيوانات البرية.

يأتي آخر ويقول:

-هناك معلّبات وبعض أدوات المطبخ وإبريق شاي. قد نبقى هنا عدة أيام.

-لماذا.

لا يردّ

كنّا في الشقة أنا وأنت -يا مريم- وأسرة يزيدية من العراق أب وأم وفتاة، وأسرة أخرى مكوّنة من زوج مع زوجته في العشرينات من ريف سوريا، وأسرة كرديّة من زوج وزوجة وأم الزوج. أغلق المهربون الباب علينا بالقفل وتركونا!

الشقة مكوّنة من غرفتين صغيرتين متواضعتين مظلمتين، مع حمّام بائس. نسكنها، عشرة أشخاص، متراصّين مثل البهائم. وفيها سجّاد «موكيت» مهترئٍ، والجو بارد والجدران مبقّعة، تأكلها الرطوبة، كأنها مصابة بالجرب. أسِرّة رثّة مهترئة ضيّقة متلاصقة. تبدو لي الشقّة أشبه بالنظارة التي يتحدّثون عنها في مراكز الاعتقال!

إلى متى سنبقى مطمورين في هذه العتمة اللعينة؟

ننتظر في المنزل بعصبيّة. نتراكم مترقّبين متوتّرين. نتناوب بانتظام في استعمال الحمّام. البَرْبَقة فيه لا تتوقّف. يختلط الشخير بأصوات حيوانات ليلية تسرح في الغابة. نوازع الشعور بالخطر أزالت الحَرَج بيننا. تجاوزنا الكثير من الأمور التي كنت أظن أنه لا يمكن التساهل فيها. المنزل بائس يخلو من التدفئة وأسباب الراحة. روائح الحمّام مع القذارة المزمنة على الجدران وعلب السردين الفارغة وقشور البيض المسلوق كانت تغذي الهواء بخلطة لا تخطر بالخيال.

نسمع أصوات الحيوانات في الليل، أما في النهار، فإنها تتحرك حولنا! ثعالب وكلاب وحيوانات مفترسة جائعة تتأملنا وتمنعنا حتى من فتح الشبابيك.

الأكل أصبح أسوأ مما كان في بيروت، وشبح الاغتصاب يطاردني. كانوا مثل الثيران يدخلون علينا يبرطمون. لا أفهم كلمة مما يقولون. تفوح منهم رائحة الخمر والحموضة! يجسّوننا مثل سبايا

الموصل. كل امرأة وحظّها. أتكوّر بائسة، وأنتِ في حضني باكية مرتجفة مقرورة من البرد.

سعالي- يا مريم- مع مرضك وأنينك صارا دريئة لي بوجه هؤلاء. ظنّوا أني مسلولة، فلم يقتربوا مني. كلّما اقتربوا شمّوا روائح كريهة، وسمعوا سعالاً!

الحُرّاس مستنفرون. يمنعوننا من الخروج بصورة نهائية، وعندما نحتاج لشيء نطرق الباب دون جدوى. انتظرنا ليومين في هذه الغابة، ونحن محبوسون في زريبتنا.

بين كوابيس الليل وبرده أصابني الوهن. أنظر إليكِ كيف ينقلب لونك إلى الأصفر الشاحب، وكيف تذوبين بين يدي، ولا أستطيع فعل شيء!

- 7 -

في صباح يوم باردٍ بعد أسبوعين على المرارة التي عشناها، وكنت مريضة ومنهكة، ساقونا. الضباب يحجب أشعّة الشمس مثل دخان كثيف. في الطريق كنا نُهَرْوِل. تغوص أرجلنا بالوحل ونُهَرول. أسير في آخر المجموعة بسبب مَرَضي، ولأني أحملكِ يا مريم.

يحيطون بنا ويصرخون لنستعجل. تنزل علينا قطرت الماء من الأشجار حين نعبرها، فتلسعنا برودة مزعجة. تعثّرت وسقطت على ركبتيّ في الوحل. شكرت الرّب لأنكِ بقيتِ في حضني. أصرخ وأستنجد. جاؤوا وساعدوني! أثقَلَ الوهَن والمرض والخوف والسفر همّتي. عيناكِ زائغتان ووجهك يصطبغ بزرقة البرد مع شيء من الصفرة.

بعد سَيْرٍ وَعِرٍ مرهق وصلنا واديًا منخفضًا. آثار آدمية. معلّبات فارغة. أكياسٌ نايلون. بقايا أخشاب محترقة بين أحجار. قشور خضار. أوقفونا وأمرونا بالجلوس:

-هنا سنبقى حتى الغروب.

-نريد أن نأكل.

-نشعر بالعطش.

-تعبنا.

اهدؤوا، بعد التعليمات نطعمكم. أيّ حركة تُعرّضنا للخطر. لا ترفعوا أصواتكم. لا يمكن السير في هذه المنطقة في النهار. بعد الغروب سننطلق نحو الساحل. إنه قريب من هنا. نمشي بحدود ساعتين بعد هذا المرتفع.

يحرسوننا كأننا مساجين، ويحيطون بنا مثل العسكر، كنا ثمانية وعشرين شخصًا. توزّعنا جماعات. حاولنا أن نشعل نارًا فمنعونا.

عبارات تهمس حولي:

-الكوماندوز الألماني ألقى بطفل عمره ست سنوات في البحر، فلحقت به أمّه، ليموت الاثنان. بين أزمير واليونان.

-قرأت خبرًا يؤكد غرق ثمانية وخمسين مهاجرًا غير شرعي، معظمهم من السوريين بين تركيا واليونان.

-على هذا الطريق هاجم سمك القرش قارب مهربين وأغرقه!

-العصابات تكثر على هذا الطريق.

رحمتك يا يسوع هل يشجعني هؤلاء؟

أشعلنا نارًا ونمتِ -يا مريم- بجانب النار المشتعلة بعد التعب، وسَكَن بكاؤكِ.

عند الغروب أعطونا أوامر بتفقد حاجاتنا وتجهيز أنفسنا. ثم سرنا باتجاه الساحل.

أصوات المهاجرين بدت همهمة عصبية متداخلة. لهاثهم يعبرني. تتجاوزني خطواتهم. لهم جلبة تشبه خوار البقر في الغاب. كانوا يمسحون وجوههم، ويدعون أدعية بلغات عربية وكردية وسريانية. همهمات متنوعة خافتة، مرتعشة. ثلاثة ثلاثة اثنين اثنين واحدا واحدًا. وأخيرًا عبرنا -يا مريم-. ينظر إلينا المرافق. يستعجلني ويصرخ بي كي أسرع.

حين وصلنا الشاطئ نفضت الطين الذي علق بلباسنا، وأزلت أوراق الأشجار اليابسة الميتة عنك وعني.

حلّ صمت بعد وصولنا أشبه بصمت الموت. على حافة الشاطئ جمعونا بقسوة، كما يُجمع قطيع. ساقونا كالحيوانات. أعطونا بعض التوجيهات:

-تركبون بدون صوت وجلبة، بهدوء مطلق، كما رتّبناكم تصعدون. أدنى خطأ يؤدي إلى كارثة. من يخالف التعليمات سنرميه في الماء.

يقول آخر:

-لأن الرحلة قصيرة وسريعة سنسلّمكم جاكيت النجاة «اللايف جاكيت»، الآن تلبسونه قبل الركوب من باب الاحتياط. ثم حين نصل ويتوقف المركب، تنزلون على الشاطئ. في اليونان تنتظركم سيارة، وإذا حدث خطأ ووقعتم بأيدي الشرطة اليونانية يجب أن تُتلِفوا كلّ الأوراق الثبوتية.

ويسأل بعضنا بلهفة:

-وهل هذا وارد؟

-احتمال ضعيف. واحد بالمئة. الرحلة مضمونة، لكن من باب الاحتياط.

ثم يضيف:

-هناك يعطونكم التعليمات. انتبهوا تحمّلوا «اللايف جاكيت». مدّة الرحلة. القارب سريع بحدود نصف ساعة ونَصِل.

قسّمُونا مجموعتين، كلّ مجموعة أربعة عشر شخصًا. كنا يا مريم، في مجموعة القارب الثاني.

يتحرّكون بيننا. يتجاهلون استفساراتنا، أو يردّون بقسوة، ويطلقون صيحات تهديد عصبية منفعلة. انطلق القارب الأول. ظلوا مترقّبين، ويتحدثون حولنا كأنهم يتواصلون معه.

أرعدت السماء فوقنا. هبّت موجة هواء باردة. هدَرت الأمواج في الظلام وارتطمت بالصخور. لطمَتها بقسوة قبل أن تتبدد في البحر. تلفّتت الوجوه. والعيون تسأل صامتة تترقّب. تتفحّص. تبدو أجسادنا في «اللايف جاكيت» مبرومة مكتنزة، كأننا طيور بطريق تنتظر على الشاطئ.

- نصف ساعة وتكونون في اليونان.

نحلم بالوصول إلى اليونان. ونحلم بنهاية مرحلة العذاب. يسوقوننا نحو القارب بالزجر والصراخ. كدّسونا وكان أحدنا مصرًّا على جلب حقيبة متوسّطة الحجم معه، وأصروا عليه بخشونة أن يتخلّص منها. أخذ منها بعض الأشياء ثم رماها ممتعضًا، وانطلق قاربنا.

كنّا مكدّسين في مركب صغير بالكاد يتسع لنصف عددنا! تضيع نظراتنا في الظلام والحركة. هدير وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عصبية. يرطن أحد المهاجرين بالكرديّة. شتائم. لغة الشتائم وحركاتها لا تخفى!

الرياح قويّة والأمواج تلطم المركب بقوّة. تتفاعل في أعماقي مخاوف لا أعرف كيف تتنامى وتعصرني عصرًا. عندما أطبقت علينا الظلمة المطلقة، هدير المركب ورذاذ الماء الذي يتساقط علينا بسبب اندفاع المركب والظلمة الحالكة تركت في داخلي شعورًا بأني أخطأت، بل بأني ارتكبت مصيبة بحقِّكِ، يا مريم. في داخلي خوف وندم وخِشية من أن يكون خروجي من سوريا خروجًا أبديًّا. أفكّر، هل يكون والدكِ حياً؟ المركب يتمايل. ونحن نتوتّر. الماء يقطر

من الشعر والوجوه. صراخكِ -يا مريم- يرتفع، ويضيع في الزحمة والضجيج.

رطوبة البحر لزجة تسبّب الضّيق. أرتجف وأتجمّد من البرد في ظلام حالك. أضمّك -يا مريم- حتى أدفِّئك. أمدّ يدي الأخرى، وأبعد الأجساد التي تضغط عليكِ. أقاوم كي أتنفس وأتحرّك لأحميكِ. الأجساد حولي تضغط وجسدي المُنهك يؤلمني. أفكّر فيكِ فأنسى ألمي. لكن أطرافي تتخدر. أجاهد حتى أتحرَّك لأحميك.

احتجاجات وصراخ وألفاظ ومشادّات غاضبة يبتلعها الهدير.

ينطلق المركب مسرعًا، وكأنه يطير فوق البحر. أمواج عالية تفاجئنا وترفعنا عاليًا ويميل المركب ثم يهبط بنا، وكأننا في كهف يغور في البحر. نتصوّر أننا سنغرق فنطلق صرخات يرد عليها حرّاسنا بمزيد من الشتائم.

كنتِ -يا مريم- تحتمين بي مثل فرخ طير صغير. يبوح وجهك الهزيل بالرعب. كيف وضعتك في هذا المصير؟

أسمع صوت رنا يتكرر بإلحاح: «مغامرة، مغامرة يا سارة. مغامرة، مغامرة يا سارة. مغامرة، مغامرة يا سارة»!

كان قد مرّ على انطلاقنا حوالى ثلث ساعة عندما فاجأتنا أنوار قويّة موجّهة نحونا.

-هل هم البوليس التركي أم اليوناني؟ يسأل أحدنا وقد أصابنا خوف يجمّد العروق

نراهم يتوجّهون مباشرة نحو المركب ومصابيح يدوية صغيرة تحيط بنا!

-مافيا، مافيا ألمانية... لا مجال للهربّ

«ماذا فعلتِ يا سارة! يا يسوع...

انقضوا علينا مثل الوحوش. يضربون ويفتّشون أقاوم، يريدونك -يا مريم-وبضربة واحدة كنتُ غائبة عن الدنيا، إلّا من صوتك -يا مريم- تصرخين:

-ماما. ماما. ماما!

- 8 -

أشعر أنّ وجهي مُتورِّم وفمي يابس! تظهر الوجوه أمامي في سُحُبٍ ضبابية صفراء قاتمة. تهتزّ وتختفي من جديد، أريد أن أتكلّم فلا أقدر! يدور الكلام في رأسي. هل أخذوها؟ هل قتلوها؟ لماذا تركوني هنا؟ ماذا فعلوا بي؟ أين مريم؟ أردّد: «مريم. مريم!».

حوار يدور بين أشخاص بجانبي لا أفهم منه شيئًا. أحاول أن أعرف من هؤلاء؟ أتراك؟ حرس يوناني؟

لا أعرف أين أنا؟

التقطت بضع كلمات إنكليزية رديئة فهمت منها أنني في تركيا.

حين صحوتُ -يا مريم- كانت بطني تؤلمني، ويدي متورمّة، وصدري يؤلمني بشدّة. أشعر بالبرد يجتاحني ويخلخل عظامي. أحاول بكل طاقتي أن أستعيد وعيي. أسأل:

-أين مريم؟

أيادٍ تتفحّصني، أحاول إبعادها، لكن لا طاقة عندي. أحدهم يضع السماعة على قلبي. إبرة تنغرز في إليتي. ما كل هذا يا يسوع؟ يا رب؟ أتأوّه وأبكي. أعضّ على شفتي. فكّي يؤلمني.

كأني سمعت صراخك -يا مريم-. شهقتُ ونهضتُ. نارٌ كاوية لسعتني في خاصرتي وبطني! رجلايَ لا تقويان عل النهوض. لا أرى إلا الحرس وأجساداً ممدّدة في المكان. وأشخاصاً يلبسون ثياب شرطة ويرطنون بالتركية!

أغيب عن الدنيا من جديد. أرتمي بين الأجساد! يؤلمني صراخك، يا مريم. أفتح عيني، وأرفع رأسي. بكل ما عندي من رمَق أحاول النهوض ولا أفلح فأزحف على أربع ولا أستطيع أن أتخطّى الأجساد. أرتجف وأتألّم وتخونني قدرَتي فأرتمي متكوّرة على جنبي!

أفتح عيني وأحاول:

-مريم. مريم!

لا أحد يجيب. صمت وأنين متقطّع وهمهمات ورطانة لا أفهمها. أرفع رأسي:

-مريم، أعيدوا بنتي مريم.

كأنّ الصراخ لم يتخطَّ رأسي. أسقط وفي رأسي طنين وأصوات. لم أكن غائبة عن الوعي، بل كانت كل نبضة حياة فيّ مشغولة بكِ.

يحملونني وأنا في وهن أشبه بالغيبوبة المتواصلة. أدرك أنني صرت في سيارة. ربما استمرت الرحلة ساعة أو ساعات! الأضواء تتطاول وتتراقص عملاقة. أصوات متداخلة. هدير سيارات!

أنزلوني من السيارة، ووضعوني علي سرير وعرفت أنني في المشفى، وبعد مضيّ وقت صحوت قليلاً، وكنت أسمع أشخاصًا يرطنون بالتركية. لا أفهم كلمة واحدة، وحين تمكّنت من الكلام وسمعوا عبارتي العربية الرخوة ابتسموا. أدركتُ أنهم لم يفهموا، فكرّرتُ السؤال عنكِ بالإنكليزية، ولم يفهموا. تطقطق ألفاظهم ثقيلة على رأسي كالقرقعة! أشعر بدوار تتكاثف الظلمة من جديد.

بعد مضيّ وقت لا أعرفه، وأنا ممدّدة على سرير، جاءني رجلان وامرأة. سألني أحدهما بالعربية:

-ما اسمك؟

-سارة طوني جبّور. أين ابنتي؟

-من أي بلد؟

-من سوريا. من محَرْدة. أين مريم؟

-متزوّجة؟

-نعم.

-ما اسم زوجك؟

-هاشم سعيد الحسين من الرقّة. أرجوكم أين مريم؟

-من معك من أسرتك؟

-ابنتي! أين ابنتي؟ أين مريم؟

-من مريم؟ الطفلة الصغيرة المصابة؟

-مصابة؟ من أنتم؟ أين هي؟

-نحن الشرطة التركية وجدناكم في قارب، وابنتكِ بخير لا تقلقي. إصابتها ليست خطيرة، اهتمّي بنفسك الآن!

-أريد أن أراها، أرجوكم!

-هي موجودة والأطباء يعتنون بها، بعد ساعة أو ساعتين تكون بجانبك!

كنت أشعر بدوار وأدخل أحيانًا في ما يشبه الغيبوبة وأصحو. بعد ساعات وإلحاح مني جاؤوا بك ورأيت وجهك المتورّم! صرت أنزف وجعًا وندمًا وشقاءً! تحسّست فظاعة الكارثة، وشربت دمعي،

وكفّنت أحلامي، وتكوّرت على نكبتي! أنفاسي النادمة كأنها وجع يمتد ويخرج حارقًا مرًّا يملأ الفضاء. وضعكِ يعذّبني -يا بنتي- وأنا في وحدتي وغربتي.

أتلفّت. أغيب. يحضر يسوع يمسح بكفه. أصحو فأكلّمكِ ولا تردّين أنتِ أيضًا غائبة!

في اليوم الثالث صحوتِ، يا مريم، ألصقتِ جسدكِ بجسدي ووضعتِ يدكِ على وجهي. على الرغم من ألمي عادت إليّ الحياة. كان ألمي شديدًا.

-سيّدة سارة، أنت تعانين من نزيف معوي، وتحتاجين إلى مراقبة لفترة.

-أريد أن أعود إلى سوريا.

- تحتاجين إلى مراقبة لفترة لا نستطيع تحديدها الآن. نرجو أن تهدئي. أنتِ وابنتكِ في مكان آمن اطمئنّي.

كيف أطمئنّ والندم يجلد قلبي؟ غريبة مع بنتي اليتيمة الوحيدة، وألم حارق في أحشائي!

-سنخرجك إلى المخيمات في غازي عينتاب، لكن انتبهي تحتاجين إلى مراقبة طبيّة. النزيف المعوي قد يعاودك. زوّدناك بالدواء اللازم. ومراقبة وضعك الصحي ضرورية.

الغربة لئيمة حتى لو كانت ليّنة وناعمة. أشعر حين رأيت خيم اللاجئين السوريين أني تطهّرت، وأن المسيح يجرّني من يدي إلى الملكوت بخطى واثقة. أحس بمحبّة عميقة. أحسّ بكِ تكبرين،

يا مريم. أتحسّس مفاتيح البيت فقد أعدتها إلى جوار قلبي. سالت دموعي على وجنتيّ.

حين وصلنا إلى المخيّم وأنزلتكِ عن يدي رحتِ تنظرين وقد انزاح عنكِ ذلك الخوف الذي كنت أراه في عينيكِ منذ أن دخلنا ذلك الكهف المشؤوم في بيروت. تنظرين هنا إلى الناس. إنهم يشبهونكِ، ويشبهونني! أخذني شعور خفيّ، كطفل وجد أمه، مع أنّ الحمّى تشتدّ. أبادلهم النظرات والابتسامات وأنت تتنقّلين بينهم، وتنظرين إليّ بفرح لم أرَه فيكِ. فرح عذب يملأ روحي ويفيض!

«لاجئة جديدة». هكذا يقولون.

أنظر فيهم وأرى في وجوههم جروح سوريا!

لم يخصّصوا لنا خيمة مستقلّة. وضعونا مع عائلة أخرى مكوّنة من أم وابنتيها. عائلة هي الأخرى مكلومة بفقدان الزوج وولدين قتلوا في ذلك الجحيم. في الخيمة كومة فُرش وبطانيّات. واحد مع بطانيّتين خُصّص لي ولك يا مريم، وقدّ عرفوا أنني مريضة ويصعب عليّ التحرّك بسهولة. اسم الأم خديجة! يا للقدر! آه يا عمتي خديجة.

كانت العائلة تعرف أننا سنحلّ ضيوفًا عندها. اهتموا بنا كأنهم أهلنا. ما إن دخلتِ الخيمة حتى أخذتكِ البنت الصغيرة، عمرها أربع عشرة سنة. أخذتك مني وهي تبتسم لكِ. لم تمانعي.

تعالي يا مريم أمكِ مريضة وسنهتمّ بها.

ذهبتِ إليها من دون اعتراض. وعلى مدى أسبوع تصرّفْنَ كأنهن ممرّضات، يساعدنني على الاستحمام. يراقبن صحتي. يحرصن على أخذي الدواء في الأوقات المحدّدة. يعاملنْك بدلال ومودّة.

الفتاتان تذهبان يوميًا لمدة أربع ساعات إلى مدرسة في المخيّم. وتلك السيدة الرائعة، خديجة، تهتم بكِ وبي. عندما تعود الفتاتان تنتظرينهما بلهفة، وتتسابقان فور دخولهما الخيمة على احتضانكِ. وعندما يأتي وقت الدرس تُجلسكِ زهرة بجانبها وهي تحضّر دروسها. تعطيكِ قلمًا وأوراقًا وتقلّدينها. وفاطمة الأخت الكبرى تكتب على دفترها مواعيد شربي للدواء.

تحّسنت حالتي قليلاً، انعكس الجوّ النفسي المريح على جسَدي. صرت أساعد الفتاتين في دروسهما. وكانتا فرحَتَين. علمتا أنني كنت أعمل آنسة، وأنني أدرّس الإنكليزية وهي المادّة الصعبة عليهما.

كنت أنظر إلى الأوراق والدفاتر بشغَف. لا أدري لماذا خطرت ببالي فكرة أن أكتب حكايتنا يا مريم!

سألتُ فاطمة:

-هل بإمكاني شراء دفاتر وأقلام؟

عقّبَت مباشرة:

-يقدّمونها لنا من دون مقابل.

وفي اليوم التالي جلبت لي دفترين وقلمين، وبدأتُ بكتابة هذه الحكاية، يا مريم.

معظم الحديث هنا في المخيّم عمومًا، يدور على مشاكل التهجير واللجوء والتطوّرات التي تحصل في سوريا. يأتي إلى الخيمة مسؤولون من منظمات دولية، ومعهم شباب وشابّات سوريّون للاطمئنان على وضعي. أتأمّل وأسترجع كل شيء وأكتب.

أسمع حديثًا عن وصول مجموعة، حوالي عشرين شخصًا، استطاعوا الفرار من أحد سجون ذوي اللّحى الدمويّة، يقولون: إن معظمهم من الرقّة. يرف قلبي. صوت من بعيد، من أعماق روحي يحرّك ذكريات لا تزال حيّة نابضة: أين أنت يا هاشم؟

كأنني أسمع صوت عمتي خديجة:

«يا سارة انتبهي على مريم. هذا البيت بيتها».

«نعم يا مريم لك بيتان واحد في الرقة وآخر في محردة».

أكتب، وأصلّي، وأدعو، وأتألّم. أسأل عن الفارّين. أطلب من خديجة، بعدما سمّيتها عمتي خديجة، أطلب منها أن تستقصي أخبارهم وأسماءهم.

تقول عمّتي خديجة: إنّ الشرطة التركية أخذتهم، فبعضهم جرحى يحتاجون إلى عناية طبّية والآخرون يجب أن يخضعوا إلى التحقيق لمعرفة انتماءاتهم وظروف فرارهم. يقولون: مسائل أمنيّة.

كل يوم على الرغم من الألم، عندما تعود الفتاتان من المدرسة، وبعد أن تنتهيا من دروسهما تأخذانك في جولة في المخيّم. أو تلعبان معك فأتفرّغ أنا للكتابة. أكتب وأكتب فيحضر والدك أمامي. تحضر كل الذكريات. تحضر عمتي خديجة وأمّي وعمّتي ليلى ووالدي ورنا... أحسّ بسباق بين حمّى جسدي وحمّى رغبتي في أن أنهي حكاية نزوحك، يا مريم.

تعود الحمّى إلى جسدي. أصحو فأتابع الكتابة، إلى أن أرحل من جديد لأعيش في عالمي بين الغيبوبة واليقظة.

ثلاثة أسابيع مرّت علينا في هذا المخيّم، بين هذه العائلة التي أرجو الله أن يمكّنني يومًا من مكافأتها. لكنّ الحمّى تزداد. أنادي على عمتي خديجة وأقول لها:

يا عمتي، هذه المفاتيح لبيتنا في سوريا. إنها أمانة معكِ. أمانة إن أصابني شيء فهي لمريم. وفي هذين الدفترين كل ما تحتاج مريم لمعرفته.

تقاطعني:

اهدئي يا بنتي، كلّ شيء سيكون بخير. أنا أدعو لكِ كل صلاة. وإن شاء الله سنعود كلّنا. وستعودين مع ابنتك.

يا عمّتي، سمعت عن هروب مساجين من الرقّة. اسم والد مريم هاشم سعيد الحسين، لا أعرف هل بقي حيًّا أم مات. لقد أخذوه شبه حيّ من بيتنا في الرقّة. ولا أدري لماذا أحسّ كلما غبت عن الوعي كأنه يأتي ويقول لي:

-سارة. ارفعي رأسك. لا تذهبي هذا أنا هاشم.

هامش أضافته فاطمة بعد عشرة أيام:

نُقلت سارة إلى المشفى بعد أن تدهورت صحّتها كثيرًا، وبقيت مريم معنا. ثم بعد أسبوع جاءنا رجل وما إن شاهدَتْه مريم حتى أخذها بكاء وضحك. ركضَت نحوه. ارتمَت عليه. تتمسّح به. تبكي وتضحك وتقفز. تنظر فيه وترتمي عليه من جديد بدهشة أبكتنا! قال الرجل وهو يضمّ الصغيرة متأثرًا: أنا هاشم سعيد الحسين والد مريم. ونقل إلينا خبر وفاة سارة. كان منهكًا شديد التأثّر. وهو يحتضن مريم بجسده وروحه.

نيسان 2015

نزوح مريم

محمود حسن الجاسم

كأنما هو سباق بين الحبر والدمَ في سوريا، يسيل الحبر محاولاً وقف سيلان الدم. يكاد ينحصر موضوع الكتابة في تلك المأساة التي يعيشها السوريون اليوم.

إليك يا مريم أدوّن الحكاية... تركت لكِ مفتاح البيت... ستعودين يا مريم وتغتسلين بياسمين الوطن لتدفني ذل النزوح والضياع، وليضيء جمالك في الدنيا كلها!

إذا سألهم أحد عمّن هجّرهم وأحرق منازلهم يردّدون عبارات مبهَمة متردّدة، غامضة. تبدو أجوبتهم متهرّبة، قلقة، وخائفة. يبتعدون عن كل ما يثير أسئلة حولهم وحول أسباب نزوحهم.

معظم الحديث في المخيّم يدور على مشاكل التهجير وذلّ النزوح وتطورات الوضع في سوريا. يأتي إلى الخيمة مسؤولون من منظمات دولية ومعهم شباب وشابّات سوريّون للاطمئنان على وضعي. أتأمّل وأسترجع ذكريات كثيرة. وأكتب.

من الرقّة التي فرض عليها السواد أصحاب اللحى، إلى محردة التي يسيطر عليها "الشبيحة"، إلى حُلم الهرب، يكتب محمود حسن الجاسم سيرة عائلة سورية، الأب مسلم والأم مسيحيّة. يكتب بلغة محمّلة بالمشاعر، وبالرّغبة في التعبير عن مأساة قد يصعب التعبير عنها.

ISBN 978-977-6483-34-7



